

أبو العيد دودو

الجزائر

في مؤلفات

الرحالين الألمان

1830 - 1855



أبو العيد دودو

الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان

1830 - 1855



صدر هذا الكتاب من وزارة الثقافة بملف
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
بمبادرة وزارة الثقافة في المكتبات ولا يباع

كتب أخرى للمؤلف

صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

- 1967 بحيرة الزيتون (مجموعة قصص) الجزائر
 1968 التراب (مسرحية) الجزائر
 1971 دار الثلاثة (مجموعة قصص) الجزائر
 1971 كتب وشخصيات (دراسات) الجزائر
 1971 مدخلو المنهش (ترجمة) الجزائر
 1974 مذكرات بفايمر (ترجمة) الجزائر
 1976 ثلاثة سنوات في شمال إفريقيا ، مترجم ، ج 1
 1979 ثلاثة سنوات في شمال إفريقيا مترجم ، ج 3
 1979 ثلاثة سنوات في شمال إفريقيا ، مترجم ، ج 2
 1980 قسطنطين إمام أحمد باي (ترجمة) الجزائر
 1981 الطريق الفضي (مجموعة قصص) الجزائر
 1981 البشر (مسرحية) الجزائر
 1985 صور ملوكة الجزائر .
 1986 الشاعر وقصيدته الجزائر

مقدمة

عندما نذكر الجزائر ، وهورق لنا أن نتحدث عنها لشامة ما ، نبادر إلى أذهاننا لأول وهلة كلمات مختلفة ، تكاد لتوهمها أن تكون مترادفات لها . فهي تعني الثورة والتضحية ، الجهاد والنضال ، التضامن والأخوة ، الحرية والكرامة وبالتالي الفكر والإشعاع ، وإذا اقتصر مدلول بعض هذه الألفاظ على عصرنا الحاضر ، فإن لبعضها الآخر جذوراً تاريخية عميقة ، امتدت عبر عصور متتالية وخصها التاريخ بصفحات رائعة ، لا تزال للأسف الشديد تحمل حلقات مفقودة في تاريخ الجزائر وثورتها الحديثة .

والظروف الراهنة ، التي نحاول فيها إعادة بناء شخصيتنا الوطنية ، تفرض علينا أن نهم بمعرفة تاريخ الثورات والبطولات التي عرفتها أرضنا المجيدة . فمن المؤكد أن هذه المعرفة تساعدنا على الاعتزاز بماضيها ، والحفاظ على خصائصها المتوارثة ، والتمسك بكل ما يمثل أجدادنا خلال عصور وعصور ، كما أن من شأنها أن تكون وقاية لنا من الإسلام والعبودية الفكرية والتبعية الحضارية . ولكن التاريخ لا يكتب نفسه بنفسه ، فهو انطواء وموت بطيء وظلام . فلا بد إذن من إحيائه وإعادة كتابته بطرق سليمة ، لا فرق في هذا بين الماضي القريب والبعيد ، وذلك قبل أن يضيى حاملوه من رجال وكتب ووثائق ، وهذا ما تفعله الشعوب التي تحرم كل الحرص على أن يظل ماضيها حياً ناطقاً بمفاهيمها ومآثرها ، لتبني على أساسه حاضرها ومستقبلها ، ولتطور على ضوئه لغاتها وشخصيتها .

والتاريخ عندها في تجديد مستمر وبعث متواصل ، فيما هو إلا ضميرها الوطني ووجدانها القومي وإيمانها بذاتها ، بل هو جزء من معتقداتها ، ومن ثم يجد الباحث من أبنائها ، حين يتصدى للكتابة عنها ، مصادر متوعة تعالج دوراً من أدوارها التاريخية ، تتطلب منه دراستها والإحاطة بمزلياتها مجهوداً كبيراً ، وقد يختلف مع هذا المورخ أو ذاك في النتائج التي توصل إليها ، إلا أنه لا يخافه الشك أبداً في أن مواطنه قد وضع كتابه

بدافع من ضميره الوطني وإلى هذا الحد يمكننا أن نتساءل كيف يستسي لنا أن نعيد كتابة تاريخنا والحال أننا قلما نعثر على مصادر وطنية من نوع ما نجده لدى الشعوب الأخرى ؟ كيف يمكننا ذلك ونحن نعلم سلفاً أن تاريخنا قد كتبه مؤلفون أجنب ، كانت هانيتهم في أغلب الأحيان ، الدس والتشويه ، لأن مصالحهم اقتضت دائماً قطع كل صلة تربطنا بماضي أجدادنا ؟

لست أول من يطرح هذا السؤال كما أنني لست مؤرخاً صحيح له إطلاعه الواسع ، وتجاربته المتنوعة في هذا الميدان ، أن يجيب عنه إجابة مرضية ، وبالرغم من هذا فلاي أعتقد أن من واجب كل من يظن لغة أجنبية أن يشارك في إعادة كتابة تاريخ بلاده بعض النظر عن ميدان اختصاصه . ومشاركته هذه تم في نظري عن طريق عرض النصوص المكتوبة بهذه اللغة أو تلك وتقديمها للمؤرخ المتخصص لتقومها وريطها بقراءتها التاريخية ثم مقارنتها بقيرها من النصوص لمعرفة مدى صحتها وموافقتها للوقائع التاريخية ، وذلك بطبيعة الحال فيما إذا تعذرت ترجمتها كاملة لصعوبة استعارتها لمدة طويلة أو لأي سبب آخر . ونحني عن القول أن هذه النصوص المكتوبة بلغات أجنبية مختلفة ، زيادة على احتوائها على تجارب خاصة بكل مؤلف من مؤلفيها ، بشكل بعضها قسماً من التراث الوطني لا تزال أصوله العربية مجهولة غير معروفة لنا .

والفضل في وجود نصوص من هذا النوع يرجع إلى أن الجزائر قد عرفت في القرون الأخيرة ، في نهاية العهد التركي وإبان الاحتلال على الخصوص ، عدداً غير قليل من الأسرى والعبيد ، كانوا يتمون إلى معظم شعوب أوروبا ، وزارها كذلك بعض الرحالة والكتاب والعلماء والشعراء . وبعد أن رجع هؤلاء وأولئك إلى بلدانهم أصدروا كتاباً على شكل رحلات أو بصورة رسائل أو مذكرات ، تحدثوا فيها عن تجاربهم الشخصية في الجزائر وعلاقاتهم بأهلها ، وعبروا عن موقفهم من قضاياها الدينية والاجتماعية والسياسية والنظامية والخلقية ، كما تطرقوا إلى وصف العادات والتقاليد وأساليب الحياة في المدن والقرى والأرياف ، ومن هنا نجد العديد من هذه الكتب في مكتبات أوروبا ، تختلف قيمتها بين كتاب وآخر ، وهذا لو شكلت وزارة الثقافة لجنة لجمع هذه الكتب من المكتبات العديدة في أوروبا ليستفيد منها الباحثون .

1989/4/19

الفصل الأول الجزائر في مؤلفات الرحالين الالمان

(1830 — 1855)

سأفصر حديثي فيما يلي على قسم ضئيل منها مما يوجد في مكتبة جامعة
قيسا باللغة الالمانية من وضع الرحالين الالمان أو الذين أقاموا منهم مدة في الجزائر
لظروف خاصة ، وذلك دون الاهتمام بما ترجم اليها من لغات أخرى ، كاللغات
الشمالية مثلا ، والاكتفاء بالإشارة اليها خلال العرض إن دعت الحاجة الى هذا .
وليس من الممكن طبعاً تفصيل الحديث في هذه الكتب ، وإنما ستعرض لأهم ما
ورد فيها ، فليحل فيه ما يساهم في تجديد ملامح الشخصية الوطنية من خلال ما
كتبه هؤلاء الالمان في الفترة الممتدة ، ويلقى قليلاً من الضوء على الظروف التي
كانت تعيشها الجزائر آنذاك ، وبمكثنا من الاطلاع على حقيقة الصراع الذي عرفه
أجدادنا في مختلف الميادين ، ويهدينا الى النهاية الى افكار وآراء تختلف عما تعودنا
قراءته في الدراسات والنصوص التي كانت تستهدف تجريد شعبنا من كل ما له من
مميزات ومحات عريقة .

ملاحظات عامة :

قبل أن نبدأ بمرص البعض مما ورد في هذه المؤلفات يجدر بنا أن نلاحظ
أن الرحالة الالمان لم يهتموا كتبهم عن الجزائر بحباها ، ودفاعاً عن حقوقها ، وإنما

وضموا اكثراها ، ولا سيما في الفترة الاولى ، لتكون دليلا لمن أراد من مواطنيهم الهجرة الى الجزائر لانشاء المستعمرات والاقامة بها اقامة دائمة تحت ظل الاحتلال الاجنبي وحماية حكومته ! ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نتظر منهم غير هذا الذي فعلوه . فقد كانت مصالح مواطنيهم مرتبطة بمصالح الغزاة سواء بحكم رغبتهم في الانضمام الى الفرقة الاجنبية أو بحكم نية الهجرة الى المستعمرة الجديدة الرائعة ، كما وصفها أحدهم . هذا بالإضافة الى انها كانت اقرب اليهم من امريكا أو البرازيل وغيرها من دول العالم الجديد التي كانوا يهاجرون اليها سابقا . ثم انهم كانوا على الاغلب يشاركون المخطئين في عواطف الحقد على الدولة الجزائرية السابقة ويرغبون رغبة كاملة في الانتقام ، تحت ستار الدين والتضامن الاول ، من أولئك الذين كانوا يكونون نواة تلك الدولة أو أصبحوا يجسدون القوة القوية التي وقفت في وجه الغزاة وأخذت تقاومهم من خلف الاسوار والغضاب والمرتفعات .

ينبغي إذن الا نعجب حين نعلم ، ونحن نقبل على قراءة مثل هذه المؤلفات ، على كثير من الآراء المنطوقة ، والافكار الخاطئة التي هي مجرد صدى لما كان يدين به ذلك العصر من رغبة في السيطرة والتحكم ، وشغف بالسلب والنهب والعدوان ، وحب المال وتكالب على بحيرات الغير وأرضه وضياعه وممتلكاته وحصوله . وليسنا في حاجة الى ذكر هذه الآراء والتعقيب عليها ما دامت لا تضيف جديدا الى ما سبق أن عرفناه في مؤلفات اخرى . وانما نكتفي بما يقدم غرضنا ويكشف عن بعض جرائم الدخيل ولفظاته أو يريدها اوضحا لو يتخذ منها موقفا انسيا صريحا ، ولكن هذا لا يعني أن علينا أن نأخذ كل ما سيرد في خلال هذا العرض أو في النصوص المترجمة على أنه قضية مسلحة ، وانما ينبغي أن نضع في اذهانتنا دائما ان المؤلف ، اي مؤلف كان ، عرضة للخطأ في المعلومات التي يقدمها ، فقد يعرود مثل هذا الخطأ إلى عدم معرفته للفتن الوطنية وقلة اطلاعه على الاحداث القومية اطلاعا مباشرا أو لتسرع في الحكم دون تحري الحقائق التاريخية أو لتعلقه بوجهة نظر معينة ، فالتورخ الجزائري حر بعد ذلك في أن يرفضه ان يقبله وينبأه بعد مناقشته مناقشة علمية رقيقة .

اهتمام الألمان بالجزائر :

لقد اهتم الألمان في بداية الأمر بترجمة ما كتبه المؤلفون الأجانب عن الجزائر فقلوا الى لغتهم كتاب الرحالة الانجليزي توماس شو «رحلة في ولاية الجزائر» سنة 1765 ، وكتاب الشاعر الايطالي فيليبو بناتي «رحلة الى سواحل البرابرة» عام 1824 ، وكذلك كتاب رنودو عام 1830 . وبعد احتلال الجزائر بمدة قصيرة نشرت مجلة الكتب السنوية في عدد سبتمبر سنة 1830 دراسة مطولة ، استقت الكثير من معلوماتها عن الجزائر من المجلة الايطالية للعلوم والآداب والفنون وأضافت الى ذلك شيئا مما عثرت عليه في مراجع ومصادر اخرى ، واستعانت أيضا بكل من شو ، وبناتي ، وبيير دال ، الذي صدر كتابه عن الجزائر في باريس عام 1649 وقد تحدث مؤلف هذه الدراسة عن ولاية الجزائر ومدنها وموانئها وجبالها ووهادها وأنهارها وبحيراتها وجوها ومناخها وخصوبة أراضيها ومتجاتها الزراعية ، وأشار الى أهم مدنها وقدم خلاصة لتاريخها ، وخاصة القل وبجاية وعنابة وجيجل وقسطنة والجزائر ، ويذكر ان بالجزائر عشرة مساجد كبيرة وحوالي خمسين مسجدا صغيرا وخمس مدارس وعلما كبيرا من مدارس الكتاب . ولعل أهم ما ورد في هذه الدراسة هو الحديث عن مسألة العبيد التي اتخذتها أوروبا ذريعة للاعتداء المتكرر على السواحل الجزائرية والإشارة الى أن هؤلاء العبيد كانوا قد أصبحوا ملكا للدولة الجزائرية قبل خمسين سنة ، وأنه من الانصاف الاعتراف بأن أوضاع الاسرى في الجزائر كانت افضل بكثير من اوضاع أمثالهم في البلدان المسيحية . ذلك أن العبودية في البلدان الاسلامية عبودية منزلية ، يكره عليها العبد ومن ثم يشق عليه احتلالها . وقد تقلد كثير من عبيد الجزائر وظائف سامية ، جلبت لهم الخير والنفع والثراء ، وهناك من صعب عليه أن يترك الجزائر ويتحلل عن أرضها ومجائنها ، ولما غادرها وعاد الى بلاد أوروبا المتقدمة امتلأ قلبه حسرة عليها وعلى النعيم الذي عرفه فيها كعبد أحمسي ، إذ كانت مصدر سعادة وهناك بالنسبة له . ويتحدث المؤلف عن امرأة سويدية عاشت في الجزائر مكرمة معجزة ، انتقلت الى استانبول قبل الاحتلال بمدة قليلة . ويبدو أنها قد تحدثت مع بعض الأوروبيين عن أوضاع العبيد في الجزائر .

وتذكر المحفة في مهابة دراستها من الجرائير لا يقتصرهم الذكاء ولا المواهب
ولا القدرة على التطور ، ولكن الاصطفاء التركيبي هو الذي تركهم على هذه الحالة
التي هم فيها ! وقد بدأ اتصالهم بأوروبا قبل نصف قرن ، اد سافر اليها كثير
منهم ، وزاروا بعض بلدانها وحصلوا على معارف متنوعة ، أدت في ظهور مواهبهم
المختلفة بصورة أوضح !

المصل الثاني

فيلهلم شيمبر

(1804 - 1878)

يخبر بنا أن يعرف أولاً شيئاً من حياة الرحالة والعالم فيلهلم شيمبر ، فهو جدير بذلك وسيدرك القارئ من خلال أفكاره وكلماته مدى إسهاماته وطيبته وعرضوعيته وشخصية شيمبر عجيبة جداً . وهو آخر العام النبائي المشهور كارت فريدريش ، وكان لفيلهلم عام كبير بعدة لثبات ، ولكنه قصر مع ذلك عن الوصول إلى الدرجة التي وصل إليها آخوه بمراحل . فصرح لجمع البيانات وفاء برحلات في جنوب فرنسا والجزائر ومصر وبحيرة العربية لهذا الغرض وكان قد كلف بها من طرف الجمعية النباتية ولتحاحه في مهمته أرسل إليها إلى بلاد الحجاز ، فأحس إليه ملك « نيفره » وسهل له القيام بمهمته مدة ثلاث سنوات ، أراد بعدها العودة إلى أوروبا ، غير أنه عرض في الطريق فحملته قافلة إلى مكة ومنها عاد إلى الحجاز واستقر بها ، حيث عيه صديقه الملك واليا على منطقة « أنتيشو » وتزوج بحشية وعاش بها عيشة هادئة دون أن يصرقه ذلك عن مهمته الأساسية ، ولما قامت الحرب بين ولي نعمته الملك « أويمة » وعمره الملك « نيودور » سنة 1855 ، اعتقله هذا الأخير في قسعة « ماغداالا » ، ولم يتم إطلاق سراحه إلا بعد تسليمه إلى الإنجليز عام 1868 ، فأقام في « أدوا » إلى أن أضرته الوفاة

زار شيمبر الجزائر في شهر ديسمبر سنة 1831 ، أي بعد مرور حوالي عشرة أشهر على احتلالها من قبل الفرنسيين وأقام بها حوالي عشرة أشهر ولما عاد إلى بلاده ، بعد أن أصابته الحمى المتقطعة وأفقده ذاكته لفترة قصيرة ، أصدر

كنا صميم الخحم بصوان « رحلة فيهم شيمير ان الخرائز في مني
1831 و 1832 » ، تم طبعه في مدينة شنو بشارت عام 1834 وعدد
وصل الى ميناء الخرائز كان أن ما لاحظته وانتهج لزيته هو الاحوة التي نجت في
سوك الخماير مع بعضهم البعض . فقد تقدم منه جمع منه ، ولما احتار
جمالين ، قدمهما الآخرين أدوات احمد من حبان وعصى واستعدوا بكل هذه
فحسبه هذا السوك على أن يقارن بينهم وبين حماني في أوروبا ويقول عنه ان
عكس ما يحررون من حلال حميدة ويصفه باعثة والسفر والكل
(ص 18) .

ويحدث بعد ذلك عن مدينة الجزائر فيرى بها قد دُعيت هكذا بسبب
تعبات الناس التي يعمر منها مدينة في سنة واحدة وحيث أن حياة كثيرة ويقدر
عدد ما فيها من عمر من مائة ألف نسمة ، كما يذكر لبعض
مستعمريها وهي عنة والاساية وعرسية والاهصنة والاداية والاحمية
والولاديه وغيرها مما لم يعرف له أصلا ولا ميا .

وبعد أن يذكر المحصر ، وهم في رأيه أهم عنصر في المدينة ، وتراوح
عددهم بين الثلاثين والأربعين نف ، يتناول في حديث عن الأسرة والسعادة التي
تسود حياتها المنزلية يقول : « وقد أتبع في كتاب أسرة كاتب نسكي محوري
فحين يعود الرجل إلى البيت يسقيه الروححة معافاة بقاءه مقيمة ، وحسن تربتها فوق
الأمكة وحسنه وبعدها ويسرع الأصغر كذلك إلى بيته فرحين ، فيصممه في
صدره في حنان وحب ويحدث في مدحبه » (ص 33) . وقد تعرف على
حاربه ، وهي محور سيرة بعضهما بالفتح ، فأرسلها إلى بيت أخوان لتصف به
داخل البيت وحصة الأسرة وأعد لها غرفة مدهنت لزيارة حاربه على الساعة
الواحدة بعد الظهر ، وكب له نفيرا خارج 24 يناير 1832 ، أوصفت له في
كيف دعت أساتد لسمعت صوما يقول

«شكوى؟» «مردت هي «مر» ، وما تحتها باب دحب عينا
 «واش حادث؟» كيف أنت؟ صباح الخير؟
 وحملت له حرورا استعارها منها شرحة ما فيها في الكتابة . ويصعب بعد هذا

الى انهن «ان المرأة تعيش كالتحية نفريا ، وليس مرد دلت الى عورة روحها ،
وان مرده الى اعاده شقة »الرجل الحراري ليس عيورا جدا ، بل هو في عورة
لا يختلف عن أي اساء يسمى الى شعب آخر . وان هو واحد رجلا في بيته ،
فان يصرفه في هذه الحالة في يختلف عن يصرف رجل الصبي مثلا »
(ص 33 — 46) .

ويطرق شمبر الى الحديث عن التربية والتعليم فيذكر أن الأطفال يذهبون
الى المدارس ، وهي موحدة بكثرة ، في السادسة من العمر ، يعلمون فيها القراءة
والكتابة والحساب وحفظ القرآن ، ثم يواصلون تعليمهم عند العلماء والعلماء
ويستمر الكثير منهم فيما بعد في تونس والألكندرية والقاهرة أما لانعام دراسهم أو
لعدم الحرف وهنوع التجارة كما يذهب بعض منهم الى «بيفورنو» لدراسة الطب
والحساب معارف الأروسة في مختلف الماديين وإلى جانب هذا هناك من ماهر
فيهم مائة في عرب واحمر وهو المؤلف بساط حراري عرفة عن عرب ، ويقول
عنه دوبر أن يذكر اسمه أنه صاف رأوس كلها عرب وعرف أحوالها وعائلتها معرفة
جافة ، وبعد مباحثها وتذكر في كل مكان اسحب له رويته ، كما رار عددا
من سادات الأعراف وأنبياءه باخرج في حكمة وكان يحكم في جانب العربية
والعربية والعربية ، لاتبية ولايتانية وثوبية ثم يؤكد المؤلف أن يحصر على
بعضهم بغيرهم بغير كبره وحقوق لاظهار الخلفة ويعودون بعد ذلك الى
وحيث مرادس تعرف عنه فكيف لا يحاولون انفس أي شيء ، ولا يعلمون أية
لغة فديمة !

وبعد ذلك يقرر شمبر ما يلي «بعد حب هذا عن عربي واحد في
الحرائر جهل الفرة والكتابة ، غير ان لم أعرف عيبه في حين اني وجدت ذلك في
بعضان جنوب روبا ، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد
الشعب ومن الانصاف أن نقول ان الحرثيين ينكمسون الفرنسية بطلاقة ، وذلك
ما دعا الحكومة الفرنسية لي استحداثهم في الوظائف العمومية ، أما الفرنسيون
الذين ينكمسون العربية فلا وجود هم الا في لبادر جدا » (ص 52 — 53)
ويقول المؤلف ان احصر ملعون بالعلوم ، ولكنهم لا يهتمون بها ، فاداء

حفظ أحدهم القرآن وتعلم الكتاب وأصبح في مقبوله أن يفسر القرآن فيه بعد
عاشا كثيرا أما لو أدى فيه الخرج فإنه في هذه الحالة يجب عليه مراقبة
بسم ملوكه بالإنجيل ، لا غير ذلك من الدنيا ، وله من يقدم على خدمته ، لأنه
في كثير من الأحيان يؤدي بسمه كثيرا من الأعمال العسيرة (ص ٩٦)

ويحدث المؤلف عن حمامات في الحضر وعن الماء الذي يسهل بها
الخصم في صحبه كثير من الامراض أو الخبائث ومن دفعها ، ويحدث عن
طريقه من طرق العلاج التي شاهدتها في الحمام ، ويصفها على الصورة التاليه
فدخل ان يخدم شاب مصعب له يده عذبة فكه لاسفل ، واستحم ثم
دفع ان حل كبير ليس كان خائفا في الزفاف ، ومع به لم يكن طيبا ، فقد
اصطحب شاب اسمه ، فجمع يديه فوق لويه وصعد عليها بشدة رافعا اياه
عن الارض مده عنقه ، ثم اندوه ان مكته ، وقد اندح وجه الشاب الذي فتح
عنه يده ثم عصبها في بدا عليه انه فقد وعيه تماما ، وعندما استيقظ فانه
قد حوله مسجرا ، ثم التفت الفعلة معه مره ثابته وثقة الى ان غاب
عن عينه مده حذيه ، وبالي فتح عينه ونفس عوده واستحم من
جديد ، ثم عاد حمام وقد مضى من مرقبه « (ص 80)

وإذا قد سيجم ما قد تدعى قلته من أن الضف يكاد يكون غير معروف في الجزائر ، فلا يوجد في المدينة على كثرتها سوى طب طب عربي واحد وهو صيدلي في الوقت نفسه ويعرف هذا الطب بالجهل والكل ، حتى الرعم من أنه درس الطب في مدينة «بجور» هذه لم أستطع تخيلها ، فإنه لم يكن يعرف كلمة البصاية واحدة ولا سبابه ، بل أنه لم يكن يعرف حتى الكلمة العربية التي يتكلمها كل إنسان في الجزائر «بصيف قاتلا» «ومع ذلك فاني أشكر هذا الطبيب على ملاحظة قيمة . هي أنني لم أر كلنا مسجورا في الجزائر وإن سكان هناك لا يعرفون ذلك أصلا . فقد سأله عن رأيه في مسألة وجود سعر الكلاب في أوروبا فقال إن سببه يعود إلى قتل أشي لكتب ، وليس من العادة في الجزائر قتل الكلبة» وأسعد أوقات هذا الطبيب هي تلك اللحظات التي لا يطلب منه شيء القيام بعمل ما ! (ص 82) .

وتحدث المؤلف عن بعضا ويأخذ على الأروبيين أنهم يعاملونهم معاملة في صهي انفسه وأنه لم ير ، خلال العشرة اشهر التي قضاها في الجزائر ، أوروبا واحدا يقدم لهم أية مساعدة . وعلى العكس من هذا كان موقف المواطنين منهم فقد رأهم يشعرون عليهم ويساعدونهم ما وجدوا ان ذلك سييلا ، وقد كانت الشجاعة مقصورة عليهم ، أما الاصحاء فكان من لعار عنهم في نظر الجميع أن يمسا ايديهم تسولا ! (ص 83)

وكما أشار غيره الى كثرة المقاهي كذلك يشير اليها المؤلف ويقول انه كان يرى المواطنين جالسين فيها في الساعة الثالثة صباحا ، ولا تخبر منهم اليوم كله ، يقول فيها مدة طويلة يدخنون ويشربون لقهوة غير انه لا يخبر حينئذ منهم هذا دليلا على تكسل والخمول ، ويذكر على كل من يحكم عليهم بذلك معرفته بأوضاع الجزائر فالداعي ان الخوس في المقاهي نعمة ، في نظره ، المعاملات الفردية في اعلى الاحيان . بالإضافة الى ان التسلط الحديء ضروري الى حد ما في هذه البلاد ، وهذا ، ولتسلط مع أحدهما الآخر ، كما يقول ، أما الخمول منه لم ينسقط بعد عن طبيعة الجزائريين ! (ص 84)

ويذكر معنى كثيرا بالجزائر ، يجتمع فيه العرب في اثناسة ليل ، ليستمعوا الى موسيقى وأغان عربية . وقد يقدم سمر من أحد الموسيقين وطلب منه أن يترك له الأغنية التي استمع اليها ، فكتب له مقاطعها معها رجعها الى البعة الليلية ، وهي :

عندما دقت الباب

رن بانحا صوت اساقوس .

قلت : أين أحباب ، هادار ؟

فخف الى طير من المساء

ومس في حزن اليم :

أتسأل عن أحبابك ؟

لقد ذهبوا .. علم الحزن ؟

الست في بلاد فيها يعيش

أهل وأحبابي ؟

كلا . أنا في بلاد تمرق فيها

قلي والتهب كاحطب .

لأنكيب اليهم ، أيها الكاتب ،

فالفراق يبي ويسهم .

إذا بقيتم بعيدا عني ، يا احبابي ،

فسوف أقسو عليكم في كتاباتي ،

سأسحق الرمل والصون بين أمتاني .

سأقوم البحر فتجانا صغيرا اصمه

فوق رأسي ، وادعو الله أن يسطع

قلوبكم الطالفة القاسية .

كيف خرجت أن تشتر ثورك .

يا يوم العراق !

ها قد احترق قلبي الما ،

وبدبت دخبطني حربا ،

فلماذا أشقبت حياتي ؟

أه مه ، أه من يوم الودع ، يا احبابي !

ولأنني أر هذه الأعين بصور حقيقة الحزن المدي املائت به العيون بعد

الاحتلال ، حين اضطر كثير من المواطنين الى الهجرة ، كما تحسد عصب من أقام

على من لم يرحل ! (ص 84 — 85)

وتعرض المؤلف في كتبه لتحركة التجارة في العراق ، مؤكدا أنها قد

وجست في حد كبير من السقوط ، لأن المربين لا يريدون أية رعة في لقانة

علاقاته جارية مع داخل البلاد ، يضاف الى ذلك أن التجارة أصبحت بين

الأوروبيين ، وور الناحر يرقى الصغير منتظر في أحد بضائعه مهم وهم على ما

هم عليه من طمع وحشع . كما يشير شيمر الى ان الصاعقات اليسوية ليست

ناحس حالا من التجارة .. فقد أصبحت في حالة يؤسف لها أشد الأسف

دلت أن الأعياء ، الذين كانوا يشجعون مثل هذه الصاعات ، قد طردهم
 الفريسيون من بلادهم ، ومن لم يطردهم فصل أن يهدر دمه من تنقاء نفسه
 سحط على الأوصاع الحديدية ، ورفض الحاجة في حل نظام اجسي ! أما الذين لم
 يستطيعوا ترك البلاد بسبب أوصاعهم المادية ، فقد توقفوا عن العمل لأن الأرويين
 في عبي عما تنتجه أيديهم . وهؤلاء الأرويون الذين وصلوا إلى الجزائر يكونون
 مجموعة من الأسافل والاشرار والمجرمين الكبار . كانوا قد طردوا من بلادهم
 لسوء سلوكهم ودمارهم ، وسبواهم الخنقي واستمثارهم بكل عرف احتياجي .
 وهكذا أصبحوا سبا في الأوصاع المؤنة التي يعاني منها هذا الشعب المسكين .
 (ص 93)

وبرى أن الشعب الجزائري لا يختلف عن غيره من الشعوب من حيث
 أخلاقه وطائفة ، فالخير والشر يجتمعان فيه حسب أن حب منما هو الحال في أي
 مكان آخر ويكرر مرة أخرى أنه يفصلهم على مكان الشاطئ الأروبي للبحر
 الأبيض المتوسط ، لأهم أكثر حياء وتقافة منهم ، فهم على الأقل يستطيعون
 انقراء والكتابة وحسن النظم والصفحة ويمارسون أعمالهم بحذو ونشاط وبصورة
 منتظمة ، ولا يبدون أي تعصب ويقدم دليلا على عدم تعصبهم هذا بقولهم
 غاروه نياهم وادخلوه من حذهم والسو حوله ليسلموا عليه ويسألوه عن أحواله .
 ولكنهم لا يحرصون بالتعدي على حرمانهم وتغاييدهم الدينية . حقاً ، معاشرتهم لا
 تخلو في البداية من برود ، لا أن الأسباب سرعان ما يكتشف طبيعتهم ولطفهم
 وأخلاقهم البينة ومصلحتهم الحميدة ! (ص 97)

ويتغل بعد ذلك أن أحداث عن شجاعة الجزائريين في الحروب وأبراع
 أسلحتهم ومهارتهم في استخدامي وكيف أن الخبايا كانت معادتهم مد تقدم ،
 وكيف تاحت لهم على مر العصور لدفاع عن نفسها ، ويشير إلى أن هناك
 عددا من الخواصيس بينهم ، بعضهم يحسن لصاح الفريسيين والعصر الآخر
 لصالح العرب . بعضهم بالمروية والصمود ، ويلاحظ أن عبيهم الوحيد هو أنهم
 غير متعصبين وأن ما بينهم من خلاف وعراك وتضاحر قد مكّن عفايتهم من مفاع
 كثيرة ، فعرف جبرلات فرنسا كيف يستطيعون من هذه القوي والاحتفاء

محاصروا على ررع اشفاق بين القبائل ، على الرغم من أن الفريسيين واليهود
بمخاوفهم أشد اخوف ا (100 — 102)

ولم تقتصر اقامة شيمر في الحرائر على المناطق التي كان الفريسيون قد
احتلوه ، وانما تعدت الى مناطق اخرى . فذكر انه ذهب لزيارة العرب في قراهم
البعيدة ، فاستقلوه سفلا حسا وانفقوا حوله وملأوا ايديهم لمصاحته ، وأثنى
على كرمهم لئاء كبير . ويروي أنه وقع بعد الأكل في موقف حرج ، لأن شيخ
القبيلة طلب منه هدية ، والعرب ، كما يقول ، يخشون أن يهدى بهم شيء ما ،
ونكس بي أنه لم يكن لديه ما يمكن الاستصاء عنه ، فقد اخرج كل ما كان لديه
من نفود وقدمها لشيخ القبلة ، فحدد منها هذا قطعتين صغيرتين وعاد اليه
الداقي . وعندما عرف شيمر أنه كان يريد منه شئ لندكري لا غير ا وبكررب
ويرويه ثم بعد ذلك ، وكانوا في كل مرة يساعده في جمع ما كان يريد جمعه من
حيوانات وسادات وحشرات ، ثم قمت الحرب ثابة فحبل به وبين لوصون
نهم . ويتحدث أيضا عن القبائل ويصف أسلوب معيشتهم ويقد ما لهم من جد
وشاط وأنها يشتغلون في السابن وحقول الحطة وأن لدى بعضهم
الفصل لأتني . ما يريد عن ثلاثين عملا منهم ، وينيد بصادهم وشحاعتهم في
الحروب ون الفريسيين يظنون انهم بطرة عداء لا خاف عن نظرتهم لفية
حزنون في جميع أنحاء (ص 113 — 116)

وبعد أن يقدم المؤلف خلاصة تاريخ الحرائر ، م يأت في تحديد يذكر ،
بمحل مصالحة الألمان لديهم هاجروا لو يردون المحرة الى الحرائر ويحذرهم من
الاختلاف بالانزاع فيها . ويحدد لهم الأماكن التي لا حفر عبيد بها من طرف
العرب ، ويوضح هم كيفية الحصول على رخص الاستيطان ، كما يتحدث عن
الاسمار في الحرائر وارتباطها بالبحر وعما أن اليه أمر بعض الألمان بها ، شيعة
لسوء تصرفهم فاصبحوا محضين مهدين ! ويصحبهم أيضا بعدم الاسحاق بالفرقة
الأحيية وبين هم عاقبة ذلك ، فهذه الفرقة تقوم بأشد المصيبت الحربية خطورة ،
ليحمل الفريسيون بعدها اكيل العار ا هذ زيادة على احتضارهم لأفرادها مع أنها
هي التي تقوم على حراسة الحرائر .

ويعود المؤلف للحديث عن التحار لفرسيين فيؤكد من جديد أهم
 سبب المحر التي حلت بالخرالر ، فهم لا يحرصون بصالحهم في الأسواق إلا بعد
 أن يتحول القصر في المواد العينية إلى مجاعة ، ثم أهم يحرصون على القضاء على
 التجار الصغار الشرهاء حتى لا ينفدوا شيئا من تجارتهم ، وأندل هؤلاء التجار هم
 اليهود المعتمدون ! ومن الحقائق التي حرص المؤلف على ذكرها غير مرة أن محلات
 الأوروبيين قلده بصورة نشيتر لها القصر ، في حين أن محلات العرب مضيفة ومشفة
 تسيفا حسب تكشف عن دوق وبيع وأصالة تدمية على نحو مصر . ويسجل ما بين
 الساع لعرق اسطيف وجاره الأروبي انفسر من هروق بحيرة ، ولا يلقى الضافة حتى
 عن العمال انفس ، فهم يولونها أكبر اهتمام ويصل ان في اسكان الاسكافي
 الأروبي أن يذهب الى الخرائر ليعلم كيف تصنع الأحذية ! (ص 130 - 140)

ويتكشف النوع المعممة سينة التي يتعرض لها لسكان الاصبون من
 ضروف الاسافل الادبياء انفس وحصلوا في الخرائر من جميع أنحاء أوروبا ووجدوا فيها
 مديجاً ومعام ، وجعل الولاة المختصين مسؤولية الأوضاع المزرية التي تسود
 المستعمرة ، لأنه تركوا حدود المتوحشين حرية التصرف من جهة ولم يحاولوا من
 جهة أخرى معرفة ضائع لافريسيين كما يسمى ! وبصرف شيعر مثلاً على وحشية
 حدود العرافة فيقول «بروي أن قبيلة حرارية أرسلت وفد لتقديم ولائها للحكومة
 الفرنسية ، وبعد أن أهدبهم هم برس حمراء رحمو من حيث أنوا وفي طريق
 عودهم مرروا بقبيلة أخرى تسكن السهل ، وكانت تعيش في براع معهم ،
 فأعترضت سبهم وسبهم ما كان معهم من هدايا ، ولم يسلم منهم سوى
 اثنين ، فأما بالبلاغ الحادثة إلى السلطة العربية فجهزت هذه بعثة في انبيل ،
 أحاطت بالقبيلة التي كانت سالم لفرسيين حتى ذلك الحين ، ودخلت على
 أفرادها وهم ينام في حيامهم وقتلهم جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً ، ثم عاد المتصرون
 وساروا في المنطقة العربية على أوحش صورة وأشعها . ديث أن الحدود كانوا قد
 قصعوا رؤوس القتل وشدها بالحنان فوق أكتافهم وقد انصح فيما بعد ، كما
 قبل ، ان تلك القبيلة كانت بريئة !»

والمؤلف يعني دون شك قبيلة العربة ، وهو متأكد من هذه الحادثة

وصحتها ، فقد اتصل بعدد من الجود الذين شاركوا فيها ، فوجد البعض منهم يتحدث عنها باهتمام وبنكرو من ان السحاب لم تصع جدا مثل هذه العمليات الاحرابية ، والبعض الآخر يتحدث عنها بمحور واعتزاز ، ويستمر التواكب في روايته قائلا : « لقد حدثني أحد هؤلاء السفاحين في كينها وقل كان هناك طفل واقفا في مؤخرة الخيمة ، فصاحت به أخرج ، يا حتمير والا سوف أضلق رصاصي في صمك ! ولكن الخيمة لم يطمس وعندما صعدت على الرناد صدر نصف رأسه وتعلق بكمان الخيمة ا » ويصير المؤلف على روايته الخدي القائل بقول في سحره مرة « كان يسمى بطبل البدوي ليرى المزعج ان يطبع أمرا وجهه فيه سعة أحبه لايهمها » هذه هي أعمال عسكريين لذين يشعرون وصنف في سجون وجنود فوق مصبات النجاف ا » (145 - 150)

ويروي مؤلف كذلك أنه كثيرا ما كان يخرج في مناطق خرابية ، في هذه عرق بكثرة من الجنود المرسون وبعض الخرائطين المتصحين ان العرق لأحبة يرحلون . العرب العائدين من الأسواق فيسلطوهم ما معهم من من ورجح . وكانو يحرقون من السلاح ، ويكتمهم كانوا يسيرون جماعات خلفا العرص وفيه كنت ان كنت ليس صا مه ، وإنما هو يستند إلى ما حدثوه به هم ، انفسهم بالصدق ان ما وقع به هو ذاته . فيها كان داب يوم يحرق الارض لاسحرح بعض الساب . هذه مه حديدان من حدود العرق الأصبية ، وهما يتحدثان بالذمة الأكديه عن الطريقة التي يتارها عليه ، هم يتم بها الى أب اقربا مه ، فسد سرعه ووضع حديدان تحت أنف كل منهما تحجب اياهما بالأكلمية ، فمما حاتم حديثه . ولاد المنعرج ويذكر أنه كان مرة عائدا من بعض جولاته ، فاقصم ليه في أثناء الطريق ديسي ، وعرض عليه أن يقل له جرائزا بظهر خمسة من الفرنگات ! (ص 185)

ويذكر المسجد ايضا يقول ان أروع مسجد في الحرائر قد هدم ، لتقديم مكانه ساحة للاجتماعات ، مع أنه كان في الأماكن اقامه هذه الساحة قرب مقام الحاكم الفرنسي كما أصبح كثير من المسجد مخازن لنس بيها تحول البعض في بابات عسكرية ، وهناك مسجد أعطي لبعض لسادة الخنوس ، عل حد

بصيرة ، لم توثق العرف على التكامل ، وهدفت كدلتك أصدرته عزيمة على قلوب
 الخوارجيين بعام مكانها ميدان تم فيه اندرييات ، المحفظة ، ثم يصفوا قاتلا « ومن
 هنا يمكن أن نعلم الأثر الذي تحدثه أعمال العباسيين في نفوس البصويين ، بحيث
 أنه يبدو من الصعب أن يعيش بعض شباب بعض الآخر في أمن وسلام ولا
 يمكن إلا أن يثور المرء على مثل هذه الأعمال العجيبة ، لأن وثيقة الإسلام
 تنص على عدم إحسان محسكات الخوارجيين ومقدساتهم الدينية » (ص 187 - 188)

وفي النهاية يقول : « لعل البعض يتأخذه على ما أوردت على ذكره ها
 هنا ، إلا أن ملاحظة كهذه أحسن لي من أن أحمي عن الناس شيئا فقد يكون
 الحديث عن مثل هذه المصداق مدعاة في بعض الأنظار إلى ما حصل على أراضيها »
 ويكرر في نهاية كتابه دعوة في أصدره خوارج الخوارجيين ومعتقداتهم ، يمكن
 الأوروبيون من كسب نفهم وإسأل بهم ولاعات معهم بأصبا »

ملاحظ مما تقدمه أن سبب قد حدث عن وضع الخوارجيين بعد لاجل
 من وجهه نسائية ، وكشف لثوب عن حرمة المرأة ، دون أن يصرح — صراحة
 على الأقل — على احتلال الخوارج بمساحتها ، وقد كان قد حذر أبناء بلاده من
 الهجرة إليهم حتى لا يصحروا رغبات حكومة أحبه بحرين مثل هذه المصداق
 والخوارج ، ويصنعوا بمشاركته في بوحه من بوحه ، فيكسبوا بذلك عدوه شعب
 لم يستطع أن أساء إليهم ويكسب ما يحصله على خلافه وسكن به ، ولم يصر
 لهم أن يصنعوا من جانب ، من طرف المرأة وموحدون »

المصل الثالث

فرديتاند فينكلمان

وضع فينكلمان مذكوره كتيب عن الحرائر بعنوان «تاريخ حلال الحرائر من صرف حرس من 1830» نشره مكتبه ايساو عام 1832. أورد في اعطحات الأولى مدة عن تاريخ الحرائر من الاحلال بقرة قصيرة ، وأشار إلى قبل حرب في مدرستها مع محمد علي (آخر 1829) حمته على الأعداء عن الحرائر ، وحببه منجها في أحدث مصيعة من باي قسطنطين وداني الحرائر ليم ها نصر سهوة كما حدثت عن انقاذ بالثعب الحرائري معه عن طريق مشورات ورعت في التوليات ، مدعوه فيها أن مساعده في بلوغ عايتها وأهداهما ، دون أن يته ها ما أرادت رغم الوعود التي بدتها له (ص 10) .

وبعد ذلك بسحدث المتبع عن الظروف التي تم فيها لاسيلاء على الحرائر معتمدا في ذلك على ما كتبه نفاير وغيره . ويبدو أن المؤلف سحرته طبيعة الحرائر موقعها وهضابها وحياتها ووديات فلم يهتم بالتلاذ كثيرا عن الساجية التاريخية وإذا كان شيمر يحذر لأمان من الحجرة إلى الحرائر ، فان فينكلمان على العكس من ذلك ، فهو ينجح على موصيه في الحجرة اليها ، لأنها مستعمرة رلعة بالنسبة للتلاذ (ص 61) ودبت ما فعله بعده مواظبه ماكنس مديا فراهير دون فير فيم بعد ، عندما نشر كندا عام 1854 عن الحرائر والحجرة اليها ، قصر

حدثته فيه عن وسائل الهجرة والخطرات التي يجب على المهاجر اتباعها دون أن يتعرض لتأريخ جزائر مع الاستعصار الفرنسي . وقد تضمن بيكلمان للهجرة إلى درجة أنه رح ببحث عن ماضي الجزائر في العصر الروماني لا من حيث تاريخها ولكن من حيث منتجاتها الزراعية ومقدار محصولاتها على مدار السنة كما يذكر بناء على ذلك أن الجزائر قد شتهرت قديماً بخصوبة أراضيها وبروي ما قاله عنها بعض الجغرافيين القدامى من أنها تسج التسج مرتين في السنة ، مرة في الربيع ومرة في الصيف . ويصف إل هذا أن بعض الأهالي قد ذكر له أن الأرض لا تزرع مرة أخرى بعد حصاد ربيع وإنما يكفي بملاح نصاب مرة بحلول الخطة ، تسج الحبوب ، التي سقطت في حصاد الأول ، غلة كبيرة في الصيف ! (ص 78)

وربما في الشواهد أن رؤية الجزائر والأفنة لا يؤكد المؤلف لموصيه أن هذا مناطق حصص أممات الأحرار كله مثل مناطق عبادة ومسطية والجزائر كلها ، ولكنه يقول أنه هذا في التصور كما ويرغم أن جزائريين جهلوا تمام جهل كل ما يتعلق بالأعمال اليدوية والصناعات المحلية وقد حجت المؤلف الاستعمار على معارضة بين أمريكا لشعبية والجزيريين وبين الجزائر ، فالمهاجر الأجنبي في هذين البلدين يجد نفسه بين أهلها الذين هم سادة لبلاد فيظفرون إليه عن أنه دخل يريد أن يأخذ منهم لعمدة العيش ، ثم أن هذه التي يقبل بها المهاجر تنزع المواضع الأمريكية منه ، ومن ثم كثير ما تتحول العلاقات بين الأجانب إلى صراع أما في الجزائر فإن المواضع هم المنعوبون ، وإذا كان المهاجرون لأنهم لا يستطيعون أن يصروا أنفسهم أسياد الجزائريين لأنهم على الأقل تحت رعاية سيادتهم من الفرنسيين ، الذين لا تسمح لهم مصلحتهم بأن يتركوا المواطن الجزائري يصعد فوق رأس مستعمرين ، وسوف من يمر وقت طويل حتى يصبح عدد الأوروبيين في المناطق الخاصة أكثر من عدد سكان الأصليين ' (ص 7)

وعلى أية حال فإن بيكلمان ، يمكن بهمة شيء آخر أكثر من أن يعيش أبناء وطنه في بلاد تمنح الأرض مباحاً ، ويبيع ثور المواطن لذي أحد من قسم خمسة وعشرين فرنك لا غير ، أما حرب هذا المواطن فيدهش في أحصاء الرمال والخيال المزدحم !

الفصل الرابع

هرمان هاوف

في سنة 1835 أصدر هرمان هاوف بمشركة ادوارد هيرمان كتاب صغير الحجم ، صنع في مدينة شتوتغارت ، وضع به عنوان « حرار كإ هي » وينصص الكتاب في مجموعته مصورب عامة ، لا تختلف عما عده في بقية الكتب لأخرى التي تحدث عن حرار من - حة حرارية ونصبية ولعمارة وغير ذلك ، ولا يهد من هـ الكتاب سوى مقدمته . ويؤلف لا يهدي عمليه خرافة هرسا الى احد ادي يسه واحه كمؤرخ ، ولا يعتبر سأنه احتلالا لحرار قصة مسلطة كما فعل غيره ، وإنما جدير أن ياملر الأسباب التي أدت اليه مباشرة مطلقة هادئة .

يرى هاوف أن الاستلاء على الخرائر اهم حادثة في القرن الماضي ، أي حتى الوقت الذي وضع فيه كتابه فقد أرعبت الخرائر ، على حد تعبيره ، الشعوب التجارية واستبدت بالبحر الأبيض المتوسط ، وأرعبت شارب الخامس على المرار أمامها بصورة مخيرة . ومع أن جفرا يصفي كانت سيده البحار ، فإنها لم تستطع ان على اتعاقباتها على الخرائر الا بصورة مؤقتة وكانت الخرائر قد أبحرت لشعوب حلال فريد عديدة على دفع اتاوه لها نظير مرور سفنها التجارية بالبحر الأبيض المتوسط . ثم كانت هذه الخرائر نفسها عبيده لبحر المتوسط ، واحتفت احتفاء الظل وتمكنت هرسا من احتلال هذه المنطقة الحبيبة بكل

هذه ، ومن الممكن أن تؤدي إلى نشوب حرب بين المحترق وفرنسا (ص 1)

ولكن هذه الأسباب كلها لم تكن كافية ، في نظر المؤلف ، لاحتلال الجزائر والقضاء على سيطرتها قضاء تاما . فعندما قررت فرنسا إرسال حملة إلى الجزائر لم يكن وضع نهاية للقرصنة هو السبب الوحيد في الإقدام على خطوة خطيرة كهذه . فمما لاشك فيه أن هذه الحملة ، التي بدأت في طاهرها عملا أساسيا وحضرها ، قد ارتفعت بأصداغ شخصية ختة . وبصيف هذوف أن حمرا قد راقبت الأعداء تلك الحملة والاتفاق عليها بسحاء ثم القيام بها بمجاح تام ، بوع من الامتلاء لم يعهد فيها ، الأمر الذي استعرت بها أوروبا كلها . وقد راحت شائعة في ذلك حين ، مؤذاهما أن فرنسا قد تعهدت لا بحمرا بالسجل على الجزائر بعد القضاء على القرصنة وبترك سرب من الخوذ في حماية الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط ، ولكن ثورة حربية قد وضعت أهمية الاستيلاء على الجزائر هذفا أخرى ، لم يكن في أغلب على مقصودة في بداية سنة 1830

(ص 2)

وبذلك أصبحت مشكلة الجزائر مشكلة وطنية بعد أن كانت مجرد قضية وراية . وإذا كان منك فرنسا قد حدد في ذلك الوقت بوع وصيغة الحملة التي كان يوي القيام بها دون أن يشار الشعب على رأيه فيها ، فقد أصبح من الصعب عليه الآن أن يقرر مصر الجزائر أو التحل على دون الرجوع إلى الشعب وإذا كانت انحصرا ، في رأي المؤلف ، حتى لو فرنسا أنه قد وجد بالفعل اتفاق سري بين الدولتين ، لم يضايف بعد ذلك لأحداث تتعبد لأمر بسبق عليها ، فإن ذلك يرجع إلى رغبة في الهدنة على توقيعها مع فرنسا بأي نفس وعدم الأساس بوضعها الخاص ولا يمكن أن يصدق المرء أن فرنسا لم تسجد قرا بشأن مستعمر الجزائر خوفا من أنه دولة أخرى غير محترق ، لأن حكومة فرنسا قد احدثت منذ ثورة حربية تسنن بدول الفارة كلها وتعتدي على مصالحها مشني الطرق والرسائل . وسواء تم هذا الاتفاق المشكوك فيه بين محترق وفرنسا أو كان مجرد استطورة ، فإن فرنسا كانت في حيرة من أمرها بشأن استعمار الجزائر أو التحل عنها نهائيا .

ويقرر هذوف أن احتلال الجزائر في ظروف كهذه لا يعيد فرنسا في شوء .

وأي بلحق بها البلع انصر ، ويستند على ذلك بأرقام المبالغ التي تدفعها سبورها من أجل المحافظة على الماصق التي تمكنت منها وحدها ، وهي تبلغ مائة وعشرين مليوناً . ودا حدث سوء تفاهم بين نجبر وفرنسا وتعرضت هذه لأحداث سياسية غير متوقعة . فإن قضية الجزائر لم تبقى عند عدمية لمدة طويلة . ويستبعد المؤلف أن تكون فرنسا قد أقبلت على تلك التصحيحات الحسام ، لو أن لم تكن تعتقد أن في إمكانها الحصول على مبالغ مناسبة من جهة من الجهات ، كما أن أهمية مرطف صغير ما كانت لتؤدي بالضرورة إلى الحرب ، لو أن فرنسا كانت في وضع يسمح لها بالتجاوز عن الأمور البسيطة . ويقدم ديلا قويا على ذلك وهو أن الأزمات المتكررة التي لحقتها من طرف «الذين يمكن» ما كان في مقدورها أبدا أن تنتهي بها إلى اعلان الحرب على الجزائر ! وعلى هذا حال فرنسا قد مسحت أثر المروحة من وجه قصصها باسم ، لأن ذلك يعود عليها بالمالكة ! (ص 3 - 4)

ويستعمل المؤلف بعد هذا الحديث عن جزائريين يقول : لقد صوا ، بعد طرد الأتراك ، أن في مقدورهم لأن أن يرفعوا رؤوسهم ، خاصة بعد أن عين البعض منهم في مناصب مهمة ، غير أن الفرنسيين سرعان ما أظهروا لهم أن عليهم أن يخضعوا للفرنسيين كما خضعوا للأتراك قبلهم . ومنذ ذلك اللحظة عاود الجزائريين الذين أسادهم السابقين لأن عهدهم كان أسوأ لهم من جميع الوجوه . وقد دفعهم هذا حين إلى صخرة إلى الشرق للاستحقاق بهم هناك . ولأنك أن هاروف قد أحبطاً في رأيهم هذا ، فالجزائريون لم يهاجروا إلى الشرق ، لأنهم اشتاقوا لرؤية الأتراك ، وأما هاجروا لأنهم فقدوا حريتهم ودست أرضهم ، فمصلوا العيش في بلاد إسلامية ، سواء كانت هذه البلاد تونس أو مصر أو الشام أو الحجاز أو غيرها .

وكيفما كان الأمر فإن هاروف ربما يكون من بين الأتكال لوحد الذي حاول مدقشة الأسباب التي أدت إلى احتلال الجزائر وأثرة قضية المروحة دون أن يعثرها سببا فيما حدث بعدها . ومن ثم فإن مناقشته هذه حذيرة بأن يتعرض لها الباحثون عند التاريج لهذه الفترة والظروف الناجمة عنها .

تعصل الخامس شوبيرغ والجزائر

يعتبر شوبيرغ من أشهر أضاء غرب التاسع عشر ، وهو ينتمي إلى أسرة مينة مورقة بن أديب والسارك وقد ولد بورغن يوهان أنريخ هون شوبيرغ في 27 سبتمبر سنة 1782 حريره ميلاند ساندرك ، ودرس في كوبنهاجن ، ثم في جامعة غوتنبرغ بألمانيا ، وأخرج منها طبيب عام 1808 وبعد أن طاف بمعظم البلدان الأروبية ، سافر به نداء عديده نابولي . ثم عين فيها رئيسا للأعمال المنشئة العسكرية النمساوية ، وعين بعد ذلك في عدد من المستشفيات الأخرى ، كان من بينها بعض المستشفيات حربية بأوصاف المعيرة . وقد رفعه ميت نابولي بعد خدمات التي قدمها في محال الصحة العمومية ، إلى مقام السلاء وتم بعد ذلك كوبنهاجن إلا في سنة 1829 . وهي السنة التي حصل فيها على الدكتوراه في الطب من جامعة هورنيسورغ بألمانيا

وفي سنة 1830 شارك شوبيرغ ، براء على دعوة وجهت إليه ، وقد تكون شهرته أسس هذه الدعوة ، في الحملة الفرنسية ضد الجزائر بصفتة رئيس الأطباء وعندما عاد إلى بلاده ، عين عام 1832 طبيب حيا في البلاط الملكي ، ثم أصبح المستشر الأول لمملك لدمارك إلى أن وافته أحله سنة 1841 في مدينة كوبنهاجن ، محضا وراءه تراثا فكريا متوجها

لقد وضع شوبيرغ دراسة موحدة عن الطب في الجزائر ، ونشرها في مجلة

أدبية عام 1837 ، فكان ها صدى كبير عند قراء ، مما شجعه ، على حد
تعبيره ، على نشر الملاحظات والأطباعات ، التي كان قد كتبها على شكل
يوميات في الخرتر أثاء الحملة الفرنسية وقد ترجمت هذه الدراسة الطويلة
ل'موجزة ، وسوف نشر في كتيب على حدة أما مطابعاته وملاحظاته ، فقد
وضع لها عنوان «مصرات على الاحتلال الأخير والتاريخ الحديث للخرتر
وتمتازها» ، وهي الكتب التي أصدره بالأدلة في كوبهاجر سنة 1839

وقد أوضح شوسبرغ في مقدمة كتابه هذا أنه لا يريد أن يقدم نرجها
مفصلاً لاحتلال الخرتر ، وإنما يحصر همه في تقديم لمحات محدودة ، يمكن أن
تساعد في المستقبل مادياً معرفة قصة احتلال الخرتر ومدى الأثر الذي تركته في
كل من أوروبا وإفريقيا ، وبالتالي إظهار عاصيتها وحضارتها ومستقبلها من خلال
الوثائق المختلفة .

ويحدث غلب في الفصل الأول من كتابه عن مذكراته الخاصة بسير
الحملة الفرنسية ، فيذكر أن مروا لعوات الفرنسية إلى أير قد بدأ يوم 14 يولية في
الساعة اثنية صباحاً ، يوم هبت الفرنسيون أن استولوا بسهولة على الحامية التي
كانت سيدي مروح ، ويعبر عندهم الأبيض فوق مروح ، لأن الخرتريين كانوا قد
تمحروا هم بأسرون دون مقاومة ، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى سمعت ضجبات
مدافع مملكة من حامية محصنة ، تمكن الفرنسيون بعد لأي من سكات
حصونها أيضاً ، أي أنهم لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد حوالي أربع ساعات ، إذ أن
مدافع الخرتريين كانت في محبتها جيدة لتصويب

وبمراجع شوسبرغ بعد حين عما قاله عن سهولة التي تم بها الاستيلاء على
سيدي مروح ، يقول (ص 22) «ذكرت أنها أن مروا الفرنسيين إلى أير قد تم
دون مقاومة كبيرة ، لا أن علي أن أنشئ حانة واحدة ، وهي أن الخمرل بورمول
كاد يلقي بها حنقه ، بعد ما مروا مع عدد كبير من رجاله ، وشاهده
الخرترهون ، وجهوا نحوه عندما من الطلقات المدعية ، فوضعت أقدامها في مكان
قريب منه جداً ، وألغته في عاصمة من العيار إلى درجة أن رجاله ظهروا للطلقات
قد أصيب أصابه قاتلة ، وقتل جنديان وجرح عدد كبير من الجنود »

وبعط المؤلف الكنية الدثة والعشرين والتاسعة والعشرين على أن الخط قد
حدثهما ، فكانا أول من وطئ الساحل الحراري ، ولكن البكتية الأخيرة كانت
أكبر شجاعة ، فقد توغلت في لسهل ، فحاصرها العربان ونصروا على اثني عشر
رجلا من جنودها .

وأشار شوبيرج بالكبر انبير ، ابدي تم الغور عيه في سيدي فرج :
اشتر ' وأشار كحدث بشه حرية سيدي فرج بعهد ، وقد عها إياها مكان لا
يسى أبدا ، لا نسبة له وحده ، وإنما بالنسبة بتاريخ أهد وأصبح أن
— بة ، نبي كات تعبته ، لم تكن تمثل حصا ، وإنما كانت عبارة عن صريح
مرصد ، وضع فوق سفحه المستطوح عند طيل من المدافع وكان أحد الملاحين قد
صعد . بعد بروه بكرة ، في البرج وبرج الخط الحراري ، ورفع صديقه الأبيض ..
عند مر — بوه ولا يسى المؤلف مع ذلك أن يؤكد مرة أخرى أن الحرث لم
يكن من سهل ختلاد بو آب وجدت من يدفع عها باخلاص ، فعول (ص
23) «يوم يسير على لأهون يدفع عن هذه شطقه ويمن أحدهم عبرا على
به حرج — لأرسي نجسها لال ولحن بشكن مصاعده ، بحيث يتحتم على
عبور — بدي يرحم هو الحرث من هذه الساحة في حابة حرب ، أن يصعد
بصوره مسيرة» ، ثم يضيف المؤلف ملاحظا بعه عهده «وحدث الحرار محمد
سنة حرج — خمس في اهد ، وبذلك كنه مطر صيف حصا عكس مطر
لأهني نماما !»

وأشار شوبيرج (ص 24) إلى أن الأملير ، الذين كانوا قريبين من
الساحل الحراري ، قد قربوا يوم الثلاثاء 15 يولية من شبه حرية سيدي فرج
بمرفضة صكية حرية أن أقصى حد محكم ، وأطلقوا خمس عشرة طلقة نارية
بالحيش العربي ، وبعد مرور حرة طويلة ردت على نحتها سبعة قائد الأسطول
بمخمس عشرة طلقة أيضا .

ولم يترك الحيش مواقفه في اليوم التالي ، لأنه كان ينتظر وصول المعدات
الحربية ، وحاصره المدفعية والخيالة ، وكذلك وصول أسطول النقل الكبير ، وأقبل

عدد من التحصينات فوق شبه الجزيرة ، وبلغ عدد القتلى والجرحى في أثناء ذلك سبع قبلا وحربا . ويلاحظ المؤلف بعد هذا أن الحرائير كانوا يقطعون رؤوس الأسرى الفرنسيين ، الذين يقومون في أيديهم ! أما الفرنسيون فلم يكونوا حتى تلك اللحظة قد أسروا أكثر من رئيس واحد من رؤساء العرب ، لأن البقية كانوا يرفضون أن يدهشوا أي الأسر ، بل كانوا يمدون رؤوسهم شق طع أعناقهم ، ويرغم الحوود في بعض الأحيان على قتلهم ، لأنهم لا يكفون عن المقاومة حتى وهم أسرى !

ويعرف المؤلف (ص 25) بأن الفرنسيين كانوا قد استولوا على عدد حصون ، تحتوي على مدافع كثيرة ، غير أن تلك المدافع لم تكن صالحة للاستعمال باستثناء الذين منها ، كما أنهم لم يتمكنوا من أخذ أي أسير ، والحرائير لم يكونوا يتركون لقتلهم ولا جرحهم في ميدان المعركة ، وعثر الفرنسيون على مدفع فرنسي قديمة ، وكذلك على كتب فرنسية عن المنفعة ، وكتبوا أيضا : « ... »

وبعد مرور عدد من الفرنسيين ، الذين كانوا قد عاشوا في الحرائير أكثر من ثلاثين سنة ، إلى المعسكر الفرنسي ، ولم يظهر اليوم أي أثر للعرب ، إلا أن حصن برلوا يوم أمس من الحبل ، وقيل أن وزير الخارجية الحرائري كان يوم

وفي ليلة 17 يونيو هاجم الحرائريون الفرنسيين مرتين ، قبل منتصف الليل وبعده ، ولكن لم ينجحوا في ردوا عن أعناقهم وتمكن الفرنسيون من إلحاق خسائر بهم في تلك المرات . ويصف المؤلف قائلا « وفي صبيحة اليوم التالي تحدثت مع القائد الفرنسي لفترة طويلة ، فقال لي أن يستطيع في هذه اللحظة جيش معظم ، قواه ثلاثون ألفا ، الاستيلاء على موقعنا . فقد أحبطت شبه الجزيرة تحديق ، بحيث أصبحت لشكل جزيرة . ان الحديق ليس عميقا ، ولكن الحصن مزود بمدافع كثيرة . »

وكان الحرائريون ، فيما يراه المؤلف ، قد تصوروا أن ردة الحو قد حطت بصدق الفرنسيين غير صالحة للاستعمال ، ولذلك قاموا بالهجوم المذكور . والخليفة أن قائد الحملة كان قد حشي ذلك فعلا ، إلا أن الأمر كان عكس .

توقعه . وفي صبيحة اليوم ظهرت فرق المشاة الجزائرية لأول مرة ، وادعى بعضهم أنه شاهد الذي نفسه في المعسكر ، الذي كان يتكون من تسع وثلاثين خيمة .

وتحدثت شوبيرغ بعد ذلك (ص 27) عن معركة سطح لوبي ، وبسببها ، خلافا لما ذكره غيره ، من شهود العيان ، معركة سيدي حلف ، ويقول عنها ما بدأت في الساعة الخامسة صباحا من يوم 19 يولي ، وكان الفرنسيون هم الذين بدأوا المعركة ، لأن الجزائريين كانوا قد اختبروا لأحد الماء . وكانت المعركة برداد حدة بصورة مستمرة ، وكان تقدم الفرنسيين كذلك مطردا ، وبعد ست ساعات ونصف صار النصر من نصيبهم . وفي استولوا على المعسكر ، الذي كان يتكون من حانة خيمة ، من بينها خيمة بدي وهران ، التي كانت في حلبة مرفوعة ، عموا كذلك ستة مدافع ، وكسبة كبيرة من البارود ، وعلدا كبيرا من اسلحة ومسدسات ، كان أغلبها في حانة رديته ، وكسبة من اشبع ، ومائتي حص . كما وقع في أيديهم عدد كبير من الأسرى . وكانت أرض المعركة مغطاة حث على

أما حدثت الفرنسيين فقد قتلوا ثلثي عشر قتلا واثنتان مائة جريح ، كانوا قد أخذوا في نصب الآتون في أرجلهم ، بين نصب الجزائريين في رؤوسهم ، وقد كانت مقاومة تتجدد للأسرى ، فيما وراء الخندق . حسب ، ويروي عنه أنه سمع أحد المرحلي أن إحدى الفرق الفرنسية ، وحملة مهمة ، مخافضة على حياته ، ويذكر أن أسيرا جزائريا آخر ، كان قد خرج . جنود أن يصوب بسيفه صديقا قريب ، ولكن أحد الجنود حال بينه وبين ذلك ، ويقدم منه مترجمان ، ومأله أحدهما ، «لماذا فعلت ذلك ، أنها الخشي ؟ لقد نصبت هذا حياتك » فأجاب : « من محزون على هذا ما داء الأتراك أسبانيا وعلمنا شخص منهم سيكون في خدمتكم ! » ويضيف أن اثنين من شيوخ القبائل قد أعربا عن نفس الرغبة في اليوم السابق .

ويقدر شوبيرغ القوات الجزائرية التي شاركت في معركة سطح لوبي بنحو عشرة آلاف مقاتل ، ويعترف أن هجمات المتفادين كانت عقيمة ، حيث أجهت

انقوت العربية على الراجع ، وأهم لم يسحبوا إلا بعض وصول الامدادات
ورقوع الرجف من جميع الجهات ، إلا أن الاضطراب كان يعم صفوفهم أثناء
سحبهم ، فقد تركوا حشدهم سحائر مشتعة وفهوة جاهرة تقريبا ، كما تركوا
شيء آخرى ولم يحل المعسكر في حين على مشاركة المرأة في المعركة ، رغم
التنور على ثلاث حميد ورافع وعادل وغيرها

وتم التنور كذلك على صرة ، تحتوي على 180 فرس اسابيا ، أما عنائم
الحيش العربي من اسعاجيد فكانت كبيرة جدا ، فأخذ كل واحد ما رقى له
من هذه الأشياء ، في ذلك لاذق وسدسات مكسورة وكان اسعاجيد ،
وأغلبهم من حدة اسف الايطالية المتأخرة ، شيعس حد في الاسلاء على ما
وحد بالمعسكر . واستوى الفرنسيون ، بالإضافة الى خمس مذكورة ، على عدد
كثير من الأحصه المتوسطة وشريله والأخرة والبعث والأعدم وكان هناك أيضا
عدد من ثلاثين خضيه وقطع حديد من الخردة وغيرها

ويحل مؤلف (ص 33) أنه شهد عند انعقاد العام ، يوم 21 يوية ،
برجانبين كان قد وصل من تونس ، وصاحبها روسيا ، وقائد سعيه صغيرة ،
ويصف ليلة الساعة بأنها كانت مضطربة ، فقد شوهد العربان في الجهة
اليسرى ، ولكن الأحرار وصفت بمعسكر بأنهم شوهلوا في الجهة اليمنى ،
وأظف نيران مدافع عندما رؤي في تلك الجهة شيء ، فعلا . ثم بين أن ما
شوهد ، يكن سوى حجارة بيضاء أو شجر حبر وجود العربان في المعسكر
مسرعة ، فعم الفرع ، وأحر المند العام على سطر حتى الرابعه صباحا

وتحدث شوبيرغ (ص 40) عن معركة ثانية ، بدأت في ساعة صباحا
يوم 24 يوية ، أهم في جيش الحرائري نصف ، وطارده القوات العربية ، ولم
يتوقف إلا على بعد ثلاثه أرباع ساعة من العاصمة ، وكان الجيش الحرائري قد
وصح قبل اسعاجيد كمينه من المنحدرات في مائة كبيرة ، لأنه كان يوقع أن
الفرنسيين سيدخلون اليه ، إلا أن الامحار لم يصب أن صرر ، ذلك أن
الفرنسيين كانوا قد استعملوا بالمطاردة عن المدحون أن تلك اسابيه وهكذا م بعدد
الفرنسيون في المعركة إلا حواب عشري فيلا

وقد قدر شوبيرج الجيش الفرنسي بحوالي سبعة وثلاثين ألف رجل ، وكان
برفقة القائد العام سبعة أخاب كان هناك روسيان ، وثلاثه ألمان ، ودامركي
واحد وأنجليري واحد أيضا . وصحب الجيش معه حوالي أربعة آلاف حصان
ومدافع من مختلف الأنواع .

وكانت المعركة قد تجددت يوم 27 يولية ، وتكررت هذه المرة حولة قلعة
الامبراطور ، واستمرت من الرابعة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر . وخلال هذه
المعركة بكاملها كانت يروس المدافع تطلق من القلعة بصورة مستمرة مع أن
الفرنسيين كانوا خارج مطلقا ، ونهت كذلك بقور الفرنسيين . وهب
المؤلف (ص 42) «أن عريبا حصر في يوم نفسه إلى معسكر سيدي فرح ،
وادعى أنه باي وهران ، ولكنني أعتقد أنه كان جاسوسا ، وقد طلب رؤية
الأسرى ، وكما حمل في أمير البحر ديسري عرض عليه أن يصح في خدمته عشرة
آلاف رجل ، غير أن القائد الفرنسي رفض ما عرضه عليه »

واحتل الفرنسيون في أيام سالة حصار قرب قلعة الامبراطور ، وأقاموا
قرب حصون أخرى ، وحرب مدينة الجزائر من جهة البحر ، وفي صبيحة يوم
4 جويلية ذمت معركة مدفعية حول قلعة الامبراطور ، واستمرت حتى العاشرة
وانصف صباحا ، وحدث بعد ذلك انفجار مربع في القلعة ، وقد قيل أن الأتراك
سقطوا عندما عجزوا عن اندفاع عنها

ومرى شوبيرج (ص 48) أن وزير خربة جاء بعد الانفجار بدي حدث
في القلعة أن أمير البحر يطلب المصلح ، وكان ما قاله حرب ، فقد حاول أن
يوهم أمير البحر أن الذي هو لدى نقرأ على بحرية فرنسا وليس الشعب ، ولذلك
يجب أن يتحمل مسؤولية الحرب وحده ، والشعب يرى منها . وأوضح أن هناك
حربين محليتين ، حربا يؤيد الداي ، وآخر يؤيد الفرنسيين . وقدمت له شروط
معية ، يجب الموافقة عليها في حين لم يجهلونه دون استمرار الحرب . ووافق الداي
في اليوم التالي على تسليم المدينة في ساعة الثانية عشرة ظهر ، وذلك عندما عرف
أن هناك مامرة تدير لقتله . واستسلم الداي ، القائد لحياته ، بصورة سرية
لأعدائه الفرنسيين . وأطلق الفرنسيون مائة صخرة وطبقة ، جعلت من كان بعيدا

بمقتضى أن الحرب لا تزال مستمرة . وكان أحد وزراء الداي قد وصل قبل ذلك إلى مقر القائد العام وقدم له مقترح المدينة .

واستقبل القائد العام الداي فيما بعد بأدب جم ، ثم أمرهم بأن عهد حكمه قد انتهى ، وأن عليه أن يعمل على أن يعاد الأتراك ، الذين كان عددهم نحو سبعة عشر ألف ، البلاد في أقرب فرصة ممكنة . ودخل المرسيون المدينة ، ونقل القائد العام مقر إقامته إلى القصة ، وقد استقبلت المرسيون جماعهم حموة ، تعلمون حوزها الحيرة والكابة (ص 49)

ويحدث شوبرغ عن حيرة القصة ، فيشير إلى أن أمير البحر دهرى وناقد العام قد برلا يوم 7 حويلية إلى القبر لمشاهدة كومة الذهب والقصة ، التي كان عندها يبلغ ركة اسان ، وتحتل مساحة عشرين دراعا . وكان الداي قد عقد قبل يوم من ذلك اجتماعا ، درست فيه قضية الحرية ، التي تحدثت بشين مليونا من الدولارات . وادعى أنها ملك له ، فاعترف له الديوان بأعلاكم الخاصة ، وبكده حكم بأن الحرية الكبيرة ملك للدولة ، وتبعاً لذلك فهي ملك لحاكم الجزائر

وكان الداي قد طلب في بداية الأمر أن يسمح له بالسفر إلى فرنسا ليعيش فيها ، ثم غير رأيه وأعلن أنه يرغب في السفر إلى إيطاليا مباشرة . وقام المرسيون في أثناء ذلك بوزن ما عثروا عليه في القصة من ذهب وقصة . ورغم أن الديوان كان قد حكم بأن الحرية ملك للدولة ، ومن ثم فهي ملك للدولة ، فقد أحد الداي معه ، فيما يقابل ، من ماله الخاص ما بين ستة وسبعة ملايين من الدولارات . أما الكمر الذي عثر عليه في القصة فحمل إلى فرنسا لتغطية تكاليف الحرب ، ووزع غيره على الصباط . وزيادة على ذلك فقد عثر في الجزائر على ألف وثلاثمائة مدفع ، وليس من المستبعد أن نكتشف في كل يوم كنوز أخرى من هذا النوع (ص 51 - 53) .

هذا تفريفا أهم ما ذكره شوبرغ في القسم الأول من كتابه عن الأحداث التي عاشها وشاهدها ، وقد كان طبعاً يحاول أن يصف كل ما تقع عليه عينه من مناظر طبيعية وغيرها ، فقد كان كل شيء في الجزائر جديداً بالنسبة إليه .

ولا أريد أن أنحدث ها من القسم الثالث من كتابه ، فهو دون شئ لا
يهم إلا من يبحث في الحركة التجارية في السنوات الأولى للاحتلال . أما القسم
الثاني فيقدم فيه المؤلف مدّة من تاريخ الجزائر ونوع الحكم فيها ، ثم يوزج لعدد
من داهيات الجزائر ، وقد وجدت ما كتبه مكملًا ، في بعض جوابه لما كتبه أحمد
الشريف الزهار في مذاكرته ، فارتأيت ترجمته ترجمة كاملة . وقد ذكر المؤلف في
مقدمته أنه استمد معلوماته من شخص عاش في الجزائر لفترة طويلة .

المجلد السادس : دايات الجزائر الداي مصطفى

1798 - 1805

كان - داي مصطفى سنة 1803 في حوالي سنين من عمره وقد وجد في
الجزيرة - - - - - من بين آخرين ، وجاء في الخبر في يوم شاذة وانضم
في سبب ، وقد انضمه م به ذكاء ولا موهبة ، وقد حضر عمله في أول
الأمر على رأس داي أمام الملكة التي كان يدور في يوسف به أحد
أهله ، وقد عي حسن ، كان به قائد مركز كبير في حكومة داي محمد باب ،
وسهل في عمل - عاف ، وأحد يرضي فيه من منصب في آخر وعنده أصبح
حسن المذكور فيما بعد داي الجزائر ، رفع مصطفى في منصب خراجي وفي
فيه بصورة مستمرة ، لأنه لم يهتم أبدا بالأمر الذي من شأنه أن ينشأ في مجتمعه أو
أن يسهل ، كما يمكن حريصا لا على كسب الأصدقاء ولا على منح الشهرة
ومن ثم لم يكن في سنوكة ما يجعله يولي على عدم ثقة به والخوف منه

وفي ذلك الحين لم يكن الموهب ولا المجد هي التي تؤهل صاحبا في الخبر
للوصول إلى المناصب العالية والمراكز المحترمة ، وإنما كان حبيب الحكم هو المرحع
الوحيد في ذلك .

ولذلك اندهش الناس عندما رأوا مصطفى بعد وفاة حسن سنة 1778 ،
يرتقي العرش الذي لم يكن ، فيما بنا جيتو ، يطمح به ولي الخليفة كانت
الأوضاع في حاله ، ذلك أنه لم يتكون حزب معارض حتى ذلك الوقت الذي
اتخذ فيه لعمه اسم الباشا وقد ساعده على ذلك موظفوه السامون على أمل أن
يستعوا صلاحه وعجزه عن الحكم لتسيير دفة دولته ولم يكر مصطفى قيمة ما
قدموه له ، واعترف بقصدتهم عليه ، غير أنه رفض أن يستسلم لقيادتهم استسلاماً
تاماً ، فكان ينصرف في بعض الأحيان وفق ما يراه هو نفسه ، ولم ينج ثفته
بالدرجة الأولى إلا لاسر وصراف يهودي ، يدعى يوحناح ، كان له تأثيره الكبير
في الشؤون اليومية .

وكان مبه إلى اليهود ما في حادثة التي وقعت صده (يوم الجمعة) 18
سبتمبر سنة 1801 ، فيها كان الداي مصطفى يؤدي صلاة الجمعة في مسجد
قريب من القصر ، اقتحم القصر تركي ، يدعى بابي (ولي) خوجة ، وكان مكلماً
بالأشراف على الكيل لعدم ، برفقة حوالي اثني عشر شخصاً ، وجلس فوق
العرش ، وأعلن نفسه دياناً صرح بأن ملكة التي ينتمى بها اليهود الآن هي التي
دفعته إلى اتخاذ هذه الخطوة ووضع جائزة مقدارها ألف قرش لمن يأتيه برأس
يوحناح ، وعين في وقت نفسه وررر في آخره

وحين سمع مصطفى بذلك في المسجد ، أقام به ، وأمر بفتح الأبواب ،
وحدث ذلك في الوقت الذي توجه به كوكبة من الفرسان على رأس حمدي
جدياً إلى القصر ، فعادهم الداي الجديد واتباعه ولكنهم عدوا في الهابة وقتلوا
وعندئذ خرج الداي مصطفى من المسجد ، ونصى إلى قصره فاستقبل بحماس
كبير . وقد امتنعت هذه العملية حوالي ساعتين ونصف ، وورع الداي
مصطفى على المداعين عن عرشه حوالي ثلاثين ألف قرش ذهبي ، كما صحت
رواتب الجنود ، وبقي ليوحناح مودته كما كان سابقاً .

وقد عرف مصطفى في براعه مع الدول الأوروبية ، وخاصة مع فرنسا
والإنجلترا ، كيف يحفظ ، بفصل صموده ، بل بفصل كبرائه ، على صحة
الجزائر ، رغم أن نجاحه في ذلك لم يكن مرجعه سياسة الحكمة ولا بطرته

العصبة ، والتربية التي تلقاها بين الطبقات الدنيا لم تكن تسمح له بالتمتع بأي نوع من الثغانة ، ولذلك كانت معاربه محدودة وغير ثابتة وأخلاقه فضة ، فقد كان يجهل القراءة والكتابة والحساب على حد سواء . وكان حشمة بلا حدود ، سميت ثروته على حساب رعاياه وفاقث ثروات من سبقه ، ولكنه كان يدير ثروته بطريقة غامضة .

وكان الداي مصصلي رغم عبويته هذه رجلا شيطانا شجاعا وثميرت حكومت برحق لم يعرفه الخزائرون ، وتمثل في سلوكه مع العبيد المسيحيين ، الذين لم يعاملهم معاملة الساية فحسب ، وإنما أبدى نحوهم أيضا شهامة لم يندها نحو مواطنيه ، مع أنه كان يعرف أنهم يستغلون صحفه لا يترار أمواله والحصول على مبالغه .

أما في حياته الخاصة فكان مصصلي ينجح حياة بسيطة لا أثر فيها لأبهة ولا لأي نوع من أنواع الانحلال الخلقي ، ولم يخصص لمجتمعات حكومته إلا السرير القليل من وقته ، ولكنه كان دلم الحركة ، فأهم بقاءاته وبأعمال أخرى ، ولا سيما عمله الربحي الذي كلفه أمولا طائلة . وكان حرمة جنوي على شريكه واحدة فقط ، كان قد شررها من استعمول ، ونزوح بها ، ووضع في خدمتها حوالي مائتين من "الوصيفات والعبيد" وكانت حاشيته تتألف من صباط أتراك ، يحيطون به عندما يقادر قصره ، وحوالي خمسين من العبيد المسيحيين وكان هؤلاء يجلسون في أغلب الأحيان أحسن ما في محبته وأحسنهم مظهرا . فكانوا ينتظرونه ويسيرون خلفه أثناء برهاته ، ويلبسون معه حين يكون وحده كما يلعبون مع طفل ، وكانت لهم مفاتيح حرائره ، فخرجوا كيف يستعملون ذلك إلى درجة أن بعضهم اقتدى به وعاد إلى أوروبا بمبالغ هامة . وكان يستقبل الضايض وفواد السمن بلطف وبصفة رسمية وعاليا ما كان يتكلم مراحه ، فيصب خنائمه على الناس ، وقد سحب سبعة مرة ليصرف به فصلا .

وبعد أن أجزر القنصل الأنجليزى فالكون على معاداة الحرائر وقطعت جميع العلاقات مع إنجلترا ، وصلت في شهر يناير سنة 1805 سفينة غعلية ، تحمل قيادتها القائد كيتس ، الذي أبعد الداي بأن النورد ميلسون بأمره أن يقدم

اعتدالاته للقصل المذكور على الإلهة التي أختفي به وأن يسمح له بالعودة إلى
الخزائن ، وإذا هو لم يفعل ذلك فإن أسطوله سيسقط قتاله على المدينة ، وكان
جواب الذي عن هذا التهديد بأنه سوف يفتتح رأس القصل إن هو ثعراً على
السرور في لير

وبعد أيام وصل اللورد بيرون بأسطوله المكون من إحدى عشرة سفينة
حصينة وعندئذ سمر أخرى صغيرة ، وانضمت إليه السفينة الخفيفة الأولى ، ولكن
البدائي لم يزل يحدث وم يشعر بأنه رهق ، وقصر همه على إقامة التحصينات ،
وأشرف عليها بنفسه شخصاً لعمامة على العمل وم يعترف الأخير من عذبه في
أثناء ذلك ، ولكنهم حصل بردهم إرداد حماس وعزيمة ، وفي النهاية انتهى
الأسطول ، فخرج الخزائريون حدث عند مخرج إذ أنهم يسمون أن ظروف هو الذي
حصل الأخير على الترحيل ، خاصة وأنهم كانوا معروفين بلسون ويعتبرونه ، على حد
تصورهم ، أنصح قراصنة العالم .

وقد كانت هذه الحادثة سبب في زحف كثير من الخزائريين واحتجازهم
بمساحين وفي الصيف الذي رجع حدثت كبرى سفينة «سويبي» ،
وصحبت معه قائد الأعوان ، وحدث لإجراء محادثات الصلح ، فتم به ما أراد بعد
أن وقعت الحبر على جميع شروط الذي ديو أن يشار هو عن مطلب من
مصابه ، مما زاد في كبرياء الذي وحمله على احتجاز محوث الإعليري وإدلائه
بصورة صريحة .

وكانت قد حدثت سنة 1804 بعض الاستمرات في داخل البلاد ، من
حدث أن رجلاً من أصل مغربي كان قد استقر بين قبائل جبال جباله وجيجل ،
التي لم تكن خاضعة للحكم التركي ، فاشترى بينها مكرمانه ، واتخذ له ولداً فجمع
عنها بضعة آلاف من الرجال ، وأعدا لإدهم بانتلاك كور الخزائر ومسطبة ،
وهجم على جيجل ، وتمكن من الدخول هزيمة بالخدمة التركية الصغيرة ، وأرغم
سكانها على التردد على الذي .

وهناك مرر لم رابط أن يعرب حظه في البحر ، فركب مع قسم من أناس

عدد من المراكب ، واستوفى بها على سبب من من مصر حديد المرجان ، كان
بها أربعة وخمسون بحار ، فر عشرة منهم إلى الجزائر ، وحمل الباقيون إلى الجبال
وعملوا عمالة مشقة .

وبعد هذه الحملة البحرية توجه بجيشه كله إليها حملة قسسية ، وكان عدد
من جنوده لا يحل من الأسحة غير العصي يذبحون في بركة قائلهم ،
مخرج بأي قسسية ملاقاتهم والتحم معهم في معركة حامية ، قهرهم ، وسار
بعده خلفهم في المناظر الحربية ، واستولى على سب عشرة فرقة من قراهم ، إلا
أن وغورة حال حالت دون تقدم جيشه ، ومن ثم لم يتمكن من النصر التام
الذي كان يطمح إليه ، فقد هاجمت القائل من الأعالي ، ودحره هو وأتباعه
وكانوا حاربوا رجل . ولم يحصل المربط هذا نصر لأنه كان قد خرج في
جده في هزيمة الأور ، مع أنه كان يدعي أن الحصار لا يصب جوده
نأعته ! ولذلك ضعف نفوذه بين القائل ، فحصل الماء في حياها . وما أن
بإمداد كات قد وصل إلى قسبة وحيث ، فقد عادت الأمور إلى
مصابها ، وانتهى الصراع في هذه المنطقة .

وفي ربيع سنة ثمان مائة قامت ثورة خطيرة في منطقة وهران حيث أن بأي
هذه منطقة ، الذي حلت به صراخ ثيابه . ثم تصب من مائة ألف ، قد
وحد معه ماضرا إلى تضغط على مواضع حصول على منابع المصوبة مما زاد
في مؤسهم ونفادهم وعندئذ انهم لأهني حصرا وعزبا سلاح مدفع عن انقبيل
لدي بقي لهم .

وفي شهر جوان خرج إلى بجيشه بقيادة سوار الدين كانوا قد تجمعوا في
السهل بين ميسان ومسكر ، غير أن مصائبه خلوه عنه سوء طالع ، وكان
لأثر ذلك الذين بقوا معه ، لقنة عددهم ، عاجزين عن النجاة في وجه لشوار ،
فكان عليه أن يعود إلى وهران ، حيث حاصره العرب وبعد فترة قصيرة وصلته
خلفة من الجزائر ، تتكون من حربي ألف صائحي ، جمعوا من ماضن أخرى
ولم يكن في وسع الجزائر أن ترسل عددا أكثر ، لأن الأوضاع فيها كانت غير

مستفزة ، إذ أن ظروف الحرب تسببت في انقطاع المواد الغذائية وعلاء المعيشة في
الحرائر ، الأمر الذي جعل الناس ينهضون حكومة مصطفى بالمعبر والقصور . ولم
تخض سوى فترة قصيرة حتى هاجمه في شهر مارس 1805 أربعة أتراك عندما كان
جالسا فوق صخرة ينظر الى الأعمال الجارية في مقطع للحجر قرب مره
الريهي ، ولكن الصيد المسيحيين الذين كانوا يحصلون هناك سارعوا الى انقاده .
وقد وجد هذا السخط العام عداء وافر في نفوس اليهودي بوجناح المترايد ،
الذي كان الأتراك يحصون به كل الخسوع لأنه كان باستطاعته أن يسقطهم على
بعضه على حسبهم بكلمة واحدة تصدر عنه . وقد وقعت عدة محاولات لاعتقال
هذا الريب العيس ونكها كات بلا حذري ، وأخيرا أطلق عليه أحد الأتراك
نـر في 28 يوبه فأرداه قتيلًا ، وهر القاتل إلى ثكنته في الحبس ، فاستقبل فيها
حدوة كبيرة وبعد المرح اندبته كنكها محسن ذلك الذي على أن يرسل ليقاتل
سبعه تيلًا عدياً على عمروه عنه وابعاده عليه . لكن الأتراك احتجوا ذلك ترددا
من وحيد . فصرخوا لأسماء من اليهود كنهم .

بعدوا ما نطق رأهم عنه في صبيحة اليوم التالي ، فدخلوا بيوت اليهود
حمدا . وفسدوا من قيب وجرها . لقد حاول اليهود أن يقتلوا أنفسهم ، فحما
بعضهم عبر السجوح إلى سور المحاورة واحتضى بعضهم الآخر في الأقبية وغيرها
من شغبي ، ومع ذلك فقد سمع قتل هذه الثورة حوالي ثلاثمائة شخص ،
واسربت المدعة حتى منتصف ليل ، وقد ربطت الخشب بحبال من أرجلها ،
وقام اميد المسيحيون تحملها الى خارج المدينة حيث حمت وأحرقت . وكان
بعض هؤلاء الأشقياء لا يزال على قيد الحياة ، فألقى في النار حيا دون أن يسمع
صراخه ورجاؤه . أما بيوت المسيحيين وأصحابها فقد سلم الجميع من لأدى

ولم يستطع الذي أن يفعل أكثر من أن يرسل إليهم رسولا من حين
لآخر ، وأعدا يياهم بأنه سيجفو عنهم إن هم كفوا عن مواصلة تلك المدعة ، غير
أنهم لم يتنجسوا لدائه ، وفي اليوم التالي ، في الثلاثين من شهر يوبه ، أرسل من
يلقى القبض على رجعاتهم ، وتمكن رجاله من إمساك بعضهم والإلقاء بهم في
السجن ولكن رملاهم أطلقوا سراحهم وأعادوهم الى النكة وحلال هذه

لعمري ثم إضاع ثلاثمائة من شخصهم عن صديق الوعود وأخذوا العيسة بالتوجه إلى مدينة وهران لتوقف إلى جانب حاميتها ، هذا كل ما كان في مقدور الداي أن يفعله . وقد قدرت حبال اليهود في البصائع والأموال بنصف مليون قرش . وكانت النعم الكثيرة التي أعدفها داي على بوجناح وكذلك سلوكه أثناء الاضطرابات مما في كره الأتراك وحقدتهم له وتحملهم عليه . ومن ثم لم يسبق لداي مصطفى أن مر بفترة أخطر من الفترة التي مر بها بعد اغتيال ريسه اليهودي .

وفي أثناء ذلك أحرر لنوار العرب عن انتصارات كثيرة ، وكان الأتراك يترافعون أمامهم بصورة مستمرة . وكان الداي مصطفى يعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى عمر الآغا المحور ، فعزل وأرسل مكانه قائدا أكثر تجربة وحيوة ليولي قيادة الجيش في وهران إلا أن هذا القرار الذي اتخذه مصطفى لم يؤد إلا إلى التعجيل بسقوطه . كان الجيش التركي في وهران يعاني من وباء الحرب وحرارة الشمس وانعدام ما يمكن سبه وجهه . فقد نبت هذا غرائهم وعصموا فرصة تحرير الآغا وتخذوه حجة للانصراف ، وادعوا أن الآغا الجديد عاخر عن قيادة الجيش ، ثم ساروا بقيادة الآغا القديم ورحلوا نحو عاصمة الجزائر ، فوصلوها يوم 14 أوت . وكان لداي قد أمر بمنى أبوابها ، وبصر إلى أن اندفعية الخرجية لم يكن بها جود ، فقد استولى نوار عليها وحاصروا داي في عاصمته أما الأتراك الذين كانوا بداخل المدينة فقد طالبوا بالسماح لرملائهم بالدخول إلى المدينة ، وهددوا بأنهم سيمسحون الأبواب بأنفسهم إذ تردد الداي في ذلك .

واضطرب الداي في حيرة هذه إلى التفاوض مع الآغا ، الذي عيى فيما قبل جنبا لداي مصطفى . وقبل الآغا الهدية التي عرضها عليه الداي وهي عبارة عن عشرين ألف قرش ، بمرسها له من ماله الخاص إلى بلده على متن سفينة بحسبوية ، وبعد سفر الآغا فتح مصطفى أبواب المدينة ونجى الأتراك في سلام إلى ثكناتهم . وكان لنوار العرب على بعد يومين من مدينة الجزائر ، وعوض أن يفتربوا منها ويحاصروها ويقطعوا عنها المواد الحدية ، عادوا إلى أوطانهم على شاكنة الأتراك .

وكان مصطفى لا يزال مشرباً على العرش ، إلا أن سقوطه كان مؤكداً . ولم يبق فيه إلا لأن الاكثارية لم يعفوا على احتبار حبيبة له . وكانت أول صفة له مع الأرمن تمثل في تسليم مائتين وثلاثين عبداً مسيحياً ، وهم من حبة ، وبسببهم ، الذين أصبحت ثمانين سلاحاً العرسى ، كان هيروديموس يونانرب قد طلبهم على رأس مجموعة صغيرة من سبي ، وتسلمهم مقابل ثمانين ألف قرش . وفي 29 أوت . حين كاس الدلائل كلها تشير إلى أن الثورة لم تكن قد انتهت ، بل كانت قد بلغت هذا الصبح أرسى وهذا من أعضاء يدويان برأسهم المضي إلى الشكوة ، وعرض على الأتراك أن يتحل عن الحكم إذا سمح له أن يأخذ روحته وأنفعاله وقسم من أمواله الخاصة ويسافر إلى شرق ، فجاءه الخواب مبيهاً وقامت الثورة يوم ثلاثين وكان على رأسها الخوجة سائق ، ويهدي أحمد الذي كان قد عزل من منصبه في الخربة ، بسبب امائه لوجح ، وكان قد سجن إلى الأثر يوسف التورود التي قدمها لهم فاجتمع شجعانهم أمام قصر الداي ، وبعد أن مضى مع الحرس أمام الباب على الامتاع عن مفودتهم ، أرسلوا رسولاً إلى مصطفى بحدود أن هذه حكومته قد انتهت ، وأن داها بحر قد عين في مكانه . وأنه لا حاجة إلا بالخروج إلى قبة المزايد القريبة وحزن مصطفى عندما وجد نفسه وحيداً . أن يقدم بثور عروصاً محشوة ، إلا أن محاولته لم تنفع في شيء ، فقد أخرج من قصره بالقوة ، وفي طريقه إلى لقبة التي حدثت له التقى بمجموعة كبيرة من الأتراك ، فسلطوه بسيفهم بعد مقاومة قصيرة . وقد التقى الخرباخي بعض المسير ، لأن ثقته في بوحس جعلتهم يكرهونه وبعد موت هذين الشخصين ، توجه الداي الجديد إلى القصر وحسن هو العرش تحت هداب الملبس ، وبما أن أنباء مصطفى قد انصموا إلى الحرب المسير بعد تم تغيير الحكومة دول اراقة دم جديد .

أحمد خوجة

(1805 - 1808)

بدأ أحمد خوجة يسمى منذ الأشهر الأولى لقيام حكومته إلى كسر شوكة

الأتراك وتنظيم شؤون البلاد واتبع في ذلك الأسلوب التركي المعروف . فأنمر
 ماعدام عدد من الأتراك دون أن يتحقق من الخرائط التي ركبوها وكان أول
 أصحابا سياسته هذه من ماضيه في السلطة ومن الذين كان يحشي بعودهم ،
 وطرد كذلك عددا آخر من البلاد بعد أن حردهم من أملاكهم ، فاستتب له
 الأمر ، ولكن البلاد كانت تعاني من شدة الجلاء ، وقرص على اليهود أن يدفعوا
 لمحرقة 200 عوص 100 قرش نفرة ساق ، وحسب من شركة موحاج أن
 تسدد في موعد مختلفة ، 1,200,000 قرش تعويضا عن الأمبارب التي
 كانت غنما والمعرض التي تنفق في عهد ليداي مصطفى ، وعندما طرح دافيد
 باي ، رئيس شركة في ذلك حين أنه عجز عن دفع مبلغ مذكور ، اعتقل
 بأمر من ليداي وقصر عليه المقام بالأسباب المرمية مع بعض الآخرين وعدده
 وفق على دفع مبلغ لمصوب ، وبعد تسدده بقي في حيرة هذه الشركة ، تصرف
 انصرف عن الحائز التي صباها بام عمليات السب ولهب ، تعذيب من
 ملاين الأمور في قرب وفي بعضا وفي الحرار

وفي بداية الأمر ، يفكر أحمد في مهاجمة مسجد رعم أن المصل
 الأخير دون أن حرمه عن إعلان الحرب على فرنسا وسبب ذلك أنه لم
 يكن يريد أن يكون له علاقة مع أي من الأطراف المستحقة ، بل بقدر
 أصغر سباح ملاحين انصيين ، الذين كانوا عبدا في الحرار ، وعددهم حوالي
 اثلاثين عندما ضل منه ذلك المصل الأخير ، دون عذبة ، كما أنه دفع من
 جهة أخرى القيمة الكاملة لخدمة لياوطينيه ، العاملة تحت العلم الفرنسي ،
 التي استوى عليها قراصه وداعوها في تونس ، مع أن الحكام السابقين لم يعترضوا
 لانحسار ولا لفرنسا بحق إغارة أعلامهم للثوار التي كانت تعذر في حالة حرب مع
 الجزائر .

ولكن لمدي كان ينشغل فكر أحمد خوفا من السياسة الخارجية ،
 وينطلب اهتمامه الكبير ، هو بحرية الدولة في أفرعها من محتوها ، سراه في التوحد
 التي قطعها على نفسه تحه الأتراك أثناء سعيه إلى الوصول إلى العرش ، بما اضطره
 إلى دفع رواتبهم ، فكان ينسلم كل واحد منهم خمسة قروش شهريا وبما أن ظروف

الحرب قد فرصت عليه أن يدعو الكرامة إلى المشاركة فيها ، فقد ارتفعت مصاريف الدولة إلى سبعمائة أو ثمانمائة ألف قرش في السنة . ونظرا إلى أن مداخيل الدولة لم تكن تغطي نصف هذا المبلغ وخاصة بسبب الاضطرابات الواقعة في وهران ، ثم الهجرة إلى الأندلس ، والعقر المتزايد ، فإن هذا الصخر المالي قد تسبب بطبيعة الحال في مصادرة الأموال وفي مرض قعود أخرى لم يكن منها بد في فترة لاحقة .

إن المرامة قد تبدو ضرورية بالنسبة لدعوية تركي ، إلا أن عليه أن يكون عادلا مفعلا ، وهذه هي الفضيحة التي كانت غريبة عن أحمد خوجة . لقد حرص على إبعاد كل شخص سوى الظلي به أو لأمر باعدامه بكل سهولة ، سواء بسبب تعلقه بسابقه أو بسبب السمعة التي يتمتع بها عند الأتراك ، بهذه الطريقة قضى على حياة حرباخي وقائدين من قواد خيش ومعي وعبد كبير من الموظفين السابقين . إن تصرفات أحمد (خوجة) هذه قد جعلت الناس يكرهونه ويهرون منه بعد أن كانوا يهرون به احتراماً كبيراً

قد خرج أحمد (خوجة) في إبرام اتفاق مع الثوار في وهران ، وذلك عن طريق إرسال ناي آخر ، كان قد قدم هذا المنصب سابقا وكان له فزاية مصاهرة مع نيوخ الصفة ومن جهة أخرى كانت عواقب ظروف الحرب وخيمة بالنسبة لمقاطعة وهران ، إذ تسبب الحرب في إهمال زراعة الخقول وفي ضعف مزايا الدولة بقلة المداخيل ولتعميق هذه الحسارة السجاء الذي إلى مصادرة الأموال وإصدار أحكام الإعدام .

واضطرب القصل الأعلي كارترايت (Cartreite) إلى الانتعاد عن البلاد لأن لداي معه من المظهور أمامه بسبب نزاع شخصي وقع بينهما ، وبناء على طلب لداي أرسل نائب قائد ثمر جبل طارق المرفقة ، التي كانت تحمل الهدايا من القسطنطينية ، إلى الجزائر ، ليقدم قائدها اعتذاراته لداي عن تصرفات القصل وتقديم الهدايا له ، وبعد عودتها من القسطنطينية حملت إلى لداي مرسوم نعيه باشا كما جئت إليه المظنون المؤلف

وفي 6 يوبه سنة 1806 وصلت مجموعة من السفن البرتغالية بقيادة
الدون لويس داموت (Don Luis de motte) لأجراء مفاوضات الصلح ، فطلب
الداي مليون ، ولكن قائد السفن البرتغالية لم يكن لديه تفويض بتقديم أكثر من
مليون واحد ، يدفع منها في موانئ مدونة بمقدار 50,000 . غير أن الداي أراد
الحصول على مبلغ كبير في الحال ، ومن ثم عاد البرتغاليون دون أن يحققوا الهدف
الذي جاءوا من أجله ، وكان في ذلك خيبة من كثرة بالنسبة للعيد البرتغاليين
المساكين ، لأنهم كانوا قد عوملوا معاملة سيئة للغاية .

وبما أن امرأة كانت قد أعلنت أن ظروف أحمد (خوجة) لن تكون أحسن
من ظروف سابقه ، فقد أصدر الداي أمراً بأن كل من يتحرراً على الخديث عن
شؤون الدولة سيصاب على ذلك بالموت . حقاً بالنسبة لتركى ، وشقاً بالنسبة
لصحري ، وحرقاً بالنسبة لليهودى ، وعزاً بالنسبة للمرأة .

وفي هذا الوقت أيضاً انتهت علاقات السليمة مع فرنسا . فقد اختفى
نائب الوكيل الأتليرى بعناية أصراراً كبيره بإصالح التحالف العرسية خلال فترة
قصيرة . وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه الفصل العرسى دويوا طاهيل
(Dubus chaville) يحرص على تصرفات الداي ويذكره بالمعاهدات المبرمة ، التي
تضمن بحماية مصالح فرنسا في بلاده ، وعدم السماح للسفن الأتليرية بالدخول
إلى عداية للاستلاء على السفن العرسية وهب صيادى المرحان ، ولعل الفصل
العرسى تحدث عن ذلك بلهجة لا تخلو من تحد ، فكانت السبب في برع الثقة
معه ، يضاف إليها مآزرات نائب الوكيل الأتليرى الذي حصر إلى الحرائر ،
ومآزرات تاجر جرائري ، وسمح للوكيل الأتليرى بالعودة إلى عداية في حين أن
طاهيل ، الذي وصل بعد ذلك بفترة قصيرة إلى الحرائر فقاطعة الذي والخديث
معه في هذا الأمر ، قد أبعده حرمه عن باب القصر بصورة عجيبة . ولم يكتف
الداي بذلك ، بل أمر فراعته بالاستيلاء على سفن صيد المرحان في كل من
عبانة والغالة ، ومصادرتها بما فيها من مرحان (قيتة بحسب ألف قرش) واستعباد
ملاحها ، وعددهم حوالي مائتي شخص ، بحجة أنهم من الرعايا الأتليطاسيين ،
مع أنهم كانوا يحملون جوازات سفر فرنسية وكان

صاعيل قد طالب بإرجاعهم باعتبارهم رعايا فرنسيين ، فكان جواب الناي على اعتراض القنصل الفرنسي أنه لا يعتبر الجنود اليسمونيون وغيرهم من الأطباء فرنسيين مادام مواسرت لم يقدم به اهدايا الالافقة به مثل بقية الدول الأوروبية الأخرى ، وبعد بأنه سوف يسحب منهم رحمة صيد المرحان ويقدمها لأعدائهم الأخير إذ لم يصاعف الفرنسيون وموم صيد المرحان واتحارة المدرجة وبالإضافة إلى هذا سراح مع قرب أحد أحمد يستعد بحرية جيرة الموسيقيين ، الذين كانوا يدفعون للحزائر حرية منذ سنة 1757 ، واستعوا عن دفعها الآن بسبب ضعف حكومة مصطفى من جهة ، وبسبب الاضطرابات بدعية من جهة أخرى ، وقد وجد الفرنسيون في كل ذلك فرصة متحضر من هذا سيرة قنصل أحمد باشا هذه الحجة لتقوم على عدوه وهو يكي نفسه . حصول على كبر كبر من خلال تعلقه عليه وسبه له . فكون حيث يتزوج عذوة بين عشرة وثني عشر ألف تركي وكرخي ، ورحمة حب هذه أعما معروف تدهنه حربه سيرة هو فستية ، ويجمع مع الحش يعرف لايها هناك ثم يحلف هو حش

وقد اعمد عرب مصطفى عليه هذه الفرصة ، وكان على رأسهم نفس مرشد الذي ذكر عام 1804 المبتلى ضد فستية ، فحددوا ثورتهم ، وسعدت الحروب جميع حشاشي التي تقتضى هذا بين معسكر ومدينة ، فاسل باي وهران رسولاً إلى الذي ليحذره بأنه عاجز عن حمايته لنور ، فدمر أحمد باشا الآغا ، الذي لم يكن بعد قد بلغ فستية ، بالآغا إلى نور بفضاء عليهم حتى لا تقوم لهم بعد ذلك دئمة في مستقبل ، وكان المراد المذكور بقود لنور ، وما أن طلع هؤلاء حش تركي حتى يعرفوا وأسرهم وأسب هذه الحملة بالمصاء على ثورة العرب فضاء ذم بعد أسابيع ، فصل بعض لنور وعومل بعضهم الآخر معاملة قسبة ، وكان الآغا قد سبق حوذه إلى مثل هذه المعاملة

بعد انتهت الآن بشجاعه شيء عرف بها العرب عديما ، وبغش مصطفى وهران في وضع شيء ، ليعابه ، ويقتصر أسلحتهم على الحروب ، أما نسادق والمفديف السارية فلا يمكنها ، لا القليل منهم . وقد أرسلت رؤوس مائات من

هؤلاء العرب إلى الحرائر علامة على النصر وعرفت صفوقا على أبواب المدينة ،
ووجهت إلى جانبها فرق معارك جديدة رؤوس الخصر الذي كانوا يهدمون
يومياً ، فكان كل ذلك مصدر مرعباً بالنسبة للمسيحيين ، ولكنه كان مشهداً
محبباً بالنسبة للأتراك الذين كانوا يتأمنون تحت دوماً أكثرث ويكفون بأنفوسه «
المكثورة» .

إن نتائج هذه حملة لضامة والأعصاب الطويلة التي أندھا لبشاً خلاها
قد جعلت الأتراك يخصصون له حصروماً ، كان فيه ما يكفي لتسهيل سفوحه فما
كاد يحصل إلى مدينة حرائر حتى أحد ليلاً وصوره سره من بيته وجعل إلى
انسحب اسركي وحق فيه . وعندما علم الأتراك بحصه ، ساءوا لذلك كل
الاستياء ، حيث حثي الناس أن تقوم ثورة ، ولم يستطع الذي أن يحول دون
قيامه ، إلا بصعوبة واستعمل في ذلك شدة حيا واسترعاء من كان يحثي
صوتهم حيا آخر ، وأدعى أن الأعيا يسمى إلى هذه وبعد ذلك دعى بدي
البيطري ليجوز نصب الأعيا ، إلا أن الحرف العام من هؤلاء أحمد يات حصل هذا
الباي يتحاً إلى صريح أحد هؤلاء ، لأن كان يحثي حبه وعسره ، ولم يتوجه إلى
الحرائر إلا بعد أن أقسم له بادي بأنه من يتعرض له سيؤه

وكان عدد هذه (باي) قد بين حكمه مسطبه سنة 1804 ، وذلك بعد أن
تمت أعمال بقيادة مرشد سابقه عيان (باي) . فحكم مسطبه بالخمس
والانصاف ، ويضع حداً ثوره بعد ذلك ، وحين سلوكة خبر دون مشاركة عرب
مسطبه في ثوره سي قدم ١٠٠٠٠ مكان مسطبه وهران ، وكان يتمتع كذلك بحب
رعاياه واحترامهم له .

وزاد كرعى عسى أن يجعل محبه في حكم مسطبه معرض على بادي
1,250,000 محموداً ، نفس الذي أحمد عرضه ، وانقسم البيع مع حبه
وترجمانه سبدي محمد ، وأصدر فرماناً بحرب عبد الله باي ، أن لباي الجديد قد
حاول أن يسترد البيع الذي دفعه للباي عن طريق القسوة ومصادرة الأموال
وسدعت به القسوة حداً أقصى ، فحاول أن يرغم عبد الله باي وأسرته عن طريق
العسب والكمي بالعديد المسبب عن الاعتراف بالمكان الذي أحصى فيه كوره ،

ولكن عبد الله لم يكسر شيئا ، ومن ثم لم يعترف بشيء ، ولمط أطاع أبناء
تعدييه . وإذا كان الأهالي قد أحسوا عبد الله باي ، فقد كرهوا الباي الجديد
كرها شديدا ، كانت عواقبه وحيدة بالنسبة له .

كان باي تونس يتوقع أن تم حملة جديدة ضد بلاده ، كما أنه لم يكن من
جهة أخرى يرغب في دفع الصربية معهوده ، ولذلك قام في هذه الفترة بهجوم
على مدينة قسطنطينة جيش قوامه ثلاثون ألف رجل ، فاحتل مدينة تبسة الواقعة
على الحدود بين البلدين ، وحاصر مدينة قسطنطينة في مارس سنة 1806 . وفي
هذه الحقبة لم يجد الباي الجديد أي استعداد عند رعاياه لمساعدته في التسليح
نوجهة التونسيين وتقوية وسائل الدفاع . وكان جيش الجزائر ، ويسكون من
12,000 ألف رجل ، في طريقه إلى قسطنطينة بقيادة الآغا الجديد ، وقد انضم
إليه عدد كبير من سكان المناطق العربية التي مر بها مطوعة وفيرا ، وذلك ما
حار وجهه إلى قسطنطينة إلى شهر أبريل عزم أن التونسيين لم يستعدوا من هذا
التحدي

كانت مدينة قسطنطينة محاطة بسور حجري ، دون خندق ودون تحصينات
حديثة ، وكان في وسع التونسيين أن ينظموا عليها الماء والمواد الغذائية ،
ونكسهم ، يفعلوا ذلك ولما تم تحصن بلا فترة قصيرة حتى هاجمهم الآغا في
معسكرهم ، ودامت المعركة بين الجيشين مدة يومين دون أن يكون النصر حليف
أي منهما ، وفي اليوم الثالث وصلت في 2 ماي إمدادات من الجزائر عن طريق
البحر ، فهاجم جيش من الأتراك والكراغنة الحجاج التونسي ، هم النصر
للجزائريين . وقر 800 تركي من الجيش سوفي إلى الجيش الجزائري ، واستول
الجزائريون على المعسكر التونسي وكان بها عشرون مدفعا وستة مدافع هاون وعدد
كبير من الجنود .

وعمت المرحلة في الجزائر عندما وصلت أخبار هذا النصر وأطلقت من
الحاميات أكثر من مائة طلقة ، وحلت العاصم في مركب كبير إلى مدينة الجزائر .
كما أن قسما من الجيش المنتصر قدم بها استعراضا كبيرا وبما أن الثرور قد

جعل الأتراك يعتقدون أنهم أكثر دول العالم بطولة ، فقد تصوروا أن في استطاعتهم أن يهزموا القوادس سيدهم الداي . ذلك أن المرق التي شاركت في معركة قسطنطينية تخرأت على رخص أمر الداي بمطاردة التوسيين وصالبت بمكافأة على النصر الذي أحرزته ، فأحصى أحمد (باشا) انتصاه لذلك ، وأرسل الخراجي حسن إلى قسطنطينية معه 200 ألف محبوس ، لتورعها على الحدود . وما أن لم ذلك حتى أمر حسن بالقضاء القبض على الأعاء وقتله ، وأظهر عذب ذلك حرمان الداي ، الذي ينصهر تبعيه في هذا المصعب ، ولم يكن حسن هذا من اتباع الداي فقط ، وعمما كان يمت إليه بصفة انقراة أيضا ، إلا أنه كان شابا ، وم يكن له ما يؤهله ليكون قائدا ممتازا ، وأصاب حسن شيئا من أمواله الخاصة ووزع على الحدود مبالغ كبيرة ، فلم يترددوا عندئذ في التوجه إلى الحدود التونسية .

والتفوا بالحيش التوسية في الكاف ، وهي مدينة حصينة ، كان يقيم بها منذ شهر ماي ، وكان قد محوص بها من حصره في ابرحال والمدفع وفي 12 يويه هاجمه حسن على رأس حياته التركية بقوة كبيرة إلى درجة أن هزيمة الحيش التوسية كانت محزنة بو لم يشارك بأي قسطنطينية في المعركة .

فقد كان هذا رأى يتفرد مرة لحياة العربيه التابعة للحيش التركي وكان قد أعلن مع مدينة المعركة أن الاحير التي وصلته تقول أن الأعاء قد قتل ، وترك بعد ذلك أرض المعركة ، قعته العربة التي كانت تحت امراته ، وكانت تتألف من الأتراك الكراغلة ، وعندما رأى الأعاء حسن أن انقسام الأكبر من جيشه قد نحل عنه ، انسحب اضطررا في المنطقة التي كان يظن فيها أنه قد انتصر وكان التوسيون قد تبددوا حقيقة ، وكانوا على وشك الفرار حين لاحظت حامية الكاف من فوق أسوارها وبروحها الاضطراب الذي حل بصعوف الخرائطين فسبقت القادة التوسيين ومصطفى بنى إلى ذلك ، فجمعوا العارفين بسرعة وأرسلوهم لمهاجمة الخرائطين ، إلا أن هؤلاء كانوا قد هربوا وتركوا معسكرهم بما فيه من مبالغ ودخيرة ، فاستولى عليه التوسيون والعرب الذين كانوا يحومون حوله وهكذا انتصر التوسيون انتصارا نادرا بل أبعد حد دون أن يكونوا مهزبين له

وكان في وسعهم أن يمتدحوا بحشهم الذي كان قوامه أربعين ألف ، مقاطعة قسطنطينية ، وبكهم مكثوا الضيف كله في الكاف دون أن يتحركوا ساك .

وكان أول ما عمده الأعاد حس انه أمر بإعدام باي قسطنطينية وتصيب باي آخر في مكانه . وقد حاول باي الحديد أن يجمع العرب حول علم الأعاد حس ، إلا أنه لم يكن من السهل حبسهم على المشاركة في المعركة في ذلك الضيف ، وفي شهر أوت وسبتمبر تلقى الأعاد حس إمدادات من الخبز ، تشكوب من الأتراك والعرب والكرعنة ، غير أن عددهم نقصت بسرعة بسبب الحر ومرض لشدة الحرارة وقلة ماء ثم الجوع لقلة ما جمع من المواد الغذائية ، فكان الناس والخور يسودان المدينت المحيطة بقسطنطينية ، وكان من حسن حظ جيش أن الأعلاء لم يرمحوا راحته .

وفي شهر أكتوبر عاد الأعاد إلى الخرائر ، فاستقبله الباي ، حاله ، بخارة كبيرة وجمع عليه سحاء .

وكانت هذه هي المرة الأولى في هذه البلاد التي يترجع فيها الأتراك أمام قوة تنحى إلى بعض منطقة ، وقد كان ذلك باعثا على السخط العام على الباي ، الذي كان قد في استفادة عند بله ، لكنه استطاع مع كل هذا أن يحول دون وفور ثورته ، وذلك بفضل نشاط عيونه وصرامة أحكامه .

وفي شهر يناير 1807 سحب الباي من الفرنسيين حصنة الاحتكار التجارية وحيد المرحال في عناه وسلمها للانجليز في مقابل صرية سوية قيمها بمليون ألف قرش .

وفي 3 نوفمبر انتهت حرر برلن شديدة ، بسبب في تخميم بعض المدارس في المدينة وفي اريف والحق اصراا بمدول أخرى

ومثل هذه الرلار بسبب نافرة في الخرائر ، فقد وقعت رلار عيفة سنة 1792 في وهران ، وسنة 1802 في القبيعه وهرت الحرر بمسها مرزى

وفي سنة 1808 استعد بباي أحمد بخارة تونس ، وكان الذي قد غرصر

عنه ائصح ، وأبدى في ذلك قاضي الذي كان قد وصل من مصر
بمؤمن من السلطان يدعو فيه بدوره إلى ائصح ، ولكن أحمد باتا لم يؤمن على
دئت ، فصدر المبعوث ذون أن حق ما جاءه من أحمد ، وفي أبريل أرسل جيش
من الأتراك وانكر على قومه حربي عشرة آلاف رجل . وكان الأمر في حاحه هذه
أمره كثيرا ، خاصة بعد أن صار إلى مسطبه الحديد بصوف باسطه مع الأعا
حسن الجميع حاحه نهره والأمور بالمره ، وبصه بعد ذلك في جيش
الداي

ووصل الجيش إلى مسطبه بأسرج بها أمانا ، وكان العدو يحويه في
الكاف في هلبه وبعد ذلك صار الجيش ، وبعد الأمان مرسوب إلى الادي ، وكانت
رمسه مضمين وعده بأنه سيسلم على أعدائه انصار كاملا . وفي أن يسع
الأمان جيش ، مضى في مركب كبير إلى ائصح بكم بالمدية - وأثناء إقامه
بصلافة دخل ائصح جميع عهده من الأثر وسبوهه مسونه ، وفي حطة واحدة
معه الأمان وبني بركه حبات مضمين بدعائهم

وقد دام هذه حوره مدحه مركبي يدعي أحمد ، كان قبل منه في حله
الأمان ، ثم صبرت عنه أقوال أرب عتب لأعا . ومن يؤكد أنه كان سيشو
من أحمد ، أنه من حرتر مات حاحه وحق بسفه من مضمين
عربه ، أن من عده لا يستطيع أن يفت من فانها بسفه محرم حاحه
كم لا يستطيع ذلك مدحه بسحا اعزم من بكمه ، ووصل حفة إلى مدينة
معه حبة . به أمان إلى عاهه من كان مدرها ، بمضى أحمد مع أرائه
إلى دار - وبه حده الأمان حده وحربه الادي ذون أن حده بأنه مقومه

ووصل هذه الأموال إلى قنار حوي مبدول عرش ، وأسرع إلى حشر يورع عليه
ذلك الأموال ، فلم حده بعد ذلك صهوة في غلال بسفه ركب بالترك ، وبماوص
مع الأتراك والنعم معهم على أن يصفوه دينا عبيهم ، فصار بهم حو الحرتر بجمع
الداي أحمد عن العرش .

وعمت انهضة واخيرة عده الحرتر ، عندما وصلت أخباره إليها ولأول
مرة وجد الادي أحمد بسفه مضمين إلى العرش بعد رعبه الرأى انعام ، وأرس

ترجمان مشهور الحصرية ، وهو حصري دأب الأتراك على كراهته لما كان يمتنع به من حضرة عبد الداي ، الى جبل طارق . ونصب امدامع عرق الحمامات واتخذت كل الاجراءات للدفاع عن المدينة ، لا أن الداي أحمد ، الذي كان يعلم أن جميع سوف ينحبون به بمجرد وصول ذلك التأثير ، حاول أن يرم اتفاقا مع قائد سفينة فرنسية كانت راسية بليبيا ، ومع لقصل الفرنسي ، من أجل أن يحصل هو وورثته واصدقائه الكبار الى السفينة ليلا ويمضوا عن المدينة في الخفاء ، وفي أثناء هذه التدابير وصل رسول على جناح السرعة وأحضر الداي حاشيته بمقتل أحمد شاوش وبروز الخطر الذي كان يهددهم ، فعمت الفرحة المدينة لأن الناس كانوا يخشون أن يهب بنوار أموالهم وينهبوا أعراضهم

ولم يتم كل ذلك ، لأن أحمد شاوش كان قد أقبل على المنع الذي سمحت له به أعمال العنف ، عوص أن يستغل حماس الجيش لمهاجمة على الجزائر ، فكان ذلك فرصة عرف كيف يستغلها قائد في صفوف الجيش ، كان قد تولي القيادة بصفة مؤقتة ، فاستدعى إقناع مجموعة من الأتراك بالوقوف إلى جانب الداي ، وهاجم بهم التأثير أثناء مآذنه من مآذنه ، وقتله مع عدد من أتباعه . وخلال ذلك كانت الموصى قد تسربت إلى صفوف الجيش ، ولم تبت أن أصبحت شاملة ، فلم يكن من المستظر أن يؤدي الأحداث المذكورة إلى شيء آخر غير الاضطراب وأعمال العنف .

نقد مرثت من الأتراك إلى تونس ليعودوا من هناك الى أوطانهم ، وكانت حربية الدولة فارغة تقريبا ، ولم يستطع الأتراك الجديد ، وهو القائد الذي قتل أحمد شاوش ، إعادة الأمور إلى نصابها ، وقد حمل هذا كنه الداي على التحلي عن لقرار لذي كان قد اتخذه بمهاجمة تونس أمام رجال الجيش ، فقد اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم حول ما يجب عليهم أن يحدروه من الداي ، وتحدثوا عن فسوته ، وانفقوا في النهاية على أن من واجبهم أن يقتضوا حبه بأموال جارية ، ولتموا الهدوء لفترة وهذا بعد وصولهم إلى مدينة الجزائر في شهر سبتمبر ، وفي أثناء ذلك عرف أحمد باشا عن طريق جواسيسه أن هناك عاصفة تتجمع حول

رأسه ، ول 6 نوفمبر 1808 نسل أنراك من قسطنطين إلى مدينة الجزائر ليلا ، وقد حملوا معهم رسائل من أصدقائهم يشكون فيها من أن أحكام الإعدام اليومية تكاثرت في قسطنطين ويذكرون أنهم اجتمعوا ذات يوم وطبقوا من الباى بشكل جماعى أن يذكر لهم السب ، لدى جعله يتحد موقفا كهذا من زملائهم ، فأراهم أمرا كتب أحمد باشا بخط يده ، يطلب منه فيه أن يفتح أكبر عدد ممكن من الأنراك ، لأنه يتوقع قيامهم بثورة ضد

لقد أعصب هذا الأمر الأنراك فقرروا الانتقام منه بسرعة ، ووقع ذلك في شهر رمضان ، الذي لا يلزم فيه الأنراك ، خلافا لما حرت به العادة ، بإبقاء في ثكناتهم مساء وليلا ، وإنما يسمح لهم بالبقاء ليلا في مدينة واتسبة ما وجدوا إلى ذلك ميلا ، وهكذا تمكنوا من نشر الأخبار التي وردت من قسطنطين ليلة 6 و 7 نوفمبر دون تأخير ، واستعملوا الوقت للتشاور في الأمر ولم يتجرأ أحد منهم على لدفاع عن الداي أحمد ، فقرروا قتله وتعيين أول مترشح لمنصب الداي خلفا له وفي صبيحة اليوم التالي كان كل شيء قد أعد لتهدد المأمرة ، وكان أحمد باشا قد عرف ما يجرى حوله ، ولكنه لم يجد مع ذلك وسيلة لإنقاذهم فقد نحى عنه الجميع ، ولم يجرؤ أحد على لأمتثال لأمره ومضى المتأرون إلى قصر الداي ، فلم يجمع الحرس في فتح الباب وترك الداي للمصير الذي ينتصره ، فأرسل إليهم أحد عبيده المسيحيين وعرض عليهم كبوره كلها والسماح لهم سب المدينة إن هم أبفوا على حياته ، ولكنهم لم يقبلوا ذلك وهاجموا القصر ، وصعدوا اسدس ، فمر أحمد باشا إلى السطح ، وراح يمشى من سطح إلى آخر إلى أن أصابته رصاصة أثناء وثوبه موقع في الشارع ، وهناك ملوا به بصورة فطيمة ، فقد قصعوا جسده وعلقوا رأسه فوق عمود أمام باب القصر يراه جميع الناس

لقد كانت قسوته ونفته انمعا في المقربين إليه ، الذين استعملوا يهودهم استغلالا شديدا ، سيما في الصور لعام منه ، ولذلك لم يجد من يتأسف عليه . ولم يتورع حتى عن الاساءة إلى قناصل بعض الدول الأحييه ، فأراهم قسوته وعلمته ، ووضع القبول في أطراف عدد منهم ، فكان عليهم جميعا أن يستعملوا الجمع الوسائل وأكثرها تأثيرا حتى يعيد إليهم بسرعة ما كان لهم من كرامة ومرولة .

علي باشا

(7 نوفمبر 1808 - 4 مارس 1809)

كان هذا الباشا الجديد قد ترك الخدمة العسكرية قبل بضع سنوات ،
واشغل مدرّب في أحد معاهد الخيالة ، وكان لا يزال ينهل هذه النواحيّة ويبحث
في ظروف بعضة عندما قتل لداي أحمد باشا ، وحينئذ انبأهم في العطور على
حرف له ، لأنّ لداي كان قد قضى على جابر الرجل هذا محبب ، ولأنّ من
لهي منه ، ان كان قد بقي فعلا ، كان يحسّ الطمع ان هذه الطريقة المحصورة
وهكذا اقترح حرب ضريب تعينه حلف له ، فجلس على عرش ديوان
تكون له معرفة بأسباب الحكم فلا يوهيه ، وبعد حلولة بأيام قبله قدم شهاب
من الأتراك ، الذين كانوا يعطون له عذبة الحرب الأخيرة بمكسهم من رزقه أي
تخرج من أرباح خيالة ، عريضة إلى حكومته ، طالبوا فيها بأحكام الإعدام
بعد الأتراك في مستشفى من جهة ويبيع عريضة من جهة أخرى ،
وهو جملوا رعيهم في بيت يديته ، وكان لداي ضعيف بأعجز من أن يتعدّ قرار في
هذا شأن ، ويركّز عليه اجترار خياله من حسب ثم لم يتدخل الكبار
فعلا ، وسروحو من ليطعن الأتراك بحيلولة ديوان وقبوع هذه الثورة ، فقد
أصبح له الخصر لداي يهدده حصص ، فاعتبر أنهم سيهدون على الخصر
ضعيف ، وسحق لداي حين عرف موقفه هذا ، فألقى الخصر على عدد كبير
من فادّة حمار ، وأمر بعبدة بعضهم وإرسال بعضهم الآخر إلى الشرق على متن
ساحرة ، وهذه الطريقة من حصص على بعضي

وخرج على باب موصلي لداي انساب من بين وعوضهم برحان من
أنه ، وسحق على كسور ساقه وموان أهله وأصداله وطلق زوجته بفرما إلى
المسيك ، إلا أن عذره وسوء احبسه بوزيرة حيوة الخيل ، لداي كان له أنباء
أيام حكم لداي أحمد ورأى عذدهم بعد توبه منعه الجديد ، كانا ساءا في
سقوطه ، فقد أعففت الأبواب في له مارس ، ودخل المتألمون بقصر ديوان معاومة ،
وكان حيوة الخيل يقدمهم ، وقبض على لداي وحملوه إلى الشارع فحسمه

أخواته وقدموه لرئيس الخلاطين ، من غير أن يصحوا إليه وهو يتوسل إليهم أن
يعيدوه إلى المسجد لممارسة مهنة ، محققه ، نعمة المدينة وعسكروا

الحاج علي باشا

(4 مارس 1809 — 22 مارس 1815)

لم يتفقد هذا الداي ، وكان حوجه حين عهد مائة ، أى منصب كبير في
السنوات الماضية ، وكان يعيش حتى ذلك الحين ، في عربة وكانت نفسه
التجربة في أعماله ، إلا أنه استعاع أن يمرض هذا لبعض بتكاته العظري وسلوكه
الختر مع أميشيا ، وعلى العكس من ذلك لم يعرف منه في عسامة والفسوة في
معاملة المحصر واليهود وتعيد الدين ، يحش ثورهم ، وهناك أقدم في أمثلة
على ذلك .

عثرت دوية أنه السبل على قرب صحر فوق الساسي أمام باب عرون ،
مرأب في ذلك محنة لمقربين ، ونصب الأمر إلى الذي بذلك في الحين ، فبقانون
يجمع وقوف القوارب فوق الساسي ، سب مرار العبد الأمر الداي من غير أن
يسحري حقيقه الأمر ، يحضر جميع العبد الذين يقيمون قرب موقف العارب ،
وصبرهم بالصفة 1200 . صبره ، وهذه لطريقة عاقب 13 برت ، مات تسعة
منهم في اليوم الذي سبعة هذه بوحبه وكان العبد أنوبه فعلا ، بعد نصيح
فيما بعد ، الحقد هو الذي أحضره بحرب ودفعوه إلى الساسي .

وعلى ذات يوم بعض على دعد نكري ، رئيس لمركة لمحاربة بحية ،
بعد فصل بوجاج ، رئيس عدلته يهوديه وصرف داي أيضا ، فصلت العمو
وعرض 25,000 من المال للإبقاء على حياته ، ولكنه لم يقبل ذلك منه ، وأمر
بقطع رأسه أمام بقصر دون أن يعرف أحد سب في ذلك والحرب في الأمر
أن أمواله لم تصادر ، فقد دعي أنوبه إلى القصر لسمم إليه استعجاله فرش التي
وحدث في حورة القبيل وقد لقي زحر بجان نفس القصر دون معرفة سب .
الدهم إلا إن كان الأمر يعود إلى الكيف الذي كان الحاج علي واحدا شعب
سيطره

وسامت العلاقات مع فرنسا مرة أخرى ، فقد ترك القنصل دييوا تانيفيل (Thaoville) بعد أن دفع 22,000 قرش ، وهو المبلغ الذي طلبته المولاة في مقابل 106 عبيد أطلق سراحهم في أيام أحمد باشا ، وأبوابه عنه قائما بالأعمال ، ولكن هذا القنصل استعمل هجة لم ترق للداي فأمره بمغادرة البلاد ، وهكذا بقيت فرنسا دون ممثل لها . وفي هذه الفترة كانت سفن القرصنة الفرنسية قد حملت عمالهم كثيرة إلى وهران ، فأمر الذي يبيعها ووضع ثمنها وهو 150'000 قرش في حريته . وفي الوقت نفسه طلب من فرنسا مبلغا كبيرا تعويض عن حملات حرارية صادرت في مرسيليا بموجب النظام القاري . وأمر كذلك بإحلاء سفن القرصنة الفرنسية في الموانئ الجزائرية من العالم التي تخمسها ، وأعادها بعد ذلك إلى الانحياز .

وفي صيف 1810 قامت ثلاث فرقاصات حرارية معروفة في جبل طارق ، وهاجمت حية مجموعة من اسفن البرتغالية أقوى منها ومستولت على ثلاث سفن عبية بحمولتها ، وعادت بها إلى الجزائر دون أن يشكس البرتغاليون من التعلب عليها ، كما كانت هونهم توحى بذلك . وبعدها بفترة قليلة وصل إلى الجزائر اديعوث البرتغالي لإجراء مفاوضات الصلح وتسليم الأسرى مقابل فدية مقدارها ألف قرش للأسير الواحد . ومثل هذه العمليات من شأنها أن تزيد من كراهة الجزائريين واحتقارهم للأوروبيين .

قتل حصري جزائري في كارطاجيا أثناء مرع خاص ، ووصل خبر مقتله إلى الجزائر ، ولكن الحكومة لم تهتم بذلك لأنها كانت تعتمد الحصري أساسا حيثما وُتراه قد مال حرايه . وكانت قصصه قد نسبت تقريبا عندما وصلت من كارطاجيا معية تحمل على متنها خمسة نساء مقيدتين في السلاسل ، وضعوا تحت تصرف لداي لأنهم كانوا متهمين بقتل الحصري ، فأمر الداي بإرسالهم في الحين إلى اسباب ، إلا أنه طلب من القنصل الإسباني أن يدفع قبل ذلك بضعة آلاف من القروش .

وهر عبد في سفينة إسبانية ، فأمر لداي في الحال باعتقال ملاحين من ملاحي سفينة إسبانية كانت واقعة بجب الجزائر ، واحتفظ بهما في مكان ذلك

المعد ، ولم يطلق سراحهما إلى أن أمر حاكم ماهون بالقاء القبض على المعد الأبق وإعادته إلى الجزائر .

ووقع براغ بين الحاج علي باشا والانجليز بسبب محاولات جزائرية مختلفة ، كانت في طريقها إلى فرنسا ، فاستولى عليها الاسطول الانجليزي ، إلا أن وصول ثلاث مافلات من جبل طارق إلى الجزائر في صيف 1811 ، وكانت تحمل على متها بارودا وأسلحة أخرى ، هدية من الانجليز إلى الداي ، الحاج علي باشا ، قد زاد من روابط الصداقة بين الجزائر وانجلترا ، وهي الصداقة التي شعرت بوطأتها سفن القرصنة العثمانية .

وفي نهاية سنة 1811 امرل الداي ظلمه بالاسبان أيضا إلا أني أود أن أوفر على القاري روايته ورواية ما قام به مرة أخرى ضد فرنسا ، لأن مثل هذه الأعمال كان هدفها دائما الصعيط على العدو بصورة واضحة ، وكانت تنهي ، مثل غيرها مما ذكرت ، في صالح الداي وتريد من صنعه وكبريائه .

ولم يؤثر إعدام سيجدي بكري على نفوذ أسرته ، فقد أتاح لها هذا العود أن توصل أعداءها العدائي أمثال من دوين ومارمر وغيرهما باقوالها إلى حبل المشقة .

وفي نهاية 1811 وجهت حملة بحرية ضد تونس ، وعلى الرغم من أن مجموعة السفن التونسية قد تحست السفن الجزائرية فان الجزائريين تمكنوا من الانسلاء على اكبر سفهم وهي مروحة ناربعين مدعد ، والنوجه بها إلى الجزائر .

وفي شهر جويلية سنة 1812 أعس الداي الحرب على أمريكا الشمالية ، لأنه لم يرض عن الهدايا التي وجهت إليه ورفض أحدها ، فكان على انفصل الأمريكي أن يدفع ما تبقى من الديون الأمريكية ويصادر البلاد .

وفي هذه السنة نفسها وصلت سفينة من القسطنطينية ، تحمل على متها صوفا تركيا لينوسط في عقد الصلح بين الجزائر وتونس والمطالبة باعادة بعض السفن الحربية ، إلا أنه رجح دون أن يعطى بمقابلة الداي

وفي ربيع سنة 1813 أمر باي وهران بقتل جميع الأتراك في حامية كل من وهران ومعسكر وغيرها من مدن المظاطعة ، وذلك يستغل عن الخرائر ، وقت السبب قدم بعد ذلك مرحلة في المظاطعة لتؤكد من وقوف شيوخ المظاطعة إلى جانبه ولم يبق من هذه المرحلة إلا عدد قليل من الأتراك ضروريين مسيئة الخرائر ولم يكد الذي يعود إلى وهران حتى أرسل إليه لداي بحرا عدد من بعض الأتراك وعندها أمره ، الذي كان قد وكل بهم أمر تكوين فرق عسكرية لحمايته ، وسلموه إلى هؤلاء الصباط

وفي أثناء ذلك كان لآغا عمر قد وصل بحبشه المتكون من الأتراك ومكرامنة ، وبعض النقاء القصر على الذي من عزائم التوار بحرب ، فأعيدوا إلى الطاعة بسرعة وبعدئذ انضم عمر من لباي بعدما مهبا ، فقد قتل والده أمام عيبه ، وعنده هو نفسه ، ومثل به ، ولذا توفي بعد أيام من الأثر وأهوان ، قطع رأسه وأرسله إلى خرائر علامة على النصر الذي أحرره عنه ، فعلق فوق عمود وعرض في الشارع وقد حث أفراد أسرته مئة قطيعة ، وكان من بينهم عدد من أثبت مدعي حانوه وسلموه للآغا عمر ومع ذلك يجب أن يذكر أن آغا عمر كان ضمن من قتلهم باي وهران .

وفي شهر يولييه من نفس السنة تم الصلح بين الخرائر والبرتغال بفصل وسطه احتسرا ، ودفع البرتغال 320.000 قرشا في مقابل الصلح و 800.000 ليرش في مقابل اصلاحي سراج 400 عدد ، وحمل القصر فوق ذلك ، عدد استلام مهام مصر ، 1.200.000 يسوس دوروس من باب الهدية .

وفي شهر حويلية جهز الأسطول الجزائري كله ، ويتكون من 14 فرقة وحراقة وسبعة شرعية وسبكا بالاصافة إلى 45 مركبا محمرا باداع ، وخرج غزيرة تونس بقيادة وكيل الخرج ، وفي نفس الوقت توجه الآغا عمر لعصر العرس إلى قسطنطينية بطلب جيشه هاك إلا أنه لم يستطع حمل فرقة العرسان العرب لثي كوبا ، على السير معه ، مما أن يحسم عددا منهم حتى يعبروا مرة أخرى ، ويعودوا إلى أماكن إقامتهم ووصل الأسطول إلى تونس ولكنه لم يقترب من

حمايات ساحل وتمكك بعض السفن التونسية ، التي كانت راسية تحت مدافع ، من قصم نقوارات الخرائطة محملة بالمدافع وعاد الحيتان البري والبحري من غرتر في شهر أكتوبر دون أن يتحققا الهدف من خروجهما ، وبعد حصاره 20 قاريا مدغشقا

وفي 22 مارس 1815 قتل الحاج علي باشا ، وكان قبل ذلك يوم واحد قد هدد أحد عبيده السود بالقتل ، إلا أن هذا العبد سقه إلى ما كان يوى عمله معه . بعد ما كان يدي في اليوم المذكور في الختام ، قتل العبد لئلا يراخ بريد أسر له خوفه من أن أحمي على الداي ، فدخل إليه وقتله ومع أن العبد نزعني ، يظل على عصمه هذا دون أن يوعر إليه يحدث بعض الموططين انكار ، فقد دفع حبه فما عصمه وكان الحاج علي مات قد تجاوز ليس من عمره عندما قتل ، وكان قد انفقوا عليه ، أنفسهم وحرمانته ، سم علي التمر . وفي يوم حكومة الحاج علي باشا كان قد يكون في سبب لأحيوة حردان من الأثر . برعه حردان عبد الله ، ويرغم الآخر الآخر عمر ، لتي من ذكره . وكان كل مهدي رجلا قسيرا ، ولكن الحاج علي سببهم في سيطرة أحد حردان على الآخر . وفي موت حاج علي المدحجي ، م عبد أي مهدي عصمه مسعد سوب حكمه ، وذلك جعله زعيم الأول في الخرجي حيفا المداي على

الحاج مصطفى

هذا هو اسم الخرجي . الذي الخدين ، وهو شيخ محبور في حوالي سبعين من عمره ، هادى الطبع ، دمت الحسن . وم يكن له مؤيد بين الأثر ، وي أنه م يوضع مقاليد الأمور بيده الا لكسب الوقف ، فقد قبل في 7 أبريل ، إذ دخل عمر انقصر عن رأس أتباعه وعصمه وأرسله إلى المكاب الذي بعده فيه حدود ، وأمر بخصه ، وحسن عمر فوق العرش وجعل عبد الله ويرا سحرية .

عمر باشا

(7 أبريل 1815 - 8 سبتمبر 1817)

هو يئلق هذا الداي أى نوع من لتعظيم ، فلم يكن يعرف القراءة ولكتابة ، ومع ذلك فقد رددته الطبيعة بالصعاع التي يجب توفرها في الحاكم ، كان في حوزة أربعين من عمره ، قوى البنية ، موهور الحيرة ، اتسمت أعماله بالعدل والحنن ووصل مبعوث حديد من القسطنطينية إلى الخرائر ، وعقب زيارته أصدق سرح بعيد ليويايين ، إلا أن الصبح مع نوس م يلم في هذه المرة أيضا . وفي شهر يوية خرجت من الخرائر مجموعة قليلة من السفن لطاردة السفن الأمريكية وهولندية هالتفت عرقطة وحرافة ، كانت قد اتجهت إلى الساحل الإسباني ، مجموعة قويه من السفن الأمريكية بقيادة ديكوككورر (Don Juan de Guzmán) وبعث عبد كاكودي عذر (Copo de Gallo) ، وهاجتها في البحر ، فخرجت إليها فوجدت وبعد شتات دم حوالي نصف ساعة مكثت العرقطة لحرارية نعد ، واحصدت الخرافة بالثغر ، فصحب الأسبان وقادوها إلى كارطاجين ، وهي بية يدي حمل بيه (أمريكان عائلهم)

وبعد ذلك مباشرة اتجه قائد السفن الأمريكية إلى الخرائر وراسل الداي بشرود هي يسمى أن يتم الصبح على أساسها ، وخلال اجراء المفاوضات وصلت سفينة من سفن القرمص الخرائرية من عابرة ، وكان على متنها 400 تركي ، فحاصرت سفن الأمريكية عند مدخل الميناء ، فحمل ديت الداي على قبول شروط الصبح فالتعب الأسره التي كانت أمريك تدفعها سبوا حتى ذلك حين ، وكديث أصحت عادة تقديم الهدايا إلى الداي ، وذهبت الخرائر القيمة كخدمة بخدمه أمريكية كانت سفن الخرائرية قد استولت عليها ، وبعد الفائد الأمريكي بأعادة العرقطة دون عدية كما حسب من لاسان لإرجاع الخرافة إلى الخرائر .

وفي شهر أوت 1815 وصلت إلى ميناء الخرائر مجموعة من السفن هولندية بمصد إجراء مفاوضات الصلح ، ثم أخرجت دون أن تحقق الغرض من زيارتها ،

في صيف السنة المذكورة وصلت من الصحراء جيوش من الحراد لا
تخفى ، وأحدثت أضرارا بالغة في أقاليم الجزائر ، فاجتف صوم النهار وعطت
الحقول كلها ، وقصت على الأعشاب والنباتات والأوراق في لحظات محدودة
وبدأ تهوؤ حرب عداية ، وزير البحرية ، الذي كان قد قن ثورة صافيه
عمر على مخصص ، يرداد شدة وحظورة ، ولكن عمر حناط بالأمر قبل وقوعه ،
فأمر ذات صباح باعتقال عيده وجمعه الى سفينة متوجهة الى الشرق ، كانت
رأسية بماء الجزائر ، وأمر كمنبت بأمره أمواله وأغراضه ، وبهذه الطريقة تمخص
من صافيه ومن الثورة التي كانت تهدده

واضطهدت السفينة الحربية الاسبانية فرناندو السابع ، بالساحل الاطريقي
سبب العواصف ، وكانت مرودة بمدة عشرين مدعا ، وانته ملاحيتها ،
وعندهم ماكان الى البحر يبقوا أنفسهم من العرق ، فحبسوا الى الجزائر في
مراكب صغيرة وكان الذي قد بدل كل ما في وسعه لانتقاد البحارة الاسبان ، ولما
وصلوا الجزائر أبعاهم رهائن في مقابل الحرائر الجزائرية التي كانت لا تزال محتجزة
في كارتاجينا .

في سنة 1816 أمر عمر خرف ثلاثة يهود أحياء ، وهذا نوع من العقاب
كان مستعملا قديما ، وبكده لم يعد كذلك منذ مدة وكان دسهم جدا قبيلا ،
أهم أعلوا ، أو محمرا عن إرضاء داسهم . واضاهر أن موتهم كان سيئة مؤامرة قام
بها رئيس أو مقدم اليهود لصحور ناكري ، دنت أنه عصب عنه وطرد من البلاد
بمجرد أن عرفت القضية على حقيقها

وفي فبراير 1816 وصل قصص مرسي الى الجزائر بصفية الأمور بين
الدونين ، فلم له ما أراد بعد أن تلى جميع مطالب الخرائر وقدم هدايا كثيرة
وفي شهر مارس أعدد لاسان الخرافة الجزائرية محتجزة وتسلموا ملاحيا
السفينة فرناندو السابع لدى احتصاصهم رهائن في الجزائر .

ووصل البورد اكسموث في 31 مارس باستول يتكون من سبع عشرة
سفينة شراعية ، لأحراء معارضات لصالح بيادة عن مولي وسرديا فاعلت

الجزائر عن استعدادها لذلك وكان على نابولي أن تدفع مئتين قرش فدية لألف من مواطنيها المقيدين في الجزائر ، و 24,000 ألف قرش إتاوة سنوية بالأصناف إلى الهدايا القسطنطينية والهدايا الأخرى التي تقدم كل سنين . أما سرديها فكان عليها خلافًا لذلك أن تدفع بمئة قرش للشخص الواحد من دعاياها المقيدين في الجزائر ولكنها لم تقوم بتقديم الإتاوات والهدايا

وبعد ذلك اتجه الأسطول إلى تونس وخرابيس ، ولكنه عاد إلى الجزائر في 13 ماي ، وطلب لنورد إكسموث باسم حكومته ودية حكومات لأروبية من الجزائر أن تطلق سراح المقيدين المسيحيين جميعًا دون فدية ولا تستعبد أي أروبي في المستقبل ، بل يسمي أن تعتبر أسير حرب ، وتحدد بمهاجرة مئة الجزائر في حالة رفض مطالبه ، وعدم تنفي من لأي حزب لا يخلو من شراء ، عاد في سعيه وهو يهدد بصرب المدينة ، وفي طريق لحقته الهارب من الشعب ومن وزير البحرية نفسه وتاجر القطن الإنجليزي وصاحبون التجار ، فالتقى لقصص عبيدهم ، وفي خلال نصف ساعة توجه بها رجل إلى حاميات الساحل ووجهوا عائتي مدفع نحو الأسطول الإنجليزي ، ومر يومان تحتكما تهديدات وتجاهلات متوعدة ، وفي اليوم الثالث أرسل لنورد إكسموث معونة إلى الداي ، وأخبره بأنه موافق على اقتراح الديوان لمنعني بترك أمر الدعاء الرق لتقرر الذي يحدده الديوان العالي . وبذلك عادت الأمور إلى مصاب وتعددت أوضاع الصدقات ، وتم تبادل الهدايا بين الطرفين ، وسمح لنورد إكسموث بأنه يسلم مئتين جزائري على مئتين مرقدية إنجليزية إلى القسطنطينية بديار كثيرة ، ورجع لنورد إكسموث بعد ذلك إلى إنجلترا .

وفي شهر يونيو وصلت مجموعة من السفن الهولندية تتكون من أربع فرقعات ، وصنفت عليها الحاميات البار ، فردت بالمثل ، واستمر تبادل براك المدافع نصف ساعة على فترات طويلة ، ولم يصب أحد بجراح ، وعادت السفن الهولندية إلى عرض البحر .

وعرف أساس في الجزائر مع نهاية شهر حويلية أن إنجلترا تستعد لحملة تقوم خلالها بصرب مدينة الجزائر ، فصاعف الداي من جهده في تحصين المدينة

مدافع عنها ، فعين ثلاثة آلاف رجل من الأنوار والحصر للفصل في الحميم ،
وصحبت فرقان من فرق الخيالة البحرية قرب مدينة الجزائر لمهاجمة الانجليز فيما إذا
برلوا إلى البحر ، وتم إصلاح حوالي 40 قارباً لحمل المدافع ومدافع الخاؤون ، وقد
أشرف الادي نفسه وبكل مهارة على عمليات الإصلاح

وفي 5 أوت وصلت طليعة الحصة وتمثل في فرقاطة ، وطالب قائدها
بمحمود القمصن الانجليزي فيها ، ولكن الادي لم يسمح بذلك بل أمر باعتقاله في
مصره وتشديد الحراسة عليه ، وبكى روحته وابته تمكينا من الحرار متكرتين ، اما
هبة الأوربيين فقد ضلوا يتشعرون بحسرتهم إلا أن بعضهم من كانوا يريدون السفر
قد سعوا من الصعود إلى اليانحة .

وفي صبيحة 27 أوت ظهرت عند مدخل مباء الجزائر القوة البحرية
المعدية ، وكانت تتألف من سبعين حطيم ثمانية وعشرة مدافع ، وثلاث سفن
أربعة ومسعى مدفع ، وست فرقاطات انجليزية ، وست فرقاطات هولندية
واثنتي عشرة حراقة وقيارب أخرى صغيرة وأربع مدمرت ، ويصل قارب ، كان
على متنه مبعوث يحمل رسالة إلى الادي ، وطلب منه لأخاذه عليها بعد مضي
ساعة ، وفي أنه لم يبق حيوانا فقد عاد إلى الأسطول ، لذي اقرب قليلا من
مرمى مدافع الحميميات وحولي الساعة الثالثة والنصف بدأ الجزائريون بهلقون
اسير من حامية البرج هربت على دشت سعية أمير بحر كوين شاربوت (Queen
charlotte) والبرقطة ياندر (Jeanille) واتسع ميدان قتال لار تحت شمل الخط
كبه ، وسرعان ما تحديت أكثر من أربعمائة فرقة مدفع ، وتخطت قارب المدافع
الجزائرية بسرعة ودمرت الحاميات البحرية وتركزت ، ولم تصمد سوى الحاميات
لصغر ، التي كان يفودها الادي نفسه ، وفي المساء شتعت اسير في الفرقاطة
الجزائرية الرامية في لجاء بفعل المواد المحرقة التي رمى بها القوارب الانجليزية ، ومنها
أنتقلت اسير إلى سفن الأخرى المتوقفة في الميناء ، فالتفت في الليل أربع
فرقاطات وخمس حراقات وثلاثة قارب صغيرة . وبصر كذلك رورق شرعي
انجليزي ، واصطدم حطام فرقة مشتعلة بسعية ثائرة ، فاشتعلت بها النيران
وانفجرت نحو سعية أمير البحر كوين شاربوت فأرغمتها على سحب

المراسي ، وانحرار بسرعة . وفي حوالي الحادية عشر هبت عاصفة شديدة مصحوبة
بأمطار غزيرة ، انقضت الترساة البحرية والمهارج خرائطة من ألسة البحر ، وهبت
في الوقت نفسه رياح جنوبية ، فتحركت النسخ لأعشيرة ودخلت انبساط ، وبذلك
انتهت المعركة البحرية بعد أن استمرت ثلثي ساعات .

ويذكر لاخير عدد العدائين التي اطلقوها بثلاثين ألف مدببة ، أطلق
أعطب من المدينة ، وقد أحقت بها أصرا باقة بسبب شكنها المرمي ، ولم يكن
بمصاريج كونيومية معمول كبير ، لأن الدور قوية احدرن وليس فيها إلا القليل
من الأمكن التي يمكن أن تنشق بها وتشعل فيها النيران . فكانت أعطب
العدائين ثمر قوي مدببة ، لأن النسخ حفلة كانت قرية جدا من المدينة .

وذكر جورد اكسوت في تقريره أن خرائطين حسروا في هذه المعركة أربعة
آلاف من وخرج ، مع أنه من معروف أن جيشهم م يكن يتجاوز ثلاثة
آلاف . وقد خرج وكيل الخرج ، وقتل ستة مرسا ومائة وثلاثون مركبا ، ومن
الخرج أن عدد اعطى من الخصر م يتجاوز المائة أو الثمتمائة وكانت حقائق
بمن يتدببه حسب الاحبار العامة تسعمائة وأربعة عشر قتيلًا وخرجًا ، وقد
عددت النسخة الخطية Empreapnab oi وحده ، وعلى مشه 110 مدايح ، مائتي
رجل . وعظمت ، وكذبتت لفراصة لماندر (leander) أما النسخ الأخرى فم
تلقفها أصرا بالغة .

وفي صبيحة يوم عشرين وصل لسرة انشابة مبعوث ، وقترح على لداي
الصالح حسب الشروط السابقة ، أي إطلاق سراح لصيد ، والالتزام باسفال الرق
في المستقل ، وهو ما برم نفسه به كل من ناى تونس وليبيا ، وإعادة صلح
375,000 ألف فرش التي دفعها مانوي ومرديبا بسبب أعمال العنف التي
وقعت في عابنة . وأخيرا ضرورة عقد صلح مع هولندا وعدم انضمامها في المستقل
مدفع الاتيوات والمدايح .

وجمع لداي الديوان واقترح عليه إخلاء المدينة من الأموال والعبد وابيلشبا
الركية ونزكها للاخير ، بدى لى يستظفرو الاحتفاظ بها لفصل المواد لمدايح ،

ولكن السهوان رفض هذا الاقتراح ، فاضطر ابداي إلى قبول الشروط المقدمة ، وأرسل في النهاية على رأس وهو ابرع صباط البحرية الحرائرية وأكرهم سمعة ، ومعه القنصل السويدي الذي دعاه لمراقبته ، إلى الأسطول لمعقد الصلح باسمه مع انجلترا وهولاندا .

وفي 21 أوت انطلقت بران امداف معنة عن اعوام الصبح وأرسل العبد الذين كانوا قد أبعدوا عن المدينة قبل المعركة لتسهيل حراستهم ، إلى الأسطول الانجليزي تدريجيا ، وكان عددهم 1147 من بينهم 707 بابوليطايين و 173 روميا ، و 6 نوسكاين و 28 هولاسيا ، و 226 اسايا ، و 7 يونايين . وبعد أيام قليلة أقطع الأسطول الاخيري ، وكان الموردي اكتمت قد وعد قبل ذلك بأن انجلترا لن تتدخل في المستقل في علاقات الحرر بدون لأروية

وتمثلت لضرورة المنحة بعدد في إعادة بناء البحرية ، مما كاد الأسطول الانجليزي يخصي عن الأنظار ، حتى بدأت الأعمال بكل حد وشط في إصلاح الأضرار التي لحقت بالسفن والمعدات فبعد آلاف العمال ، وكان يشرف عليها بصحة مستمرة ، وفي خلال شهرين تم إصلاح بحرية والبرج إصلاحا كاملا ، وقبل نهاية الشتاء أعيدت المدينة إلى ما كانت عليه وأُشِيء أسطول جديد

وأرسل ابداي مبعوثا إلى القسطنطينية ، فعاد بعد فترة وجيزة ونقل إليه مساعدة السلطان الأعظم له ووجهه إلى جديده كما حمل إليه هدية تتكون من هرقاطين وحرافة واشترت الحرائر صف من حرايس وليغوربو وغيرها ، وبنت معها أخرى . ولم يمس أي شيء ولا قصد في شيء ، ولا وقع تردد في بدل كل شيء ، ومع أن ذلك كله قد كلف غيرة الدولة مبالغ كبيرة ، فإن العجز لم يتطرق إلى مبراية الحكومة ولم تلحق إلى الوسائل التعصية .

وفي شهر ديسمبر 1816 تم الصلح مع أمريكا الشمالية بمقد اتدق جديد ، وكان الداي حذرا أيضا في معاملته لإسبانيا ، فقد كان له مطلب عنها فأخبره إلى وقت آخر أنسب . وفي مارس سنة 1817 وقع الذي معاهدة مع فرنسا تعيد له بموجبها ، نظير دفع 42,000 إتاوة سنوية ، الحقوق التجارية السابقة في عبادة والقناة بالإضافة إلى صيد المرجان

وفي شهر يولييه 1817 بدأ العدوون ينشر في الخرائر التي م نزل به مد
عشرين سنة ، وقد فعلت عدوه بواسطة سفينة وصلت من الاسكندرية لي
عبدة

وأمر الداي أسطول ، الذي كان يتكون من سفن كثيرة ، ونكب بيت
كثيرة جدا بالقيام بحملة بحرية في الحارب الآخر من مصيف حب طارقي ، واستول
على عدد من بعائم ، أعيدت إلى أصحاب بعد وصول الأسطول إلى الخرائر
مباشرة . ومن كان المقصود من ذلك إظهار ما في إمكان الأسطول الحراري أن
يفعله !

وكان على موسري حديبا سبيطا ، لا وطيفة له ولا نروه ونكه كان ذا حيوية
وجرأة . فاستال إليه بجموعة كثيرة من الأتراك طور عن طريق انوعود بالوظائف
والنكبات ، وطورا آخر عن طريق الانتقادات الموجهة للحكومة الداي عمر ،
فاعتفوا معه على إسقاطه وإبعاده عن العرض ، وقد حذره وكيل المرح حسن من
المؤامرة التي تدبر له في السماء ، ولكنه لم يحتط للأمر ولم يهتم بالمصير الذي
ينتظره ، لأن الثوراء الآخرين أكدوا له أن لمسانة محض إشاعة كاذبة

وفي يوم 8 سبتمبر 1817 كان الداي قد ذهب إلى حريمه في السماء ،
وكن حاريدرا أيقظه من نومه حوالي منتصف الليل ليحيو بأن الثوار قد اجتمعوا
في نكة كعالي وأنه من المتوقع أن يأتوا إلى القصر بعد ذلك ، فدعا لدهوان إلى
عقد اجتماع وأمر وزير البحرية بإحضار مدعيين ومدافع إلى القصر ، ولكن ذلك
كان بلا جدوى ، فقد وصل الثور قبل أن يتخذ أي إجراء من إجراءات الدفاع ،
ودخلوا القصر ، واعتفوا لداي الذي دافع عن نفسه بسيفه وحملوه في الخيل إلى
الأسطبل وخيموه على أديم حوب عقه

علي باشا

(8 سبتمبر 1817 - 1 ماي 1818)

نصب باشا الحديد دون أدنى مقاومة إلا أنه سرعان ما ظهر ندمه أن

الندى المصروف عمر باشا ، وعلم على باشا بذلك ، فانتقم منهم من غير أن يبحث طولاً فيما إذا كانت الاتهامات لموجهة اليهم صحيحة أو غير صحيحة ولكني بأمر على حياته أمر بأن ينقل محل إقامته من القصر السابق إلى القبة ، أعلى نقطة في المدينة ، في سرية تامة وفي الليل أيضا وكانت القصة على إقامة اباشاوات ، ولكنها لم تستعمل مدة مائة سنة ، واستحدثت مرساة ، تحيط بها الأسوار التي تعلوها مدافع ، تحرس المدينة كلها والطرق المؤدية إليها وحرص على باشا على الريادة في تخصيص لقصة مروحة بجدة مدفع آخر وبالإضافة إلى حرسه التركي كون فرقة قوية من الكرعة والخضر وفرقة أخرى من الأرواح ، وحرص على إقامتها في القصة ، وحرص دائما على أن تكون لفرقة تركية أصعب الفرق في الحيش وفي الحاميات على حد سواء ، حتى لا تستطيع أن تقوم بأية حركة صده وقد أثارته هذه تصرفات محط الأتراك ، وردت من محظهم سلوكه الذي غير بالنسوة والصراخ والصيف وعلموا أنهم على فرق الحيش التي تعود من قسطنطينة ولي كان بعض رجالاته قد أحرقوها في حداث في الجزائر ، فثاروا وقررت اسقاط الندي ، وعقب دبا آخر في مكانه

وفي 30 نوفمبر وصل إلى الجزائر جيش يتكون من 4000 أو 5000 آلاف رجل .

وعلم على (حوجه) بذلك ، فاستعد بالأمر واستقبلهم بمرور المدافع ، التي انطلقت من القبة ومن بعض التوراك ، فاصطدم الثوار إلى التراجع وإقامة معسكرهم بعيدا عن المدينة ، ولكن هذا المعسكر احتفى في اليوم التالي ، لأن القبائل العربية عادت إلى أوطانها بعد فرار الندى الخديف وامتاع الأتراك في المدينة عن فتح الأبواب خلافا لما تم الاتفاق عليه ذلك أن على (حوجه) كان قد أخذ حيثته فأمّر بتجريدتهم من الأسلحة وسحبهم في القلعة واستسلم بعض الأتراك سرا ، وفر آخرون فقتلهم العرب ،

وأطلق الندي عن العدا نكرامته للمبشرين لتركيا ، ولم يعد حاميا على أساس أنه كان أشد يريد أن يتنازل شأفتهم ويجعل من الجزائر عرشا وراثيا . وساعده في هذا الأمر صهره الأخاخ مصطفى ، وهو تاجر حصري طماع جشع ،

ولم يكن من الصعب على الادي أن يحقق مشروعه هذا بعد أن تبدت لول جيش قسعية ، ضد أحد عبد الأتراك في الجزائر يتناقص يوميا عن طريق الإعدام والطرود وغير ذلك . ومعهم من عاد إلى وطنه تلقائيا ويقيم عند الأتراك الذين لقر مصرعهم على يده ، خلال ستة أشهر التي حكم فيها ، بألف وسبعمائة مائة ، يضاف إليهم أولئك الذين ذهبوا ضحية طمعه وحشعه ، فقد أمر بإعدام أعيان الكراوية وأخضر ليعتبر على أموالهم ، ولتحدث قصي على مدينة طقة ، كان بإمكانه أن يوجه بها الأتراك المحافظة على التوازن في حكومتهم وهناك يجب تصرفات أخرى كان لها دورها في شتداد الكراهية به والتمرد به ، فقد أزعج التجار الأعيان والمعلمين من الحضر ، وكذلك من اليهود على حمل الخمر والكلس إلى القسبة والسحرة ، كما أمر بأن يصرّب بالعقبة خمسمائة صبرة كل من بلغ العشرين من عمره ولم يتزوج ، وكان بأحد من اليهود أهداهم ، فزعم أساعهم على اعتناق الإسلام ، ويقام بالحراسة في القسبة ويرسل البسات إلى حريم ، وقد أثارت أفعاله هذه استنقار جميع المسلمين ، لأن دينهم لا يوصى بأعمال من هذا النوع .

وفي أياره استمر الظاهون في القتل بغياء الناس ، ففي شهري أوت وسبتمبر 1817 كان يؤدى بغياء مائتي شخص يوميا من مدينة الجزائر . أما عدد المولى في قسبة وعقابة ووهران فكان مرتفع نسبيا ، وقد فقدت بعض القرى نصف سكانها

وفي نهاية السنة أرسل الادي من قراصته للقيام بعملية في عرض البحر ، فاستولوا لقراصنة على عدد من السفن الأسبانية والحيوية بدعوى أن أوراقها غير صحيحة واعتبروها غيمة

وفي نهاية فبراير أصاب تصاعون على (حوجة) ، وبعد أيام قليلة لقي حتفه في أول مارس سنة 1818 ومع أن على (حوجة) قد يكون أفسى البشوات الذين تعاقبوا على عرش الجزائر ، فهو أول من مات ميتة طبيعية ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه نقل عن إقامته إلى القسبة واصطهد أبليشيا التركية ، لا من طريق إحكام الإعدام فقد ، وإنما عن طريق ساد جميع وظائف إلى عدد كبير

من

الكراخلة والحضر أيضا ، وبسبب سيطر على الأتراك سيطرة تامة وبصورة مستمرة . وقد حدث كذلك لأول مرة في هذا القرن أن الديوان تمكن من ممارسة وظائفه الأساسية باختيار داي جديد ، ووقع اختياره على حوجة الخيل

حسين باشا

(1818 - 1830)

ويدعى الداي الجديد حسين باشا ، وبعد مبايعته ، عزل وزراء علي (حوجة) وطردهم من البلاد ، أما الحاج مصطفى ، صهر علي باشا ، فكان حسين باشا قد وعده بأنه لن يأمر بإعدامه ، ثم غامه معاملة سيئة تحجة إرغامه على الكشف عن أمواله مخروبة ، فكان يصرب بالعنف يوما إلى أن سقط أمدسه في أحد الأيام .

وأعاد حسين أطفال اليهود إلى آبائهم ، وأعاد كذلك قسما من الأموال التي أخذت من الأتراك الذي كانوا قد هربوا إلى المذلق الأخرى ، وفي عهده رجعت الأمور إلى أوضاعها السابقة ، ولكنه فصل القضاء في لقضية ، لأن أسوارها القوية كانت أكثر حماية له من القصر الآخر الواقع في أسفل المدينة .

وكان علي باشا قد عقد الصلح مع تونس وتنازل عن الإتاوة السنوية السابقة . وعندما تولى حسين باشا الحكم وصل مبعوث من تونس ، يحصل هدايا كثيرة ، ولكن بما أن الداي رفض قبول الصلح بالشرط المذكور ، فإن مشوه العلاقة الحسنة بين البلدين لم يدم . وعلى العكس من ذلك وافق الداي حسين على دفع تعويض عن الظلم الذي اقترف أيام حكم علي باشا في حق اعلم اسرديسي ، وذلك حين وصلت في شهر ماي فرقاطتان انجليزيتان للمطالبة بدفع هذا التعويض . وطبت إسبانيا كذلك تعويضات عن الحملات التي أحدثت وهي تحت حماية علمها ، غير أن الداي أرى الأسبان قائمة حساب ، كان على إسبانيا أن تدفعها لشركة باكري التجارية وهكذا بقي المشكل قائما .

وعندما أشيع أن هناك عداوات تجري بين الدول الأوروبية المطمئ حول

مضائه الزائر بالقاء القرصة ، وجه الذي في أوت مبعوثا إلى تلك رغبة منه في حماية هذه لدولة العظيمة له وكسب صداقه

وإذا كان م يتم أى عمل من أعمال القرصة ، ولم توجه أية إهانة إلى مفاهي ، ولم يقع أى حادث من حوادث ابتزاز الأموال بالقوة ، فإن العسل في ذلك يعود إلى طبيعة الذي حسن الوديعه وميله إلى الهدوء والسلام

ورجع في أوت 1819 المبعوث الذي كان قد توجه إلى لندن وكان قد متصل فيها امفلا حيا ، وأخذ إلى لخائر هدايا كثيرة ، وقد نال ما أعربت عنه احدا رعا الذي وديوان ، إلى أن حدث في شهر مسير ما كثر سرور الخريجين بهذا الخراب ، إذ وصلت مجموعة من السفن الانجليزية والفرنسية لسفن في الذي الخراب التي أخذها البول لأرويه العظمى ، وتحتل في وضع حد بحصة جزوية ولاجزاء التي متحدث لتعيد لمثل القرار بعد الضرورة

وقد سدهش الذي تحدث ، لأنه لم يعلم صد أن توب الحكم رأى عمل من شأنه أن حصل على اتحاد قرارات من هذا النوع ، وبعد أن تدير الأمر بصحة أيام وشاور مع الديوان ، أثير قادة الأسطول بقرره وهو أنه من يقدم حونا مكسوبا ، لأن احباء أنفسهم لم يوجهوا إليه شيء مكروب ، وبناء على ذلك فهو لا يعلم ما إذ كان يقدده قد كانوا حقا يعمل تحت قرارات ، ثم إنه لا يستطيع أن يفهم ما فعل إليه حقيقة الموضوع الذي يدور حذيث حونه ، وأنه قد عزم عرما صادقا على معاملة النور حديقه معاملة معاملة ومصلحة كما فعل حتى الآن ، إلا أن الدولة الخرائطه لا يستطيع أن يصر إلى دولة مسيحية ، ليست ها معاهدة مع الخرائطه وس ها فصل بملها ، إلا عل أسس أنها دولة معاهدة وأوضح أيضا أنه لا يستطيع أن يتدارى عن الحقوق القديمة التي تحتل في مرقية جميع السفن لتجارية في اسحر كبعض كانت حبسها ، ومحصن أوراها والاستيلاء عليها في حالة ما إذا كانت أوراها غير صحيحة . وبذلك انتهت المفاوضات وعاد الأسطول إلى عرض البحر .

وفي شهر ماي أمر حسن من لقرصة وعددها خمسة بالخروج في حبه

بحرية ، وعادت في شهر يونيو وجوبلية بثلاث مئة نوسية وعدد من مئة الصيد
انوسكانية . وأصبح سراج الملاحين في البحر

وكانت أعمال السلب التي أمر بها الداي السابق ، وأضرار الضاعون قد
حولت فسمما كبيرا من الأقاليم إلى صحراء كبيرة وقصت على بحركة البحيرة
والرديعية ، فلم تعد محاصيل الحبوب والربون يكفي بسد حاجيات البلاد ،
ووجدت واردات الخيرات من المواد العدلية والألبسة إلى مليون قرش سوريا أما
هندرس الخيرات فكانت تمثل في الصوف والخبث والشمع ومستوحات أخرى
صغيرة ، ولكن أثمانها لم تكن تتجاوز مائتي ألف قرش ، فإدراك أن هذا
المحل الأروبية ما يلقاه فرنسا في مقابل ما بها لتجارة ومراكز هندس
فإن الخيرات قد حسرت حوائج نصف مليون قرش سوريا كان تستعمله من
الخارج .

وكانت حراسة الدولة أهدأ في هذه سنة فقد صوغت أخبار امبيشبات
ووجدت مصارف الدولة في ميون بيسوس دوروس في حين أن المداحيل كانت
في حديد حمصانة ألف بيسوس دوروس ، وكانت تتم على الصورة التالية :

كانت ترسل في ربيع كل سنة فرقة من الخيالة تركية والحصيرة إلى كل
إقليم من أقاليم الخرات ، فيتوزعون في المدن ، وهم يجمعون في مصفحة تجمع
الضرائب ، ومصادرة العشاء والعصاة على الثوار ولم تكن هذه الإجراءات تتم في بين
ورق ، بل كانت مثل هذه المحاللات يتم بسبب وأنها ، وهذه الطريقة كان
الباي يساند حكومة الخرات لكامل ، لأنها حينئذ لم تكن تحتوي أن يتمكن
ماي لمصلحة من تكوين حزب له في ولايته والحد أنه يمارس ضد إعطاء أمثال هذه
الأعمال القاسية الشبهة ، ولأن لداي كان على يقين من أنه سيقسم العالم
معه .

في بداية هذا لقرن بلغت الضرائب التي أخذت من الأقاليم حوالي 350
ألف قرش ، استمرت كذلك في الخربة ، وأصبحت إليها كذلك مداخيل المكوس ،
والإتاوات وهذا المصلح المتقدمة من طرف الدولة الأروبية والضرائب المأخوذة من

الأهالي ، ولكن أحسن مورد بالنسبة للدولة كان حتى سنة 1816 يتمثل في أعمال القرصنة ، وكانت امالغ تختلف باختلاف الظروف .

أما موارد الدي الخاصة فكانت تتكون من الهدايا الكثيرة التي تحصله من كل جهة ومن عمليات شراء الأموال التي كانت تتم على أيدي السايان ولقواد وغيرهم من رجال الدولة ، وكانت الخزانة تعتبر ، بعد أن نشأت الدولة التركية في الجزائر ، شيئا مقدسا ، يجب أن يحكم باستمرار ولا تمتد إليه يد إلا عند الضرورة .

الفصل السابع

موريتس فاغنر

عمر عام طبيعي ورحال أدبي (1813 - 1887) ظهرت مواهبه وهو لم يتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره ، نظم شعرا وكتب مقالات وقصصا وكان إلى ذلك يدي مد طموحه ميلا لمراقبة الحيوانات بالأسنان ، فأشار عليه أخوه رودولف ، الذي كان يعمل منصب استاذ في جامعة رلانغن ، بأن يهتم بمعلوماته في علم الحيوان ويتحقق بوظيفة تقنية في مدينة درسيليا ، مكنته من لقيام برهارة قصيرة للحرث سنة 1835 ، فحسنت هذه البرهارة القصيرة على لعودة إليها عام 1836 كمراقب وجامع للأشياء الطبيعية ، فعمل بها في شهر أكتوبر من السنة المذكورة . وقد حمل معه توصيات من باييس أنأاحت له على الخصوص الاتصال بأديهان بيررحر وتوثيق علاقته به ، كما سمح له دامريجون بالانضمام إلى الفحة العلمية التي كلفت بأعداد بحوث عن خزائر ، فشارك في حملة قسطنطين والليدة ورعاية وبعد توقيع الهدنة بر مدينة ميسكر تحت حماية الأمير عبد القادر . ولما ترك الحرث قام برحلات في بنداك أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية والحيوية ، ثم استقر أخير بمدينة موشن ، حيث أُنشعب عصوا في المجمع العلمي ، وتفرع لمراقبة نظرية دارون في الشجر والارتقاء وساعد على مهمها أكثر من أي عالم آخر باستثناء ريت هكل (1834 - 1919) ، وحرور

هارة دارود الفاء للإصلاح جعل منها النباء للأصغر والأقوى ١ وما تقدمت به
الس وعمر على العمل وضع حدا لحياته ١

وضع موريس فاعمر كتابا عن الخرائط بعنوان «رحلات في ولاية الجزائر في
سنوات 1836 ، 1837 و 1838» ، صدر في مدينة لايبسغ سنة 1841
ويتكون كتابه من ثلاثة أجزاء ، وصف في الأول مدينة الجزائر والمندل الأخرى التي
شاهدها ، ويحدث في الثالث عن تاريخ الأحداث ومعارك التي حصرها ، أما الجزء
الثاني فقد حص به الصورة و التوضيح لمجربيه الخرائطية ، وضع هذا الجزء
مشاركة أخيه رودولف .

بعد تولي في مقدمه كتابه لرحالين الذين سبقوه ، يقول عن كامل
له حج كسافر ولكنه م يجمع كرحله ، هذا يجدد الأسس في رسائله لا يحد
عن مصاعبات السواح أعاديه رد على ذلك أن أقامته في الجزائر كانت قصيرة
حدا ، فهو لم يبق مثلا أكثر من ساعة واحدة في مدينة ميسكر وعاد بسرعة إلى
وهران ، وهو سعد لأن في أمكانه أن يقول للفرع الأخير بأنه قد رار عاصمة
«أمير» ويرى فاعمر أن «سببتموه» أكثر مصحبه به ، ذلك أن مؤلف الأمور
يوكلر - موسكار بدار بذلك ودقة ملاحظته وضراوه مكنته ، ولكنه كرحال
التجارب لم يكن يصلح للاتاقية بين الخرائطين ولا كانت لديه القدرة على فهم
حياته ووضعها كما ينبغي (ص 191)

والحقيقة أن فاعمر مصيب في حد إلى حد بعد ، فكتاب يوكلر -
موسكار «سبيلسو في إفريقيا» لا يحتوي على الكثير مما هو جدير بالاعتبار ،
وتجاربه في الجزائر ليست ذات أهمية من الناحية التاريخية ، فأكثر ما كان يهتم هو
نوع المظهر الطبيعية التي رآها في حوز من الساحل الجزائري ، لاسيما منطقة
ما بين الجزائر وعانة ومن هنا أسهب في وصفها ، أما فيما عدا ذلك فانه
يكتفي بالتعليق على هذه الحادثة أو تلك ، ويمثل بين الحين والآخر الرسائل التي
كان المندوبون الجزائريون يوجهونها إلى الجرال الرسمي بهران أو إلى إوالي العلم
بالجزائر . ومن جملة هذه الرسائل الرسالة التي أرسلها للأمير عبد القادر إلى حاكم

وهران ، وانكر عليه فيها تهديده انه باعلاى الحرب عليه ان هو لم يعمل على تطبيق شروط المعاهدة . وفيها يحذر الأمير الخرجال المعرور ان التدوى لا صحة له عبر الحرب وانه في انتظار مرزقه في أي وقت كان . وحيونه نفسها لجميع يتوقف للحرب والزوال !

وبعد هذا يتحدث بوكسر موسكوف عن قبول الخراجين بكل أنواع السخدي وعدم ارجاء باهون ويقول عنهم ان اسلوبهم في الهامة بعض عرما وقوة وبصوت مثلا على ذلك جوب قهبة كانت تسكن في بواحي دلس على رسالة بعث بها اليها الخراجي لعام . يهددها فيها بسب اعتفائها حدود عرفت منهم قرب الشاطلي وقد جاء في هذا الجواب « ان حاكم الخراجين ندي حكمه أبعاد بما هو في حوزته ، أعلم ان احرار دلس هم أساد أنفسهم ا » ثم يعط بوكسر - موسكوف عن صديقه كسبروات الذي شاهد الأمير قوله « ان الانصاع ندي تركه الأمير في نفسي هو انصاع سياسي أثري حادق ليس أكثر منه انصاع محارب عربي محيف ا » وكان بوكسر - موسكوف قد نشر كتابه سنة 1836 ، ورؤى في اخره الثاني كيف تقدم لبعده لعمرة عبد مشعب مصري يدعي فرعون ، كان قد شارك في حملة اسماعيل ضد الوهابيين ، ثم أرسله اسلاف مع عدد من مصريين الى نابيس ، ومنها ذهب الى خراجين واصبح مترجما لحكم احكام وأساد البعة العربية في إحدى المدارس وسكتب هذا الخبر عن بوكسر - موسكوف لعمرة أهليه ، كما ذكرت ، ولذلك لم أنعرض له على حدة ، ورجع الى قاعر

ويصف قاعر إقامة روريه بانها كانت قصيرة بعض واختصرت على الخراجين وابييدة واندية وهران ، فيما اهتم بلبس يوصف الخراجين ولم يتجاوزها الى مواها ، ويشي على شيمر ويتأسف لأن وصفه انصاع أيضا على الخراجين وصواحيها . وبعده من الخديبر بها أن يذكر هنا ان قاعر قد أهدى كتابه بل وب العهد الفرنسي ، وحدث ما قد يحصل القديء على الاعتقاد بان المؤلف يتعصب لعمسا ، ولكن احد العسكريين الألمان وهو كارل ديكر ، يدافع عنه بأن موضوعه انقراة لا تبث أن نفسه بخلاف ذلك . ويعتبر أحسن كتاب المائل وضع عن الخراجين حتى سنة صدور كتابه هو سنة 1844 . والواقع أن كتاب قاعر لا يخلو

من النقص ، فقد صعد عارته بصيغة عربيتين الدين كانت له بهم علاقة
وعقيدة ، فتمت عن حقه على حراريين ووصفهم بالهشجة في عو ما موصع ،
على لرعم من أنه رار مناطق عربية مستقلة وساعده رجال الأمير على أداء
مهمته ، وعلى الخصوص حاكم مصكر الخاخ بخاري وكان قد أخذ رسالتين
حداهما من الحرال ذلي والأخرى من بليبي ، مدير المكتب العربي ، ذكرنا فيها
أنه طيب برعب في البحث عن الثبات الطبية في منطقة وهران الداحية ،
ولكنه لا يعترف بأن هذه الخليل لم تعد تعيد ، فاعرب يروب في كل أرولي
حاسوسا عرب ، بعد أن سافر كثير منهم تحت هذا لستار لاستكشاف منطقة
الأمير ووضع خريطة عاب وممع هذا فهو يأخذ عن الحراريين أنهم لا يتقنون في
أحد ومن ثم فإن على كل إنسان أن يكون حذر منهم الحذر كله ، ويصف
مراقبه وصفا مرهبا . وشعر بالخوف من أحدهم وهو يؤدي فريضة الصلاة
وعد لا يعني أنه من جهة أخرى راض عن كل ما قام به المعتدون ، كما جرى
فيما بعد .

وبعد مؤلف كتابه يوصف مياه الحرار والخليث عن بصيغة التي
حصلت قبل سنة ثلاثين سفينة فانتلات شبه الطيرة ، على حد تعبيره ،
بالصائع والانتصا ويذكر أن وصول السفن إلى مياه الحرار يعثر عليها بأسنة
لأهل البلاد ، فهم يكسبون في اليوم الواحد ما يكفيهم لعدة أيام ، وذلك لأن ما
بين إنسان وبينهم من عداوة وتنافر قد احترهم عن أن يتقاسموا العمل معهم
ويشتعلوا يوما دون آخر وكانت الماحرة لا تصل إلى الحرار إلا مرة في الأسبوع ،
ويتكون العمال الحراريون من لعرب والبروج والسكريين ، وقد دأب الألمان على
أخذتهم عن لأحيين بصورة خاصة ومن ثم يشير المؤلف إلى أن الثياب المرونة
ليست دائما ثياب لسراويل ، كما أن الصمام القليل ليس دليلا على الفقر والعمور
هناك من السكريين من يحمل تحت ثيابه خمسين دولارا أسبانيا ويشد عليها كما
يشد على أسنانه ، ومع هذا فإن رولع المطاعم الفرنسية الطبية لا تثير شهية بأي
حد من الأحوال ، وإنما يكتفي بأخير الفريديء ، بأنه مع النور أو النماح ، ويشرب
طعامه في فاعة لكنه تحت التجزم الحمية ، وهي في نوقت يصفه بهوه وغرفة
برمه 1 (30/1 - 32) .

ويصف الأبناء التي كانت تعرض في السوق مساحة الحكومة ويهول ان
هناك من الميعات ما هو مقصور على النقص دون الآخر ، ولأسان يهول
انورود والأرهار وأما الطيور الاسماك والخضر والبرغال وأحرب الطيور والحيوانات
لينة ، وكانت الأرقام مكتوبة بالمرحبة ، وكان اسطى بها أقرب الى الاساية منه الى
الإيضائية ، وتحدث عن حيوانات عربية شاهدها باع في السوق . (34/1 -
35) ويذكر بعد ذلك أن كلمة «اعرنتر» تعني «العارة» وهذا الاسم يوحى
«بسطوة والقوة» ونحن نسأل المرء أهل بلاد لمدا دعيت الحرار بالعارة ، يقول
«لأنها اقتصفت لمسيحيين» (ص 36) . وبعد سكانها عند منتصف سنة
1839 ب 28 لما باستثناء الجيش الفرنسي ، 9 آلاف من الخضر و 6 آلاف
من اليهود و 5 آلاف من «أحسان مختلفة من على البلاد» و 8 آلاف من
الأروبيين ، وبكنا يعرف بان هذه الأحصاءات ليست دقيقة ! فعند الأروبيين غير
معروف . لأن الكثير منهم لم يسجل اسمه خوفا من السجيد . وكان
الرحالة الخدمي . مثال شو ، داسي وشابر ، قد قدروا سكانها عند مربع ،
محطتهم شو 100 ب وباسي 60 لما ، وكانت هذه التقديرات اعتباطية ،
والحكومة العثمانية ، يمكنها أي نوع من التسجيلات ، ويقتدر عدد المهاجرين
الخوارج نحو 15 ألفا ، وحل محلهم حواري نصف هذا العدد من الأروبيين
(37/1)

وبعد أن يتحدث عن الجيش العربي والأروبي ويصف شوارعها وأبنيتها
يذكر الساحة التي تكتفي المدرسة والمكتبة ، ويذكر هذه أدراك يبرز بحر ، وفي
المدرسة يتعلم الكثير من أبناء الأمم المختلفة العربية والفرنسية أما المكتبة
تحتوي على حوالي 600 كتاب ، منها كتاب معروف عن مصر ومخطوطات
عربية أخرى قيمة متولى عليها الفرنسيون في دار اس عيسى نفسطية وفي
مساحد أخرى من ابدية بعضها (ص 47/1 - 48)

ويؤكد فاعمر ما ذكره شيعر من أن الحكومة الفرنسية قد هدمت الكثير
من المساحد اما لتوسيع الشوارع أو لإقامة بنايات حديثة في محلها ، وقد لقي
المسجد ، الذي كان قدما يحتل مكان السوق الآن ، نفس المصير ، وفُتِلت

اعلمته لمرمرة الى أماكن أخرى ، وقد كان هذا المسجد آخر جامع بالحرارة
وهناك مساجد أخرى ضللت وظلعت القديمة ، فأصبح مسجد صرحا وآخر محزوا
لثنتين وثلاث نكبة . ويتفق داعم على هذا بقوله « وهكذا اعتدت فرنسا على
حرمات المسلمين ، وحدث ما لم يعمده لها الحراريون ومن يسوء أبدا » (ص
48 - 49) ويشير كذلك الى أن عدد المدارس قبل دخول الفرنسيين كان
مرتفعاً ، فقد بلغ حوالي 100 مدرسة ، لم يبق منها اليوم سوى النصف تقريباً ،
يذكر مود المدرسة ويصف علاقة الأستاذ بطلانه واتفق التي تسود هذه العلاقة
ونفادها حتى بعد نهاء الطاب من دراسته (56/3)

ويقل المؤلف في الحديث عن المحكمة العليا ، ويذكر أنها كانت تتألف
من خمسة قضاة ، من سهم يهودي وسهم ، ثم صار عليهم لا يتجاوز اثنين
بصاف التبع رئيس له صوت واحد ، وكان القاضي هو الذي يفصل بين
الأهالي ، وكانت القرارات تصدر حياً حتى ساعة متأخرة من الليل . ويؤكد
نحو من مهارت - كعضواً في الترحمة ! (58/1) أن المحكمة العسكرية
هكبت نفع حرب - بعبور ، وكانت تجميع باستمرار لتطرق في الحرائم التي
يرتكب جنود الجيش الأمريكي ، ونسجل في بيع لأسلحة ودخيرة وأحكام
الأعدام ثم نكس عليه ، وحصول في أيام روميو ، حيث كان الأعدام بعد في
كل أسبوع . ويتعرض لقصصه موبصل التي تدرت ههنا الرأي العام في ذلك
الحين ، وتتبع الحراريون أخبار المحكمة برئاسة الأكرسي شامبورغ بصاية خاصة ،
لأن موبصل كان مسلماً منهم . وكان قد مر من الجيش الفرنسي بعد اهتداء الحقها
به رئيسه ، وانهم ان يحفظين وتروج سهم وأصبح شبح دوار ، وقد أعجب
الأمير عيد تندر مشاعته ومعه معه ، حتى أنه وجهه رسولا ان سعاد
لمغرب . (60/1)

وبعد أن تمكن موبصل من الانتقام من الضابط الذي أهانه وركله ، أُلقي
عليه القبض في سوق الأربعاء بمصفاة سيدي موسى ، وذلك بواسطة أحد ضباط
الكتيب العربي . وقد مثل أمام المحكمة في ثياب عربية ، فكان كما يقول « غير
أنه بالمرايط مع بالمحرم وعندما تكلم صحر اخنود بالعاصم المحرمه صدم

بالعموم ، ولكن نقاصي لم يستحب لهذا المطلب ، فحكم عليه بالاعدام وأعدم أمام مدخل باب الواد . فأنقست قبيلة ححوط بأن تنأز له ، وقد رمت بذلك ، جميع الأعمال الحرة والمداوشات التي كانت دون توقيع معاهدة قاهرة وتحدثت منذ نهاية سنة 1937 إنما كانت انضماما لموصل ، فلم يعرفوا ذلك بل جرائل دمرهمون كما لم يعرفوا بروفيتور قتل العربي من موسى (61/1 - 62) وبعد هذا يتحدث دعر عن محكمة النقاصي المكي ونقاصي الحمي قرب باب الواد ويذكر أن منصب النقاصي كان يشغله في سني 37 - 1838 سيدي أحمد بن جملو (63/1) .

وأسواق الخزاز ، في نظر المؤلف ، لا تنبئ لا أسواق بغداد ولا أسواق مدينة القسطنطينية ، فقد قضى الفرنسيون على لأسواق الحمبية وأقاموا مكانها دكاكين ومحدون أوروبية أما محلات العرب فهي صغيرة جدا ، وأعجب أصحابها من السكراعة ، وتباع فيها أسبع ومحافظ لقود وغير ذلك . وتشكون المصانع على الأكثر من العطور مثل الزود وايسنجن ومصوغات الخريبة ، وهي حمينة إلى حد بعيد على الرغم من أنها مصنوعة يدويا (67/1) وتناثر المفاهي بين هذه المحلات ، حيث يوجد بها في الخي العربي وحده حوالي 60 مقهى ، يتعلم الأجسي فيها مختلف مصطلحات الخزازية وأحسن مقهى عربي ، يكثر فيه الزواد ، يضع في شارع الديور ، ويربزه عدد كثير من كرسيين الخودة القهوية وه ولوجود الموسيقى ويدير المرحه عربي ، كان في القديم موسيقار السدي الخاص ، ويختار بالمهارة في التعرف والقيام في أنه ، ذلك بحركات عربية حد تحلب أنظار ساس به ، وفي بعض الأحيان يظهر في نفس المقهى قبات ليرقص ويهجن

وصاحب المقهى هو أخو إبراهيم شاوش ، أو حلال الخزاز ، وله ثروة كبيرة . أما المفاهي في القسم الأعلى من المدينة فإن تشهد بها أكثر إحصاءة وحسوبا ، ففيه يوجد أمقهى لرواني وصاحبه ذو عقلية كثيرة على احداث الساس اليه بأرخص الوسائل فكانت تجتمع في مقهاه ثلاث البشر من كل جنس من غير تمييز عصبيا كان أو دينيا ، فكان هههم المسلم والمسيحي واليهودي والأروني والأفريقي . وفي هذا المقهى تحتفظ أصوات السكرارى رجالا وساء ناصوات الآلات الموسيقية بشكل عرب 1 (71/1 - 72)

ويشير فاعر إلى أن هناك حملات خاصة تقام في أوقات معينة ، فهي أيام رمضان مثلاً تقام حملات الفرقور ، يحصرها العرب والأوروبيون على حد سواء والفرقور شخصية بدوية تمارس تكبير الحجم والسكنة اللادعة واهيأة المصحكة وتمثل وظيفة الفرقور في شيء واحد هو أن يصدر الحدود العريسيين من بدية المسرحية حتى هابت . وكان صاحب المسرح أحد المترجمين ، ولدت كان يخلط العربية بالعربية بصورة عربية بقصد تسمية المتشاهدين من الأوروبيين . وكان وجود الحدود العريسيين في مسرح الفرقور هذا العرض أيضاً ، حسب ما يراه المؤلف ، ولكن الواقع كان خلاف ذلك ، فمصارعة الفرقور لحدود العريسيين كانت تمثل في الحقيقة مقاومة لأزياف لوجود الأجنبي ، ويكفي دليلاً على هذا أن الحكومة الاستعمارية حدثت في سنة 1843 إلى مع إقامة حملات من هذا النوع ، لا عرص بها سوى الاستهزاء بها وإسحقها من حدودها . ولعل من بين أعراضها أيضاً ما ذكره المؤلف (80/1) من أن العرب كانوا يحرصون على إرسال بناتهم إلى مشاهدة مسرحيات الفرقور .

ويصف فاعر شيئاً عربياً أعدم باب عزون في 20 يناير 1837 ، وقد جمعت ساحة الأعدم في مكان المذكور بقصد إثارة لرعب في نفوس المواطنين اندس كانوا يجمعون في السوق . وكان قد وجهت إليه مهمة التحذرة بالبارود والثورة ضد الحكومة فتقدم الشاب ، وكان قد نروح حديثاً ، أن المفصلة ، متصب الغامة ، مرفوع الرأس ، لم يكن في حذاء ما يدل على أنه خائف ، وانقى نظرة متحدية على الشاوش ابراهيم . ولما انتهى الترحمان من قراءة الحكم الصادر فيه ، أقسم الشاب أنه يرى ، ثم توجه إلى القفلة وأحس رأسه ، وصعد بعد ذلك بخطى ثابتة . صعود البشا سعلوس على العرش الذي أعد له . وتم أعدائه بثلاث ضربات حسب الطريقة الجزائرية ، وكان الفرنسيون قد احتفظوا بها (92/1 — 93)

ويرى فاعر أن ديانة العريسيين نجحت بوضوح في فتح القور والأصربة الجميلة بحثاً عن الأموال ونقل حجارتها إلى أمكنة أخرى ، وأضعف من هذا

المرسوم أحدا عظام الموتى وحملوها بالسفر الى فرنسا ليحيا لمعامل صحافي
 العظام ، ومسؤولة هذه الاعمال البعوضة تقع على عاتق رومقو ، فقد دفعه حفضه
 على المسلمين الى جرح مشاعرهم السيئة ، حتى أنه استعمل لهذا الغرض عددا
 من الجزائريين من قبائل وسكريين ، وأرغمهم على فتح القبور وتعطيم حوائطهم في
 نيس ، وفيهم الأب والاح والقريب . وبما أن عمليات الاعداد كانت تتم يوميا
 تقريبا ، فإن الخوف كان قد تمكن منهم وشل أيديهم وألسنتهم ، فلم يتعدوا الحرأة
 على الاحتجاج على هدم قبور أوليائهم ودويهم ، وهكذا شهدوا هذه المناظر برؤوس
 مطرقة ووجوه عابسة ، إلا أن هذا كله لم يمنع البعض منهم من جمع تلك العظام
 بعناية ودهنها في مكان آخر . وقد تحدث عن ذلك كل من الجزائريين والمرسومين
 بصورة علنية ، وإن حاولت الجهات المسئولة تكذيب ذلك ! ويضيف قاصر أن
 جمع من كتبوا عن الجزائر قد حنقوا على هذه الأعدال الوحشية التي شملت
 حتى قذاسة الأضرحة ، مما أدى الى حدوث استياء عام بين الأوساط الخاصة ،
 لأن انعدام حرية الصحافة في فرنسا قد حل دون وصول مثل هذه الجرائم الى
 آذان الشعب هناك (96/1 - 97)

وبعد هذا يشي المؤلف على عزة العربي وأفعته واحفظه بقامته المنصبة
 حتى في أخرج الظروف ! ويصرب لثقل على ذلك بالجزائريين نيس ثم أسرهم
 قرب البلدة في شهر ماي 1837 ، عندما مروا أمام الخيال دامرهم كانوا
 مرفوعي الرأس ، وأصحبى النظرة ، وكانوا يجوبون على مسئلة في أفعه وكهياء ثم
 يقول ان مفهوم الحرية عند الجزائريين لا يصل الى الحد الذي تصبح فيه العوصى
 عملا مباحا والحرمة شيئا لا يتطلب انعقاب . فالقبائل لم تكن تشتت حول الأمر
 عبد القادر لو أنه لم يعض على العوصى التي عمت الجزائر بعد سقوط الحكم
 التركي . فحين احتل المرسومون الجزائر لم يكن بينهم ما كان يحدث في داخل
 البلاد ، وقد حملت فرحة الخلاص من يبر الانراك العرب على ارتكاب عدة أعمال
 كريمة ، ولما تكررت هذه الأحداث من الخائين ، وأصبحوا مرة سراقا وأخرى
 مسروقين ، ضجروا من هذه الأوضاع ولجأوا الى رؤسائهم لاعادة أسورهم الى
 محارب الطبيعة ، وعلى هذه الصورة انتشرت رقعة سيادة الأمر عبد القادر وتمت له
 الغلبة ! (25/1 ، 41/2)

وفي هذا حديث مؤلف عن الأحداث العسكرية في العرب الحراري ،
ويبدو أنه قد استقى أعضائها من حروبات بيلسي ، وقد كان صديقه الذي حملته
رسالة إلى رحيل الأمير كما سبق القول . ويذكر الحروب ويدمار الدين يخفها
جود مرسا بمختلف ماضى الحرائر ، ويشجع بأعمال هؤلاء الجود في قافلة حيث
حطمتوا جدرانها الدائمة واتحوا المقاهي وبنكا كين ، ويتعجب كيف استطاع هذا
الشعب العربي أن يتعدى على قذرة الآثار القديمة على لرعم من دوران كلمة
المدينة على صه ، ويورد ما وصف به شاعر لماي لمرسيين من اهم فبدال !
ويقول ان هذه الحرب هي حرب ضد الاحياء والاموات ، وسحرية من تراب
الاحداد بقدر ما هي سحرية من اعدا وتاريخ وتعليم ، فقد حطم الجود أعمدة
المعد المرصيه هرد بها كانت تقوم وسط الطريق المؤدي إلى الخمارة ، وبرعوا عنها
ما كان فوقها من نقوش ، لأن الحجارة الملاء امس لبلاط ! ويعلى عصبه على
تدمير الوثائق الوحيدة التي تتحدث عن ماضي عامة ... والشهود الدفقة بمحده
وحصارها . ويثور فاعمر على قطع لاشجار أيضا ، فان دنت في بظرة ، بمدة قل
المرصعة ، فهي تحمل في اعمامها ما يسد به تدمر ، لأحق رمة في المستقبل !
(95/1) .

ويلع اعصب بالمؤلف مبعا كيرا ، جمعه يمتى لو أن انصباغ ، ويحبها
حارة الآثار لعديده ، تطلعت من مقامها الحنين لفرق الدحلاء على حرمها
أشلاء ، وينباهن عادا لا يهد الخل ابرسج مرة اخرى ويقضي على الطعنة ، كما
حدث في وقت سابق ! ويرى المؤلف بعد هذا أن تشبه الجود وأصحاب
الخمارات لمرسيين بالعدال غير مناسب ، لأنه لم يسبق لا لعدال ولا للشرقيين
أن تعرضوا للآثار القديمة بالسحر والهدم . احترامهم لهم لبقية لذيذات
الأخرى ! وقد اصططحت فاعمر معه أدريان بيرجر وذهب يشكو أن قائد الجيش
العربي دوجي ، ولكن لقائد لم يرد ، على حد تعبير فاعمر ، على أن مسح لميت
بيده ، وراح يشكو بدوره من رغبة الجود في الهدم وعدم طاعتهم وأنه لا يرى حلا
لهذه المشكلة .. ثم احد يدافع عن الجود وعن الانابة التي عرستها في عروشهم
صعوبة الحياة في الحرائر وظروف الحرب ! ويعتق فاعمر على موقف دوجي هذا

بأنه ينتظر من وراء ذلك أن يال ترقية في وزارة البحرية ! (1 / 298)

ويتناول المؤلف في حوالي 80 صفحة (3 / 261 - 338) حملة قسطنطينية التي شارك فيها بنفسه ضمن أعضاء البعثة العلمية ، ويصفها بصورة مفصلة ، وكان قد نشر هذا الوصف في إحدى الجرائد الألمانية سنة 1837 ، ويقول أنه كتب نسفا منه في الخيمة ، فحدث عن معسكر بحار عطار والقوات العربية التي كانت موجودة فيه ، ويصف الشخصيات العسكرية المندمجة ومن انضم إلى جيش العثماني مثل ابن ركري والحاج سليم ، وتمرور القوات برأس البقية ثم الوصول إلى قسطنطينية وحرب المعسكر في الصورة واطلاق برار المدافع على المدينة وشناتكات الخيالة التي سقطت وبها من صدمت عبيد من جهة بكية . كما يشير إلى رغبة النساء التي كانت تنص من فوق سورج وبعد أن مكث مدافع الخراطيش على دامرهم به مبحرهم به صبح صبح ، وكذا ، فيما يقول داعم ، شعر بالخيبة حين لم يظهر ربي من تحت ذلك ، فاختارهم لم يكونوا على استعداد لتسليم ولو هدمت مدينة كنها ، ويذكر أن رسولا أرسل يوم 12 أكتوبر 1837 إلى مدينة ، وهو من جهة برودو ، فقص عليه السكان في أنه صلاؤا الثمرة لسي أحداثها المصايل في حذر ، ثم صنفوا مزاجه على عرسه

«إن في قسطنطينية كثيرا من مؤن وندحتر ، وقد كان الفرنسيون في حاجة إلى شيء منها فإن في مستعدتنا أن يروهم في برودو » ثم الاستسلام كان لا يعرف معاه ومنصمدا في اندفاع عن مدي ودور ، من سمعت في أيديكم ما دام مدافع حيا يروق !» وبعد أن سمع دسيفون هذا جواب من «أب وحنال شجعان فلكي دلت أن ! أن المعركة سيكون باسمه - أحمد ! (3 / 309) »

وقد كانت المعركة بالأسفة إليه على لأهل كما هو ، إذا احصاه وصاحبة فائتة ، فاسرع إليه يرفق صفى نفس النصير ، وقد تم للحمود الفرنسيين الوصول إلى الثمرة والدخول بها فقط يت فوق رؤوسهم عمل كثيرا منهم وعقب ذلك اسحر عمن للدخيرة صفى على عدد آخر ، وحين تقدمت فرق ثانية بقيادة كوسب أصيب هو الآخر ونفي مصرعه بعد أيام ، وذلك لأن المدافعين كانوا قد

تجمعوا خلف مناريس تكونت بعضها من الخشب والأبناقص وأراحوا يتصللون
أبهاجرين من كل اتجاه ، وأحيا وحدوا أنفسهم معبرين على أمرهم فاستبحوا إلى
بيت ابن عيسى ، ومن هناك وصلوا مقاومتهم ثم فر بعضهم إلى الجبال ومات
البعض الآخر وأسفحتهم في أيديهم . ومن بينهم وصيفة كان يأخذى يديها
مسدس وبالأحرى سكين ! (316/3 — 18)

ويذكر فاعتر أنه التقى عبد الشرة بالنقيب لوبيان فسأله : « كيف دافع
انقسطيون عن أنفسهم ؟ » فأجاب : « كالشياطين لحما ودما ! » (320/2) ثم
يقدم وصف لشوارع وما تراكم فوقها من قتل وكيف جمع الموت بين الفرنسي
والجزائري فعاقبا بعد أن قتل أحدهما الآخر . وما يأخذ على فاعتر أنه لم يعب
حتى الموت من سحرته ولم يستمع أن يسي عصبته الأروية أمام الأجسام
الهامة ، بحيث يبدو أن أسابته مقصورة على الآثار القديمة والأخرجة المعاصرة
وعظام الموتى ! فاحود الفرنسيون الموتى كانوا يبدون له كأنائحين وقد ارتسم على
وجوههم هدوء بطوي ، وهذا في الوقت الذي يرى فيه وجوه جيش الجزائريين
المنطحة بالدم قد تعلقت عضلاتها إلى أبعد حد ، ويتصور أن العصبية تنسم
في ملامح شيخ أبيض الملح ونحل لذة الانتصار مكانها ، وكان قد لمح هذا
الشبح جالبا في رواية أحد البيوت ، وقد رفع إحدى يديه نحو السماء وشد
بالأحرى على مسدس وضعه فيه وقعه ، مما جعله يظن أنه يستغيث بأحد ، ولكنه
عندما وصل إليه وحده حنة هامة ! وكان مطر تلت الجثث يوحى لفاعر
بالخوف من أن قد تتحرك في منتصف الليل لتواصل المعركة من جديد !
(321/3)

ويقول فاعتر أن المدينة قد سبت لمدة ثلاثة أيام متتالية ، وعرضت لبيع
صائم مخنقة من رربي وبراس وأسلحة ومواد عدائية وكتب عربية وغيرها
(322/3) ، وقد ناز اليهود ، الذين كانوا يقتلون أيدي العزة ويساعدونهم على
الهرب بأحسن المايم ، ودلت بحكم معرفتهم بحالات المسلمين وما تخوي عليه من
مخائس ونمف . (326/3) وقد حدث هذا بعد أن هرب الكثير من المواطنين إلى
وادي الرمل ، رلوا إليه يحمل رطلوها بالصخور ، ولكن الجبال تقطعت بهم من

كثيرة من نعلن بها منهم ، فوصلوا الى اعماقه موتى أو بأعضاء مكسرة ، وأننى
 هناك ما يزيد عن خمسمائة شخص . (327/3) كانت طبقات الباق
 تلاحقهم أينما اتجهوا في علمهم ذلك ، بقيت حنتهم نصف معلقة فوق بواب
 الصحور . وفوق نافذة بها جلست امرأة كسرت رجلها وبخصها حبل في الرابعة
 من عمره ، لم يصب بأي أدى ، فحاول كل من فاعر وصديقه موارث بوصول
 إليها ومساعدتها ، ولكن دون حظوى لصعوبة لروى لى تلك الساتة . وبشي فاعر
 على صديقه الذي يدل كل ما في وسعه لانقاذ المسكينة وحفظها ، حب وضع
 مكافأة مالية للحمود المرسين الذين يسكنون من انقادها ، فاجتمع ليه في
 الخيل كثير منهم ، واستطاع روائي أن يصل الى ذلك الموضع الخطير غير أن المرأة
 رفضت أن تسلم أية مساعدة من المسيحيين ، واعربت عن رعتها في ان تموت
 هناك هي وطفلها ، وأكملت بطلب حرة اداء ! ولما أرتب إليها عمل ، سقب
 طعنها ثم شربت هي ، ودحرجت الحرة الى أعماق الوادي ! ويصيف المؤلف أنه
 لا يعرف ماذا حدث للمرأة بعد ذلك ، فملعا عاد الى نفس المكان في اليوم
 الثاني وجدها قد اجتمعت مع صنفها (328/3) وبعد هذا يصف فاعر حريم
 ناي قسطنطينة والخدمة الراقصة التي قدمت للعرافة الخيلة عائشة ، على حد وصفة
 لها ، والأسود المفيدة وحارسها الأدبي هديس شومصر . ثم يذكر الأشياء التي عثر
 عليها في دار ابن عيسى روائي فأصبح نراها وطلب اعطاه من الخدمة ، وتزوج
 وأقام في فلسطين (330/3) وفي هذه الدار التقى فاعر بأفراد البعثة العلمية
 وكان بيروجر في ذلك الخيل يحاول شراء ما وحده عبد الحمود من مخطوطات
 نفيسة ، من بينها «كتاب انقصاة» و «تاريخ مدينة قسطنطينة» ويقول فاعر ان
 أغلب هذه الكتب قد ضاعت في الطريق الى عمان ، لأن الحمود لم يكونو يعرفون
 قيمتها ، ولذلك تركوا على الطريق عدة صناديق ! ويرى المؤلف أن من واجبه أن
 يفتحص على السلب والهلب التي تعرضت له بكتب العربية ، مهما كانت الأعداد
 التي برز بها المرميون أعمالهم ، فقد ذكره دنت بفترة حرب غير بعيدة لآف منها
 حصص كتب شيلر على يد المرميين أنفسهم نفس المصير ! فانكب في الحرائر
 قليلة جدا ، كما يقول ، ولذلك فهي نفيسة بالنسبة لسكان .

وبدرا ما تحسب الأسرة العربية أكثر من كتاب واحد . ويعتقد أن الأربعة أوجه
 الخمسة كتاب ، التي أرسلت إلى مكتبة المراتر خربها في قاعاتها لمعية ، كان
 المعروض فيها هذا السبب أن تبقى في أيدي أصحابها ، أما وقد حدث خلاف
 حدث فإن هناك كثير من الأسر العربية قد حرمت من العلم ومنعة لقراءة
 (331/3) !

وبالأصابع إلى هذه الخدائق التي ذكرها دهر ، وإن لم تكن مقصودة
 بدائها ، فقد أورد في نهاية الجزء الثالث من كتابه ترجمة مختصرة لكل من الأمير
 عبد القادر وأحمد دي ، ومرحات بن سعيد ، وبوعزيز بن قانة ، ومصطفى بن
 اسماعيل ، ومحمد بن عيسى مركاني وأبلود بن عراش . وأطوب ترجمة هي ترجمة
 الأمير .

المجلد الخامس

الوجه الآخر لمقابلة قافة

قصة المقابلة تاريخية التي حوت بين حرب وياحو والأمير عبد القادر ،
بطلب من الأول وإلحاح من حبيب ، معروفة لدى الباحثين في تاريخ الجزائر ،
الحديثة غير أن معرفتهم بها تكاد تكون ، فيما نعتقد ، على مصادر قريبة حته
وهذه المصادر تحولت أحيانا ، هذا - م - من في أغلب الأحيان ، إلى فصل من
شأن المقاومة الوطنية وأن بطر - أنصطا نظرة عسائرية ، بن حرص من جهة
حرى على انتهاز الوجه البصري ، حتى أو غير حتى ، بقادة حملة التبريسية ،
ومن سبهم الحرب وياحو وهذا فمن خبره أن يرجع الباحثون ، عندما يعيدون
لكتابه تاريخ الجزائر ، إلى مصادر غير قريبة ، فإن تساعدكم بشكل من
الاشكال على الوصول إلى معرفة حقيقة هذه الأحداث أو قلت ، أو هي بصلتهم
على لأهل على أفكار وآراء جديدة بالدرس والتدقيق ومعروف أن فترة الأمير عبد
القادر أحفل بثورات بارحنا بالثغرات وأبعد شرا ، ومن - أن معرفة الوجه الآخر
تثبت المقابلة التاريخية من أنها - أن عني صواب على حرب من هذه الثغرات أكثر
التي وأبعد أمة وشهد في حبه لأمر على الأحمى وقد يؤيد قصة هذه المقابلة
التي استوعبها مؤيد موريت وسحبها لبعده الألماني الدكتور موريس دالمير ،
فشرها هذا في كتابه المذكور أيضا

وكان موريت قد شارك في حملة وياحو - ، على توصية من طرف الحكومة

الفرسية وحصر تحت المراقبة . ولمنه من الطرف أن يقابل لباحون بين ما كبه
القيس السوري وما كبه الخمرال يبحو الى وزير الخدربة الفرسية في ذلك
الحين وبهما يلي نص «الترجى لآخر لمقابلة تامة» .

في الساعة السادسة من صباح أول حزيران (يوليو 1837) ترك الخمرال
يبحو معسكره في تامة ، وتوجه مع أركان حربه الى المكان الذي عين للمقابلة وقد
صحبته اليه ست فرق من المشاة وحياته ومدفعيته . والسبب في ذلك أنه كان
يريد أن يهيء الموضع استقبالا عسكريا ، يأمر فيه بعرف التوسيقى وإطلاق بران
المدفع تحية له . وبعد أمر عدد وصوله الى المكان اتحد ، الذي انتصت به
أشعار صغيرة من السجيل الثري والمصنعة ، بأن تتحد قواته مواقع مهية ،
وكان العرض من هذه الآلة العسكرية حدثت أثر في نفس الأمير عند القادر .
وانصت مدحات في انتصار يمل دون أن يرى هناك أثر للأمير وحيشته .

وفي آخر الأمر حصر شبح عرق ، قيل عنه أنه وزير الأمير ، وسلم رسالة
من «سلطان» الى الخمرال . فصح الخمرال الرسالة . وعندئذ اقتربا منه وادعها
حوله بدفع المصنوع . وبعد أن تلا عليه ترجمانه ومرى ، وهو سوري ، محتوها ،
فقط خمرال حاجبه ، ثم التفت الى لرحمان قائلا
« قل للوزير بأنني نصت من هذه المصطلات أخيرة بأنني ليس معي سوى
نصف حشيتي ، ومع ذلك فإني بدعو أميره الى حوص معركة ضدها

وبعدئذ وثب رمزي ونورير فوق مرسيهما وأسرعوا الى الأمير ليقلا اليه هذا
الخطاب الذي بهوعده فيه . وكان الأمير قد سأل في رسالته عن أسعار الأسلحة
والدخيرة التي وعد بها ، وقد المح هو وقادته في هذه النقطة حسن شروط معاهدة
وعبروا عن رعبهم فيها بكل صراحة . وهذا وحده كان يعني أن به الخمرال
الفرسي الى حقيقة نوب الأمير ومشاريعه . ولخصم ، الذي يطلب عدد عدد
المعدة تزويده بالأسلحة والدخيرة ، لا يوي ولا شك أن يكون حاد في ميله الى
الاسم ، فطلبه بدل على العكس من ذلك على أنه يفكر في حرب جديدة
ويبحو أدكى من أن يجهل عواقب المعاهدة ، إلا أنه كان يعرف أنه قد تجاوز الحد
في نصراته وأن الوقت مناسب لمحرب قد تقصى في أثناء المفاوضات وأر

على وثقت الانتهاء . وكان يعتقد أن أمره سيكشف ، كما أنه كان يخشى حملات الصحافة المعادية ، إذا هو عاد إلى وهران من غير أن يعذب ولا أن يبرم اتفاقية مع الأمير ، ودون أن يحقق شيئا من الحملة التي سينها دعاية كثيرة . وهكذا ضحى ، لكني يوتر على نفسه الفضيحة ، بجميع الاعتبارات الكبيرة

ومرت الساعات ، وتخلت الشمس اتعدرا عميقا في حد ما ، وبرغم ذلك لم يبد بعد بالأخير أثر . وبأخر كدبت ترحمها . وكان يبحر يحاول أن يخفي امتعاضه وتبرمه ، بينما كان الصائد يمهمون ، وقد سمعت أحدهم يقول :
— لن يحضر الأمير أبدا . إن جيراننا سينفي صفقة جيدة

وتأثرت ملاحظات مفدعة بين الحدود . وبكلا يسمع الحمران حديثهم ، ولكني تجنب العذب الذي كان قد رنسم على ملاحظهم ، اسلفني فوق العشب وحاول أن ينام . ثم جاءت لرسل انغرية من جديد بكلصات موحرة ، فقال أحدهم إن «السلطان» كان مريضا وبمعدل عن معسكر في وقت متأخر ، وأكد آخر أنه لم يعد بعيدا ، وقال ثالث إنه قريب جدا ، ولكنه حدث به ما أعاقه . فاستقبلهم يبحر بحموة وعظمة ، وأراهم كتابه ومدعبه ثم أعادهم

وكان العقيد كومب ' أحضر شخصية بين الحضور من الصائد ، لا من حيث المربة طبع ، ولكن من حيث بوهة وخفق . فقد كان جنو الشماثل ، طبيب المعشر ، وصح أهداف ، متحمس لقد فرنسا إلى أقصى حد ، و طليعة بسيطة ، ولكنها مؤثرة . ومع أنه كان يمتنى إلى حرب أحرار بلاده ، وأن مذهبه لم يكن نيعا لذلك يتناسب مع مذهب الحمران انعام على الاطلاق ، قال يبحر كان يثق به كل ثقة ، وكانت بينهما صداقة شخصية ، وإن اختلفت آرائهما حول الوضع الراهن . وقد رأيت الاثنين مسخرطين في حديث حاد . فقد طلب كومب من يبحر ألا يدع بوقت الشمس يمحى في نافذة دون عمل ومن غير عائدة ، ود كانت المؤن لا تكفي للعدة المقررة للحمة ، وهي أربعون يوما ، فيسمى على الأقل مصادرة (العلو) مدة ثمانية أيام في جميع الجهات . وكان العقيد يتكلم بمرارة كبيرة ، ويأسف على الملايين التي تنعم ببلاده ها هنا دون عائدة . ولابد أن يوافق على ذلك كل انسان عاقل .

أما يوحنا فقد بعث عن عصه ونجوه الداخلين بصيحات شديدة -
الأم آل إليه أمرا بعد أيام قليلة . فقد أوعضا على الاعتراف بأن الحرب لم تعد
ممكنة . إن وأمري لم يعد . وسوف أكون أول من يخلص الحرب . وأنا رحل
شهم منكم . ولكن لا يستطيع . واد استحب الأمر ، ولم يظهر - فما العمل
إذن ؟ آه . ان هذه الحرب لموصفة جدا

كانت هذه كلمات يوحنا . وقد لوحظ عليه نرد مسمر . ولو كانت
انقياده يثد كومت لانتقلت الأحداث بحري آخر .

وأخيرا وصل ترجمانا فوق مرس تقوى الأرض طيب ، وقال ان الأمر كان في
المحطة التي تركه فيها قد عادر معسكره مع جيشه كله ، وسوف يكون من
الممكن رؤيته بعد قليل . فعاد يوحنا تنهجه واسطت أسابره وحسن رمزي ، وقد
أحد لتب عيه أفسه ، عوفي حجر ، ورج يكتب بعض أسطور التي أملاها
عنه يوحنا كاصافة مسوده لمعاودة .^٢ ومر انوقت في أثناء ذلك دون أن يمكن
رؤيه الأمر . وربما عن بعد فرق الخيانة العربية نحل بعض الخيال

وكان الساعة تشير ان خمسة مساء ، فقرر الخيال ، وقد كان يرغب
في العودة بعرفة في اليوم نفسه ان المعسكر ، أن يذهب بعده لملافاة الأمر ،
مركب جوده ويطلس ابيه مسرعا ، وسار معه بعض لصابر وخمسة جود من
دوي الأسحلة احببه وعلمد من أسابره (صباحية) وقد
انصممت أنا وتنوير " إلى مرفقيه . فكان عندما على الحملة حزبي عشرين
شخصا .

وبعد سب نأخر الأمر عند العادر لم يكن يرجع إلى عدم الثقة أصلا ،
وإنا إلى الأمانة والشهم فقد أدرك أنه لا يستطيع ان يظهر أمام حبه العدو
بصفته سلطان ، وإنا الذي يستطيعه هو أنه سيفت مع خيال لمرسي على قدم
استراحة . فحاور أن يتحجب هذا مدافع الأمانة التي حبل عليها بقدر ما هو مدفع
العبية واصالة رأي ، لأنه لم يكن يريد أن يتدن عن شيء من كرامه أمام
عربه .

وبعد مسيرة في طريق وعمر تقريبا ، استغرقت ثلاثة أرباع الساعة ، حيل
إلياً أبا برى الأمير فوق منحدر تراب بين مرساه ، ولكنها كما متوهمين ، إذ لم يلمح
سوى مرسا ، ظهروا مردي ملوحين بمسادل بيضاء وأحوا قدم
الوجهدي " ، شيخ قبائل تافنة ، وأكد لجنرال أن بإمكانه أن يلتقي بالأمير
بعد قليل وأحاط بها من الخشب ومن الخلف بعض العربات العرب ، وبدأ
موكب الجنرال يضطرب ، وارتفعت أصوات كثيرة هائجة .

— انا تعرضت لخطر ، أيها جنرال — طلق !

هكذا حوَّاه يبحو في تلك اللحظة

— لم بعد هناك وقت لذلك ، أيها سيده !

وكان على حق ، لأنه لم يبق وقت للحرس ، ذلك أن عددا كبيرا من
العرب كان قد أحاط بها من كل جهه ، ولأذكر هذه لحظة أن مطهرتهم
تلك لم تكن تدب على أي عداء ، فقال الوجهدي ، الذي لاحظ ما اعتري
الناشئة من اضطراب :

— اطمئنوا ، ولا تخافوا شيئا .

فأجاب يبحو :

— أي لا أعرف الخوف فقد تعودت على مصيرك لا أرى أجد أنه ليس من
اللائق رئيسك أن يتركني انتظر مدة طويلة وأنني إن هد لي مكان البعيد

فقال الوجهدي :

— أنه هالك . ومثواه بعد حين

وكان للطريق لها معطف ، وفضاء رأيا الأمير أمامها كان الأمير يحيط
صهوة جواد أسود ، وإلى جانبه رفقة موسيقية الرخية ، وحوله جمع من الرؤساء ،
وقد امتطوا بدورهم جيادا رائعة ، وحلوه حوش من الخيالة والمشاة ، ثم بدأ مواقعة
على منحدر التل بصورة بهيجة .

وعندما لحح يبحو الأمير ، دفع حواده بصبح حضرات حوه ، دعيا إياه
منصف أن يفعل مثله . إلا أن الأمير لم يعبأ به ، بل حمل حواده الصحراوي السبع
على الرقص واشتادي ، وأظهر في أثناء ذلك مهارة فائقة في الترويسة فكان دث
الحواد السري بثب أربعة أو خمسة أقدام طورا ، ويسير طورا آخر على قدميه
الخنثيتين بصبح دعائى ، وكان يضح ويرعر بصوت مسجوع ، وعرفه الطويل بلامس
الأرض . وكان الشيوخ والرؤساء حلقه ، وعددهم حوالي مائة وخمسين أو مائتين ،
قد تركو حيادهم أيضا تنهدى وثب وثب

وإذ لم يرد الأمير لسير لملاقاة الجمل ، فقد وثب يبحو بحوده إليه ومد يده
لمصاحبته ، فمسكها الأمير في عرة وأنة وبصورة مهيبه للجمل . ونظر بعض إلى
بعض ، كى في موقف حرج ، وانصرفت على الخصوص وحرة المسؤولين ، لأهم
حشوا أن يكون في الأمر حدة . وكان الجمل سبحو قد نزل عن حواده ، وبرل
الأمير كذلك واسلم على العشب من غير أن يدعو الحرب إليه . أما نحن فإن
الأمير لم يكرم عينا بصورة واحدة . وقد بدا عليه أنه يحتقرا احتفاره سكلاب
فجلس الجمل أيضا في حابه دوما بكلف . وحلّس فرجه فرجه رمري ، بينما
جلس قرب الأمير المينود من عرش " ، أعاه ودنه . هد في حين بقي مائه
وخمسون رئيسا ، وأغلبهم من الفراهيين والشيوخ ، فوق حيادهم ، مشكبين صورة
هلال كبير حول المجموعة ، واقترب اثنان منهم ووقفوا يسا ويسا رئيسهم ، وبعضهم
صعوا دث يسرعوا إلى حدة «سلطنتهم» ، فيما إذا عن لنا التوضحة بحياتا
لنفساء على «العدو» الخضر ...

كان الأمير قصير القامة ، نحيف لينة ، جبهة بارزة جدا ، وفمه كبير
وكانت أسنانه وحده تسم عن الورع والتقوى ، انى ربما تكون مصطحة بعض
الشيء . وكان في دث اليوم يرتدي أسط رداء ، وهو عبارة عن برنس أسود
مسجوع من شعر الجمل " . ولم يعرف من تأمل من بين أفراد تلك المجموعة
لعمرة ، الأمير عبد القادر ، شيوخه ، هيأتهم المسكية أو أردتهم لطونة الشهادة
أن أنهم مصر لهم فقد تمثل في الجيش العربي ، الذي كان بعض ظهور

كلها على شكل رهيب ، وكان قوامه ثمانمائة فارس ومثلها عشرة . كان الصمت شاملا في بادئ الأمر ، ثم بدأت المفاوضات .

قال ييجو :

— إن الشرط الأول في المعاهدة يتعلق بالاعتراف بسيادة ملك فرنسا في إفريقيا .
صاح الأمر :

— ماذا تقول ؟ وبغية أمراء افريقيا ، مراكن ونوبس ، هل يجب عليهم أن يعترفوا بسيادته أيضا ؟

فأجاب ييجو :

— وماذا يعنيك أنت من هذا الأمر ؟

صكت الأمير ، وفري ، الشرط الثاني ، وحينئذ طلب ييجو رهائن كضمان لتنفيذ بنود المعاهدة . قدس الأمير

— في هذه الحالة سأطلب منك أما أيضا رهائن يعني أن تكفيكم عقيدة العربي وتقاليده . ثم يسبق لي أن نقص عهدي . أما حرلات فرنسا فليس لهم لا يستطيعون أن يدعوا شيئا كهذا

وكرر الأمير الحصة لأخيرة عدة مرات . فاجاب الحمرل .

— اني أتق بكلمتك وأرض نفسي على خلاصتك لدى ملك فرنسا اني أعرض عليك صداقتي الشخصية .

— اني أقبل صداقتك ، ولكني أحذر الفرنسيين من أن يغيروا الشائرين أودا صاعبة .

— ان الفرنسيين لا يتقادون لأحد . وس يكون في الحرائم المعردة تهديد للمسلم ، إلا أن الأمر سيكون كذلك فيما دام تم تد المعاهدة أو يرتكب عدوان خطير . أن ما يتعلق بالحرائم المعردة ، فيسبى أن يخبر أحدا لآخر بها وأن يعاقب المدينين ، كل من جهته .

— حسن جدا . اخبرني بذلك . فان المذنبين لن يفتنوا من العقاب .

— لوصفت بمعاملة للكولة أعل (الكراعلة) بنمسان معاملة حسنة ^(١)

— كن مطمئنا سوف يعامرون معاملة المحصر

وسأل الأمير مرة ثانية عن اسعار الأسلحة والدحيرة التي ستسلم له ،

فأرسل الجرنال وهنئ بترجمانه :

— يا لشبهان . فن له نأنا لسا أصلا ستكون له شمن الجيش .

وبما ارضا على الأمر . وبعد فترة صمت سأل ببحو :

— هل أمرت بأن تعود المعاملات التجارية مع عدسا الى ما كانت عليه ؟

فكان جواب الأمير :

— لا ان ذلك من يحدث الا بعد ان تسلم بي مدينة قلمسان

— ولكنك تعرف اني لا أستطيع أن مسلم لك مدينة قلمسان الا بعد موافقة حاكمي على المعاهدة .

— ادن فليس لك تعويض بعقد معاهدة ؟

— لي أن ذلك مبرور بي ، ولكن المعاهدة يجب أن يصادق عليها . وهذا أمر ضروري كقسمان لك فاذا عقدت المعاهدة من طرفي فقط ، فان في امكان حاكمي النعاءها ان اذا وافق المثلث عليها فان حاكمي يجبر أنهما على احترام مصوحها .

— إذا لم تسلم لي مدينة قلمسان ، فان لا فائدة لي من عقد المعاهدة . وعني هذا فانها ستكون هدنة لا غير ^(٢) .

— حقا ربما تكون مجرد هدنة ، ولكن فيها كسبا لك وحدك . الا تخاف مدعيتي ؟ واذا دمرت محصولاتك وحرق . . ؟

— ان الشمس هي مدعيتي التي ستضي على جيوشك . ولك أن تحرق على أن

حان جرما من محمولاتنا . فسوف نجد انفسنا في مكان آخر . ان بلادنا كبيرة ،
ولن نستطيع مطاردي بطوريك ، لأن الحرية والأريفة سوف تمسكها . وحيثما ظهرت
اسجبا أمامك ، ثم لا تبث أن تنتهي دحيرت أم نحن البدو الرحل ، فاب
سعد في كل مكان ما يكفي لعدتنا .

— اعتقد ان العرب لا يحكروا مثلث وقد شكرني بعضهم لأنني لم أتعرض
لتخريب حقولهم .

فصحت الأمير باحضر ، ثم سأله كم يلزم من الوقت لوصول الموافقة
الملكية فأجابته بيجو قائلا :

— ثلاثة أسابيع .

— هذه مدة طويلة .

— انك لن تعتقد شيئا في حلال ذلك

فاقرب من عرائش وقال للحيرال :

— إن ثلاثة أسابيع مدة طويلة إننا لن نشعر أكثر من أسبوع أو أسبوعين .

فصاح بيجو :

— هل يمكنك أنت أن تصدر أوامرك في اسبوع ؟

— ادن لن تتألف علاقات التحاربة إلا بعد وصول موافقة ملكك

وقد روى ي رمري ^(١١) أن بيجو قد قال للأمير في أثناء المحادثة

— أن أسرنا أو قتلنا ، فانك لن تكسب من ذلك شيئا ، ذلك أن هناك بعد في

مربسا انك جبرال مثلي .

وبعد مداولات استمرت ثلاثة أرباع الساعة ، بهر بيجو بهما ظل الأمير

مضطحكا دون أن يهتم به أدنى اهتمام . صطر اليه مدهشا ، وبداه معقودتان على

صدره ، ثم مسك يده فجأة وأبهسه ، فاجسم الأمير شاكرا لعظمه هذا وانقصب

على قدميه .

وعندما قرأ الجمهور العربي بحرى هذه الحادثة ، ظن أن مسللك الخيال
كان يشتم بالشهادة واثيل "" ولكن إسهامه للأمير قد ترك في الواقع اثر
معاكسا في نفوس الخرافيين فقد اعتبروه إهانة لسحران العربي ، خدمة الخدم
من مروع خدمة الأمير صور فريديش بربروسا الذي سكت لركاب للباب

حين انتهت الحادثة كانت الساعة تشير الى السادسة مساء ، وكانت
لشخص تغطيتها السحب غوث الأمير ، دون أن ينتص حوته ، غوث صهوة
حواده وصعد الجبل ركضا ، وتبعه شيوخه وعددهم مائة وخمسون . وفي تلك
المحظة ارتفعت عدة هتافات طويلة للجيش استبحي ، لدى كان الى الآن
يتأهد تحذنه من غير حركة ، وتندحرجت اشداء من سفح الجبل صاعدة الى
على كنبوچه حجر وبعد ذلك تقبل انطلق من بين السحب صوت الرعد
جوف ، ردد صداه جبل ، فراد من عربة ذلك المشهد

ومن غيبا يحو وهو يقول :

— يا من يحل ثوب ولكني أرفعني على يهوس ؟

بعد الحس في أعماقه بأن العرب م بطريق الى سبوكه على أنه عمل

صوب

وفي حديث عودنا كانت نعمل في نفوسنا مشاعر غريبة . كنا بما شاهدناه
كالخيل صبا أنا في حتم وكان حرب معه مغرقا صامتا ، وحواده يسير
به . وعندما وصل الى مصسكر النعم حول مائات من الصباط لعصريين
وحسدوي على ما شهد ، فوجت غيبا أن بروي هم ما حدث . وكان مصطفى
بن سماعيل "" جالسا على بعث ، وقد عدم وجهه وبدل رأسه الخليل اهتره
فرق صدره كان يشبه بيا يتصر . وعندما سمع بأن كل شيء قد أصبح الآن
على ما يرام وأن الحرب مع الأمير لن يستمر بعد ، قال سيرة منبت مراره

— لم يبق لي ، لأن إلا أن أسافر الى مكة وأكفر في النكمة عن الله التي صحت
العريسي أباها .

استغنى الأمر بالعودة على التوضيح ووضاه لزمه. وفيه لفظة بعد أن أصبح ذلك ضرورياً - وسرور الساحة
معرفة أظن بجمال القيمة ، من 80 ، الخواص في حيزه المربع ، من 191 ، تحت الرقم ، من 180 و 183

(8) كان التكرار محصوراً في لغة الخمر ، وقد انقسم إلى جانب الفرنسية هناك ، على الرغم من أن كلوييل كان قد تمسكهم
بجمع صوابه بالحق ، أظن فاعلم ، ج 3 ، من 221

(9) عند المراتب تقع إلى حد كبير - ورد في نسخة الرقعة ، من 221

(10) يعني الإشارة إلى أن المؤلف يكتب هذا الاسم في نفس الألفاظ راسماً - وبهذه الطريقة ، ذكره

(11) أظن فاعلم ، من 248 249 إلى أن المراكب الفرنسية ملوكة في ذلك الحين خاصة بالبنية بصورة خاصة ، لأن المراكب
الفرنسية سرعان على أن لا يطبق المذهب الفرنسي على أسماء الأسماء وملاحظات أثناء المظاهرات

(12) مصطفى بن سليمان أحد الأسماء المعروفين أيام الاحتلال ، وأمه من طلبة الدواجر ، وكان في العهد التركي يحمل لقب
أغا في منطقته وهران ، وقد تصدى لشعبة الأمور ، فقد حرره الأمير حبيب إلى دستور المصانف وسلمها إلى الفرنسيين سنة
1834 ، وقد دلت على ما عظمه غير روح بعض وجه في تصميم ونحوه إيمانه على شكل بعض ، كل ذلك يظهر
على مرشال كز وجه عذب عند قرية ، ولكن فاعلم (من 253) أنه كان أحد شيوخاً محجوزاً في حوالي التاج من
ميدان رابح كبر أكثر تحت قيادة الأمير من العهد الفرنسي ، مع أن الأمير سر به أنه عمله محطه وشجاعت به في الصفا
عليه في كسب مشاركته الأولى مع

الفصل التاسع

الأمير عبد القادر

عمر الأمير الآن (سنة 1838) 32 سنة ، وهو قصير القامة ، نحيف الجسم ، ولكنه جميل المظهر ، شديد بياض البشرة . عيانه رقيقان يحاطان برقيقهما لون رمادي ، وهما تشعان في جمال ، خاصة حين يتكلم بحماسة . وله لحية وشارب شديدان السود ، غير أنهما ليسا كثيفين ، وقد كسر نصف أحد أسنانه الأمامية ، أما أسنانه الباقية فيمت حيلة كما هو الحال عند أغلب العرب . صوته عميق حلو النغمة ، والحماس الذي أبرز ملامح الأمير ، وعلى حيشه ووجنه ويده اليمنى وشم صغير . أما ثيابه فلبانها في منى اسماحة ، فهي أقل جمالا من ثياب بقية الشيوخ . ويرتدي الأمير عادة حائكا أبيض وليس فوقه برنوسا مصوفا من شعر البعير ، ومن الصعب أن يصل الإنسان إلى معرفة بين جمع صغير من العرب ، إلا أن سلاحه وسرجه يشارن نوع من الصرامة .

وحياة الأمير بسيطة كتيانه ، فهو يسكن ، مع أن عدم قصره في معسكر ، حيمة عادية لا يتركها إلى قصره الجديد في تقلبات إلا لمدة قصيرة . وطعامه رهيد ، ولا يحشى الأمير الجوع ولا التعب ، ويعتبر أحسن المرسلين في بلاد الجزائر . وفي المعركة يحمل فوق رأسه سمحة مدهنة ، وعلى جانبي فرسه يسير عبيده من الرنوج . والعرب يحملون أم الأمير ، واسمها الزهرة ، غاية الاجلال ، وذلك أمر غير عادي بالنسبة لامرأة مسلمة . وهذه المرأة المعجور ، التي كان

سهدي يحيى الذي يفضله على غيره من سائرته لمولها وراثتها ، كثيرا ما تحدث عنها من رآها من الأروبيين بإعجاب كبير وكانت تعرف أوصاف البلاد وظروف أهلها مع الكفاية معرفة جيدة ، دون أن نخفي كرهها لشهيدهم ، وقد اكتسبها عطفها على المرضى والعقراء حب جميع المتعساء والأشقياء .

لقد رخص الأمير عبد القادر أن يتبع طريقة أبيه وغيره من الشخصيات البارزة فيما يتعلق بأمر الزواج الشرعي ، فقد تزوج هؤلاء بدون استئذان تقريباً أربع زوجات ، وهو العدد الذي سمح لهم به الشرع ، ولكن الأمير عبد القادر لم يتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، وهي امرأة وديعة بطبيعة جميلة مكشوفة ، تعيش في عريضة ولا تهم بغير أطعمتها . وزوجها يحترمها ولكنه يظهر لها القليل من الحنان ، فعلى ما نحر أشهر كثيرة دون أن يراها ، ومع ذلك لم يبد أي رغبة في أن يتزوج غيرها رغم الحاح قرينته عليه وعلى الرغم من أن مصاهرة الشيوخ من ذوي المود كانت تعود عليه بالخير والسمع الكثير وقد أبطل الأمير أحكام الأعداء المترتبة عن الحياة الزوجية ، ومن صل يوافق عليها بشدة وكانت امرر خصائص الأمير عفته

ونالأمير عائلة ، تتكون ، بالإضافة إلى زوجته ، من بنتين ، أحدهما تقرب من سن البلوغ ، والأخرى في الثالثة من عمرها . أما ابنه فقد توفي وهو في الرابعة من عمره ، وذلك في شهر أكتوبر سنة 1837 ، وقد تحدث الدكتور فاير ، طبيب القفصية الفرنسية في معسكر ، عن الظروف التي مات فيها الطفل ، وكان قد عالجها ، فذكر أن أفراد العائلة لم يروا عندما رأوا الإبرة ، إذ أنهم ظنوها عندها صغرى ، واعتبروا مراهقوا الأسرة على استعاضائها ، غير أن الزهرة وأم الطفل المريض 'صرتا على أن يتم كل ما يأمر به الطبيب ، ولكن الطفل لم تقبل له الحياة رغم كل الوسائل التي استعملها الطبيب . وطلبت الأم معلقة العينين دسها الحبيب المختصر إلى أن لمط آخر أنفاسه ، ثم التفت إلى وحدتها ، وامشيت عن الأكل واستجعت بالعراء . وكان الأمير في تافلمات عندما وصله خبر موت ابنه فقد «هذه مشيئة الله» ، ثم صل عليه ولى آلامه .

وكان الأمير تقياً ورعاً منجساً لديه ، وكان يلتقي الخطيب في بعض الأحيان ولقد التقى 'فصل خطبه له في جامع معسكر ، فمكثت هذه المحطة من

يضم قبيلة بني عامر الى صفه بعد ان كان شيوخها قد قرروا الخروج عليه ،
فأصبحوا منذ ذلك الحين من أخلص أتباعه .

ولم يكن الأمر يجعل الشعب على التعصب الشديد ، وبرهن أكثر من مرة
على أنه يريد مسألة الكفار ، فاستضاف من زاره من الرسل الفرنسيين والرحالين
وأكرمهم وعاملهم بعطف ، ولم يكن يرى ما يحول بينه وبين أن يتحدث معهم في
كل شيء حتى في المواضيع الدينية . وكان يتكلم بحرية ، ولكنه لم يكن يتحدث
أبدا ، وحديثه أحيانا في منتهى الروعة ، حيث كانت الكلمات الجميلة والأفكار
البديعة تسبح من فمه أخلاصا .

عندما زاره الصايط ألييرو ، الذي كان يتكلم العربية بصورة جيدة ،
وبصحة الا يعثر بالخط الذي واثق حتى الآن ، أجابه الأمير : «لقد كنت قبل
ثلاث سنوات رابع أولاد أبي لا غير ، وكان علي ، حين قتل رجلا في المعركة ، أن
أخذ سلاحه وقرمه لأريد فيما أميت . وأنت ترى ما أنا عليه الآن فكيف لا
أكون واثقا من نفسي ؟ » وحمل اليه رسول المرشال كلوزيل بعد الاستبلاء على
تسلم رسالة تهديد ، فأجابه الأمير : «لأعدهم نصف على الناطيء وترى
الاسمك نعوم في البحر ، قد يتصور أنه يكتمك أن قد يدك تحسب بها ، ولكنها
تترلق من بين أصابعك كلما غيل البث أدك قد تمكنت منها ، وعليك بعد أن
تلقن بها في أعماق لبحر . فإذا كان اسمك صاحب البحر ، فإن العربي
سيظل كذاك صاحب البادية»

وعندما حمل صويرون في الأمير هدايا ملك فرنسا ، استقبله الأمير بحضور
عدد كبير من رجاله من رؤساء القبائل ، وبعده أراد بدلت أن يحملهم على الفرس
بأن ملك فرنسا يدفع له اجرة . وقد أثارت الزهريات الحربية إعجاب
الحاضرين ، وكانت تحمل رسوما لآيات قرآنية تم اختيارها بتدبير من قس العفر
التي تحت على تسامح . وبها كانت الزهريات تتخل من يد الى أخرى ، التفت
الأمير في رجاله وقال : «لا تروا أن الفرنسيين يهرون كل شيء ويقطرون على كل
شيء ؟ » ثم استدرك صاحبا : «كلا . إنهم لم يخلوا بعد وسيلة ضد الموت .»

وتقدر هذه الهدايا الفرسية بأكثر من مائة ألف . وبعد أسرع من
إسلامها قدم الأمير هذه الهدايا للآخرين باستثناء زهرة وسدقة قصبة ، احتفظ
بهما لنفسه . أما الباقي فقد انتقل بمعه إلى مدينة سلطان المغرب وكبرائه
والبحر لآخر إلى المشايخ والمرابطين في مصفته وهران واشيطري

وكان الأمير يسوس رعيته بالعدل ، ولم تغل عميات الإعدام أبدا بقدر ما
قلت في أيامه . واحذر بالأعبد أيضا أنه لم تنفع قط محاولة لأعباله حتى في أيام
موت وزمخته . وذلك عند انصرفت عنه احصى القبائل له ، في حين أن أعبد
الدايات كانوا قد انتهوا نهاية دموية ، وأن لدى حمير ، آخر دايات الخرائر ،
كان يلام الفصبة ولا يتركها ، وأن الدايات لم يكونوا أبدا يعززون على القيام
بمهمات من غير أن يرفقهم عند كثير من الحرس التركي . أما الأمير فكان
يسكن في حمة مفتوحة ويسير بفرسه متفلا بين القرى من غير سلاح وكان
يسفل إلى حين باحترام بالغ وتقدير هائل

ومعامته تقببه الخشم أكثر دبل على حبه وشهامته ، فقد حذره وحذره
بعد سقوط ميسر . وحين رجع من تافة نفوة كثيرة حرج إليه شيوخ هذه
المنطقة بوجوده عبرة شاحه ، فسأهم بصوت زلل . «لماذا استوليت على مكي ،
وبنته قصيرة ؟» فاجبه هؤلاء «عموك لقد رأيت لكعد مغليين ، ولذلك
أخذنا كل ما وجدناه قبل وصولهم . أم يمكن من الأحسن أن يسرق متاعك بدل
أن يركب لكعد ؟» فعاد الأمير يسأهم «ولكن ماذا سحرتم لي وحرم
عهدي ؟» أجابوا «لقد حبب الشيطان لنا ، فطأ أن الله تعالى عليك ، وقد
تب الآن أنك أحب الناس إليه وأعظم سرور الأرض . إذا كان لدم برصيك ،
هناك أن تعاقب أكبرا دنا» قال الأمير بلطف متبر للاعجاب . «أمنوا لي
سيبتكم ! لقد عصوت بحكم وسبت ما نصي . لقد أراد الله أن يعذبكم بنصي
مرة أخرى . احتفظوا على كل حال فما سلبتموه مني إذا كان لا يعدبكم ما
تأكلون من مال حرام . ولكن إياكم أن تعودوا إلى ذلك مرة أخرى ، وبكر في
علمكم أن ابن الزهرة قادر على أن يصرب من حديد ألف رأس من
رؤوسكم » .

ولكنه لم يجد ما يجعله على تميل ما هدهم به ، فقد أخصت له قبلة
الخشم منذ ذلك اليوم ، ولم يلم الأمير على ما أظهره أمامهم من حزم ودهم

الفصل العاشر

الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر إبان الاحتلال

من الملاحظ أن الباحثين الجزائريين قد بدأوا يشعرون بالضرورة حاسية الجزائر ، إلا أن اهتمامهم لم يتعد — للأسف — الناحية السياسية . فإذا استبينا بعض الإشارات العامة ، فلما لا نكاد نلحظ على كتاب يقدم لنا صورة عن المجتمع الجزائري في العصور الخمسة . ومن ثم بقيت حروب أخرى من حياة الجزائر لا تزال تنتظر من يكشف عنها ويمضي بدراساتها دراسة تفصيلية . فليس في الأماكن معرفة مجتمع ما دون معرفة تاريخه . فتاريخ المجتمع هو الذي يبين لنا مقدار عمقه وتطوره خلال المراحل التي مر بها ، كما يوضح لنا مدى استجابته لأمشاط الحياة التي حيرها نتيجة احتكاكه بالغير وإطلاعه على نظمه وتعاليمه وثقافته .

والقيام بمثل هذه الدراسة يتطلب الإطلاع على ما كتبه الرحالة الأجانب عن المجتمع الجزائري ، وجمع مآدب وتصنيفها ، ثم تحليل نصبة هذا المجتمع على مس علمية متينة للوصول إلى نتائج تتفق بالدرجة التي وصل إليها . وقلة المراجع العربية ، أو باحري معلوماتها النام ، يبرز الاهتمام بما انطبع في نفوس هؤلاء الأجانب عن الجزائر في فترات تاريخية طويلة أو قصيرة ، فحرصوا على تسجيله بطلع عليه مواضيعهم في حياته ، واستفيد نحن منه في المراحل التالية ، خاصة وأنه لم يعد هناك ما يحول بينها وبينه . فهي وسع مؤسساتنا أن تقوم بتصوير مختلف

الكتب ، التي نتحدث عن ماضي الحرائر ووضعها تحت تصرف الباحثين والدارسين سيحدد كل منهم ما يقع في دائرة اختصاصه .

وكانت هذه المسطور ليس باحثا اجتماعيا ولا مؤرخا ، ولذلك يمكنني بتقديم الصورة الثانية عن المجتمع الحرثري وحياة افراده ، وتوصيله الى المتخصصين توصيلا آميا ، أعتمادا على ما كتبه بعض الرحالة موريس فاعر ، صاحب موضوعات ثلاثة السبعة .

القضاء :

بعد أن تحدثت فاعر عن المحكمة العسكرية العرسية ، ينتقل الى الحديث عن المحكمة الشرعية الاسلامية ، التي كانت تقع في احد شوارع باب لود الحديثة ، وبصحبها بها لم تكن تفل صرلة عن انحاء العرسية ثم يذكر أن القاضي المالكى يمثل الجانب الديوى نسبة للمسلمين في حين ان المفتي الحصى يمثل الجانب الدينى ، ويقول ب هذا المصعب كان يخلده أيام زيارته لبحر الزلر واقامته بها الشيخ سيدي أحمد بن جعفر ، وهو رجل يسو عليه الوفاة ، ويريد من رقة قدره ما يريد من ثياب فاحرة .

والقاضي المالكى يعتقد جديته في قاعة بسيطة ، تعطى لرضها الزواني ، ويتبرع عن غيره من العناصر بعمدته الكثيرة ، التي تحتوي على ثوبا كثيرة عمر انه لا يفتنص هذه العمادة ، اد يشاركه فيها رجال الدين من الة وعمماء وقراء ومرابطين بالأصاغة الى معاونيه من الكتاب والمحررين وينحد بقاضي مكانه فوق مقعد عال عد مائة يصورة الشكل ، وأمامه نسخة من القرآن مدحبة الخلد ، وعن يمينه وشماله كتابه ، الذي يقوم بتسجيل محاضر الجلسات ، ويتولون اعداد الوثائق الخاصة بعقود البيع وغيرها من الملفات الرسمية ، ويتوجهون بالصيحة الى القاضي في المسائل التي تشكل عيه . ويوجد في الحرائر من هؤلاء حولي إني عشر كانيا ، يقومون بعملهم بالتناوب في أيام معينة . ولأعطيهم لمي كثيرة ، ملاح لينة حيا ، ومرجة حيا آخر ، حسب ما يوجد في طبائعهم ومظاهرهم من فردي (ج 1 ص 62) .

وحيث يدخل الشاوش أو حادام المحكمة المتخاصمين بمختلفا أمام القاضي ،
يقفان في نهاية الأخرى من المائدة . أما إذا كانا من النساء ، فإنه لا يسمح لهن
بالدخول إلى قاعة المحكمة ، وإنما يتحدث إلى القاضي من وراء قضبان نافذة
النساء . وكثيرا ما تكون هذه المرافعات شعبة حتى بالنسبة لأوثق الدس لهم إلمام
قليل باللهجة العربية أو لا معرفة لهم بها على الإطلاق ، خاصة حين يكون النساء
طرفا في النزاع . إن براعتهن في الحديث ، والحركات التي تصدر عنهن في أثناء
ذلك ، وهنوء القاضي ، الذي يترك المتخاصمين يترشفان المنكلمات دون أن
يبدى حركة تدل على سأم أو ملل ، كل ذلك يكون مشهدا متافصلا لا مثيل
له . وليس هناك حادث يمكن أن يخرج القاضي عن هدوئه ، فهو يستمع إلى
الأصوات المترشقة مطرقا في هدوء تام ، وينقى على حد المتخاصمين بين الحين
والآخر سؤالا ، ويستطلق لشهود أن وحدوا ، ثم يصرر حكمه في القضية بكل
رؤية ووقار ، فيقبل حكمه دون أن يبدى أحد لطرفين رعبه في استئناف
الحكم . يحمي الخصوم شفيلا يده قبل الحكم ويحده ، وبعد الحكم عادة في
الحين وفي المكان نفسه .

وبحانق الدبوس في العذب بالصرب على الأرحل ، وهم يعصون العلفه
على السحر ، وقد حاولت الحكومة العرسية أن تعطل هذا النوع من العقاب ،
إلا أنها لم تلق أي تأييد من طرف الأهالي ، ولم يكن في وسعها أن تدخل هذا
الإصلاح الأساسي إلا بموافقتهم وكان لديها مشروع معقود ، ولكنها لم تجد إذا ما
صدقة ، ولا عتوت على من بينهم العرص الأساسي الذي كانت ترمي إليه
والعرسبون — والشعور بقيمة الإنسان عندهم في رأي قاصر ، أكثر عمقا
وأشد قوة منه عند بقية الشعوب الأوروبية بكاملها — يشعرون بالعصب
المبغض غرور التفكير في الأداة الحديدية ، وهو شعور يدل دائما على مدى
ثقافة شعب من الشعوب ، أما الأهالي فإنهم لا يظنون فيه إلا إلى الألم
الجسدي ، لأن المذبذب تنفي كرمته محفوظة بعد أن ينال العقاب الذي
يستحقه . وكان هذا النوع من العقاب مستعملا في أيام الداي أيضا ضد أي
موظف ، ولو كان وريدا ، فإذا ارتكب هذا الوزير ذنبا ، فإنه ينال عقابه

بالملقة ، ثم يعود إلى أهله وأحبائه ، ليحدد مشاعرهم نحوه كما تركوها .

ذلك أن هذا العقاب لا يُلصق به أي عار أما دخول السجن فإن الحزازي كان يخافه كل الخوف ، لأنه يبعد عن أسرته من جهة ، ويحول بينه وبين أحيائه الأخرى من جهة ثانية ، وبالتالي فإنه لم يعود مثل هذا العقاب . وأنفس العنوبات بالنسبة له هي العرامة المالية . فحرمه على جمع المال لا يسمح له بدفع أية عرامة مهما كان مبلغها . فهناك من الحزازيين من يفصل أن تؤخذ قطعة من لحمه على أن يدفع شيك من مائه . ومن أجل هذا ربيت الاقتراحات التي قدمها سيد «لوراسي» في هذا المجال بشدة ، بحيث أن مشروعه لم يزل صوتا واحدا ، هذا قرويت الحكومة الرسمية الابداء على قوانين الاهالي القديمة ، التي لم يكروا يحسبون بثمنها إلا بقدر ما يحس الحزبون بصدقته ، وتركوا أمر ذلك للوقت والاحتكاك بشعب منحصر ، فعمل ذلك بحمدتهم على أن يطلبوا تغيير ذلك بأنفسهم (62/1 - 66) .

الأسواق :

وتوجد في الحزازي بعض الأسواق ، يحرص فيها الغرباء على امدية بضائعهم وهي لا تشبه تلك لأسواق الصحنة ، التي كانت موحودة قديما في بغداد أو طهران ، والتي تحدث عنها المؤرخون العرب . إن أسواق الحزازي لا يمكن أن تقدر حتى بأسواق أرمو أو القسطنطينية ، مع ان هذه ليست هي ايضا تلك الفخامة التي عرفها الأسواق القديمة والتي فحنت في المتوجات الشرقية الرائعة . فأسواق الحزازي تقدر بجانب تلك الأسواق ، وهي عبارة عن دور تشبه الدور العربية ، مع فارق واحد وهو ان جانبي الماء يحتويان على حجرات ، الواحدة منها مقفلة عن الأخرى . ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق وعرف كثيرة .

وانعادة المتبعة منذ القديم هي أن الأحسني أو الحزازي أو اليهودي يكثر في السوق محلا أو عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك ، ويحرص في أزماته بصاعته . ولم يكن يعدم من يزور محله ، الا أن زواره كانوا يكتفون بطلب

بصائع ، وقلما يشترون شيئا منها . فاشحارة لم تكن في يوم ما بالجرائر مريحة ، ولم تزدهر أبدا مثل ازدهرها في بقية الفصول الأخرى بالبيدك المشاحرة ، فقد كان الثراء في الجرائر ينسب للحكم بالأعدام وكانت للجرائر اسواقى تحتوي على أكثر من أربعين محلا ، إلا أن القسم الأكبر منها ، من أجلها وأجلدها بالاعتبار قد هدم ، وقامت في مكانها محلات ودكاكين تجار أرويس . وتوجد منها الآن دكاكين لا تقل جمالا عن دكاكين ممد من بدرحة الناية مثل طوبون وبس .

أما دكاكين التجار من لأهالي ، وهي تقع خارج هذه الأسواق ، فإنها صغيرة تامة ، فليس فيها تنوع في البصائع ، ولا تنوع لأشكال إلا بشكلها العريب . هذه الدكاكين عبارة عن تقرب مربعة ، تعلق في الليل باب خشبي مهترى ، ولا تشفى منها إلا الدكاكين الموجودة في شارع الديوان ، لأن بصائغها مشوعة ومظلمة بصورة تدل على دوق صحتها ، وهم في الغالب من الكراغلة وبصائغها على العموم من الصاعات المصرية بأسب ، مثل الخفاف والمخاطف وأدوات الرية الخاصة بالأسلحة وغيرها . وهي مصنوعة في الغالب من القطيفة المصنوعة ، ويعطونها عذلاء وهي كتيب ، نهر العين بصحاتها أكثر مما نهره بمجماها .

أما بقية البصائع فتكون في أعين الأحياء من الروائع والعطور المستخرجة من الورد والياسمين ، ومن المصنوعات لفظة ليلية ، التي تدل على ما يدل في مسجها من جهد ، وهي باعتبارها مصنوعات يدوية لا تصمم طبعا المنسوجات لأروية الآلة في حياها ولا في أسرارها . وكثير من الأشياء المصنوعة من حبوب الصبر ، مثل أكياس الصبر ، وركائب السيدات ، وأحذية الأطفال وغيرها مهم الأسان لحرارة لمادة التي صممت منها . وأصعب هذه الدكاكين من الكراغلة والمصر اثراء في أعين الأحياء ، ويقومون بشراء هذه المصنوعات من الطوائف ومن بعض المصنوعات . ونجد بصائغهم هذه أسواقا رائعة في لرون ، وهم يتحدث أبدا ن سافر عسكري فرسي إلى بلاده دون أن يأخذ لأهدافه ومعارفه أشياء كثيرة من الصاعات الأهلية ، التي تروق لهم بروعة أشكالها واللونها (67/1) — (68) .

المقاهي :

ويصنع داهر لمسافرين برهارة المقاهي العربية ، التي يربدها في القسم الأعلى من المدينة فقط عن السنين ، ويذكر أنه كان يقضي كل أمسية في واحدة من دون أن يهدم على الوقت الذي يقضاه فيها أبدا . ويحضر المقاهي من الأماكن التي تتبع للأجسي أن يتعرف على الشعب ، ويتعمق معه ، بل لا يوجد بالنسبة له مكان يتعلم فيه التفكير الشعبية مثلما يتعمقها في المقاهي .

ويشير في أن الأهاب لا يتحدثون فيها كثيرا ، إلا أن الحضر أكثر استعدادا للحدث مهم في أي مكان آخر ، وفي أي وقت آخر من أوقات النهار . ومن ه يستطيع الإنسان أن يدرس ملاح رواد المقاهي ، وهم جالسون فوق الأرض هوى حصري لهاذي جالسا قرب التركي في لسانه المصم ، وبه زحني أسود كالغار ، يرتدي نفس اللباس ، وبعد عرني من لبادية ، طويل عذمة . جميل المظهر ، وقد لوحث الشمس بشرته ، يعطي عضلاته المولادية برداء صوبي . وهو رأسه عمامة بها حبل من شعر الخمل ، وغير بعيد منه فباني قدمنه المصيرة ومطراته النافة . ثم ميربي من الصحراء ، وسكري من بلاد الخريد ، ويبدو فرسي في لسانه الرعي ، وقد تعود على حضور جميع المحلات ، ويحد يظهر حواش من مراحة المرح في كل مكان

ويقع أحمل مقهى عرني في شارع البحرية ، وبه قاعة مقسمة إلى مقصورات ، تستند على أعمدة ، وتوسع لعدد كبير من الزوار . ويصف داهر أنه شاهد مقهى من هذا النوع في أواخر سنة 1836 ، ولكنه أصيب ، وكانت تقع في شارع لالاهم ، وقد أصبح كلاله أثرا بعد عين . فقد اشتراها الأوروبيون وأقاموا مكسها بيايات على الطور الفرنسي ، وقصوا في مقابل ذلك عن حاب كبير من أصالتها الشرقية ، فليس هناك اليوم مقهى واحد يشبه المقاهي القديمة

إن مقاهي اليوم مطلعة مستطيلة الشكل ، ولا تحتوي على عرصة واحدة ، وبها صعين من المقاعد خضرة ، تعطىها حصار من سقف الخجل ، ويجلس فوقها الزواد على الطريقة الشرقية . ويقع المصح في شخص بمؤخرة القو ، وتعدده القهوة في حاجين مصنوعة من لحرف فوق صحن من الصمغ ، ويوضع بها

مسحوق السكر ، وهي قهوة الطعم ال حد ما ، ولكنها لذيذة ، وتكاد راسب
التي تملأ نصف الصحان . ويقدم للمرء معها علبون أحمر ذو قصة طويلة ، وتغ
من النوع الممتاز ، ونحن ذلك كله مستيم واحد ، ولا يتصور المرء أن هناك منعة
أقل ثما من هذه .

ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في ولار ، دون أن يهتم بمحله الكبير ،
ويستغل الزائر الأورولي قائلا « مساء الخير يا سيدي » وإياه في الدين « وعليكم
السلام » ثم يبادي في اتقاء الفجر « حب قهوة — حب سمي ا » وانطباخ من
السود عادة أما الدل فهم من اساء اخضر ، ووجوههم شديدة الباهي مودة ،
وهو رؤوسهم الخبيقة قلاسي حمر ، البسهم في الأماكن التي يكلم فيها الزواد
بطيعة وفاحرة في بعض الأحيان ، ولا تتجاوز أعمارهم لسادسة عشرة ، وقد
تركزت الأعمال اليدوية آثارها على ملاحح البعض منهم

ولا تخلو المقاهي لكثرة من الموسيقى في أي يوم من أيام الأسبوع .
وسكان الخوقة في المدينة قرب النصب ، مما جعل اعضاءها يطربون في المدور التي
يتصاعد منها اسحار ويستمدون من حماس وتنكون الآلات التي يستعملها
احسانون الخزانةيون من ثياب وسياج وإعشرات المنصعة وانظر ، غير أن الأخير
يستعمل في الحفلات التي تعام في اهراء نطق أكثر مما يستعمل في المقاهي
وتخلو هذه كدث من الطيور والموسيقى الصاحبة خاصة بالأعراس وحفلات
شهر رمضان . فرود المقاهي يوصلون الاستماع إلى موسيقى الرنية المدة التي
تدعج حواسهم ، وبسبب الأحلام التي يستسلمون إليها في لدة ، ويعبرون من
الأشياء القوية التي تذكهم بفعفات اسلاح وبطلوات الأحداد (68/1 —
70) .

ويقع أكثر المقاهي العربية رواد في شارع الديوان قرب الكهبة
ابكاثوليكية ، ويتردد عليه كثير من الأروبيين ، بالقهوة فيه مختارة ، والمجلس شيق ،
والخوقة كبيرة ، وفائد لعرفة عربي محبور ، وهو عازف بارع على الرنية ، يشد
الأصداق إليه بعزاة تمثيلة لصامت ، واهتزازات رأسه ، وحركاته الرنية الرنية

وكان في الماضي أحد أعضاء العرقة الخاصة بالديني لأحرار ، ويمارس العرف
في الأعراس الخرائزمية ضد ستين سنة ، ولدست فهو يتمتع باحترام كبير لدى جميع
الأسر الخرائزمية ، التي تمنح له ابوابها باستمرار فيسمحها انعامه النطيفة في كل
الظروف والأحوال . يعرف في حفلات الختان ، ويمدهم بالأنعام الرائعة في
الأعراس ، معتصرا من رباته انعاما حريئة بهيجة في الوقت نفسه .

ويكثر المرء بين الخين والآخر في مقهى شارع الديوان على عدد من
الفتيات الخليليات أبيض ، وهن يرقصن على معصات اوسيفي أو يصين أما
صاحب المقهى فهو أخو ابراهيم شاورس ، جلال الدي ، ويتمتع مثله بمكانة
مرموقة عند الحضر ، وه شخصبة قوية مثل أخيه الجلال ، وهو ثروة كبيرة
والحفلات التي تقام في مقهى القسم لأهل من المدينة أكثر اصالة وصحبا ،
خاصة ما يقع بها قرب نقصة هناك يقع المقهى ابوي ، الذي يحول
صاحبه ، ويدعى «سيريوطة» اعراء جمهوره باحقر الوسائل ، فترى الأهالي ،
وكثيرا ما يحفظ بهم الأوروبيون ، يصحبون فيه ويصرحون مع الموسيقى الصاخبة ،
دون حرق ديسي أو عصري ، فيجتمع المسلم ، والمسيحي واليهودي ، والأروى ،
والأمريكي ، في أكثر الأماكن عديدة ونمروج نبت الأصوات كلها باصوت
اسكاري من النساء الخليليات اللواتي يتبادلن الأحاديث العذبة مع عدد من رواد
المقهى (70/1 - 72) .

التقاليد الدينية :

يتحدث داعم بعد ذلك عن بعض التقاليد المتبعة في شهر رمضان وأيام
العيد الصغرى ، فيقول ان الاعلان عن بدء شهر الصوم يتم باطلاق مائة طلقة من
مدفع كبير ، أهم في الميناء ، وليست هذه لطلقات إحسانا من جانب الحكومة
العربية ، ذلك أن السلطات المدنية نحم على المسلمين أن يدفعوا خمسة مراكات
لكل طائفة في مقابل هذه التحية . وبعد هذه الصلقات توفد مصاييح كثيرة فوق
سارات المساجد ، تصيء اعلان الذي يتروح رؤوسها . ويقف المؤذن بلباء
الحليلة وسط اصراء المصاييح ، ويرفع العلم الأبيض ثم يدعو المؤمنين أن

الصلاة . وليس هناك مسلم راشد لا يسرع الى تلبية النداء ، فلا الشبهوحة ولا
الفرقة تحول به وبين المضي الى بيت الله وكانت المساجد ، وعددها أيام اقامة
قاهر بالحرائر ، تسعة وثلاثون ، دائمة مكتظة بالمصلين

ويقول الرحالة الألماني : «وكنت أحصر الصلاة بصورة متصلة ، مع أني لم
أكن مازقا وكان الفصول ، تلك اربعة الخاصة بها نحن الألمان في مشاهدة
امظر العامة ، يندغمي ، كلما سمعت صوت المؤذن ، الى المسجد ، وكن
أحيانا أشارك في صلاة الجماعة العامة بالنسبة لي .» ويضيف قاهر ان
المسلمين لا يسمحون أحدا من الدخول إلى مساجدهم ، إلا أن على الزوار أن يحملوا
أحذيتهم حفاطاً على طهارة المكان وفي أيام رمضان تصاء عدة مصايح باجمع
الكبر ويصف قاهر الطريقة التي تتم بها اقامة الصلاة ، ويومئ الناس فيها شيخ
الاسلام ، ويعتقد انه منظر حدير بالأعبار ، فانسلم الصخور المعترضة يحسب
امام ربه يخشوع لحد لمدب المرتعد فالمسلمون يصطفون خلف الامام دون أن
يقيموا وربما بالأصلي وليس ، هناك احصر والأترار والكراعة والعرب والقبائل
والسكروين والبروج ، بحيث يكاد لكل ناحية من الحرائر من يمثلها فيجلس
التركي في ثيابه باحرة الى جانب السكري المتشح الثياب ، والحصري الشاحب
في أغلب الأحيان يبدو بحمالة الى جانب الرنخي المشوه ، وكلهم مجهول
عشاعرهم المتعددة الى ذلك الجوهر الذي ابشت منه اعمار لألوان والأشخاص .

والمسلمون ينفون مسحة حول أيديهم في أثناء الصلاة ، وقد حد عنهم
المسيحيون ، كما هو معروف ، استعمال المسحة وتضع المسحة من ثمار الزقل
الخامش ، وترى بأيدي الأئمة والرايطين وشيوخ الدو . وهناك عدد من أولياء
هذه البلاد الحريرية المشهورين ، ومنهم الأمير عبد القادر ، لا يكادون يتركون
السيحة من أيديهم . وعندما ينتهي المسم من صلاته ، يظل في مكانه لحظة دون
حركة ، ويخفي رأسه فوق صدره ، ويرحلات مسحة مرات أخرى ، وينعم
بكلمات ، يودع بها أماكن الطاهر . وفي غناء المسجد يحسب يديه ورجليه بحماية
في عين مرمرية ، تحيط بها أشجار العواكه ويرتدي بعله من جديد ، ويترك
مسجد بعض الوقار والخشوع . وكل فرد من هذه الطوائف المختلفة يترك نقطة

الاتحاد هذه ، التي أضحى عندها اختلاف المعتقدات ، ويعود الى حياته اليومية وأعماله الخاصة ، فيذهب المصري الى بيته ، حيث تستقبه روحه مداعبة منبهة ، والعربي الى بادية ، والقبائلي الى جباله . وفي طريق عودتهم لا تنورح هؤلاء المصلون لأنقياء عن سبب احترامهم في الدين أو قتل المسيحي الذي يحدونه وحيدا . (75/1 - 78) .

احتفالات رمضان :

ويحرص المسلمون ، فيما يذكره طاعمر ، على سماع الموسيقى طيلة شهر رمضان ، ويتسلون بمشاهدة الرقصات والعروض المسرحية ولطريات متنوعة ، التي تذكر بعياد الكرنفال في أوروبا ، مما يجعل المرء يتساءل عما اذا لم يكن في أصلها عادة إسلامية انتقلت إلى المسيحيين كما انتقل غيرها من عقائد وثقافات الجرائزون في المحافظة على رمضان ، حسب ما أشار إليه عالم الأثني ، ويستشهد على ذلك مثال الذي « استخدمت أحد الجرائزين لأستعين به خلال بعض الرحلات التي كنت أقوم بها في داخل البلاد ، فوفقت ما حادثة مؤلة ، أصعبها كل ما كان معاً من مؤلة ، ففصب أربع وعشرين ساعة في اساطق لشرقية من سهل متيجة بدون طعام ، ووصلنا الى مدينة الجزائر مع العجر ، فذهبت لمستخدمي لسكري أحمره وأسهرت لثناول فطوري وبعد حوالي ساعة وحدته جائت في انبياء هائلة ما اذا كان قد تناول طعامه ، ولكنه أنشأ برأسه قائلاً : « انه أمر بالصوم » ، ونصى يومه كله هكذا حتى المساء ، مع ان مجموع كان قد أنهكه ، وظهرت آثاره في ملامح وجهه سحابة ، وما كان ليثاؤل شيئا وهو قدم بغير ذلك ما قدم وما أن سمع صيغة المدح حتى أخرج الحمر من قفسوته وراح يلثمه بمشع كالمحمون . » (79/1)

وطعام الصائمين في الليل الكسكسي بالربط ، ويضاف اليه اللحم المنقوع والبرواكه ، وبعد الطعام يصرفون الى مشاهدة العروض اهلية ، التي يشاهدونها في أغلب المقاهي العربية . وتشارك فيها شخصيات من العباد والحيوانات ، وتحتوي على اشارات وحركات مثيرة ومماظر فاحشة ، وسحرية مقدعة ، الى درجة أنه ليس من اللائق الحديث عنها ورصدها ها هنا . وثمة محل آخر يحظى بعدد كبير

من الروار في ليالي رمضان ، وهو المسرح الشعبي أو الفرقور ، ويقع في أفقر دواية
بمدينة الجزائر . فهو عبارة عن قبر مظلم ، يحتشد فيه عدد من الأهالي ، ويجلسون
على الأرض وانظارهم متجهة الى الشاشة ، حيث تظهر الأشكال السوداء
الناطقة ، التي تشبه خيال الصل العبيبي في أوروبا ، على قطعة من الورق مشبعة
بالزيت .

ومن بين الشخصيات الناصقة شخصية الفرقور ، ويمتاز بصحابة
جسمه ، وسطره المصحك ، وسحرته المدهشة وما يحدث في مسرح الفرقور
يشبه إلى حد كبير ما يحدث في مسرح العرائس الألماني أو في مسرح جنوب
أوروبا فاشخصيات تصارع وتتصارب من ابتداء إلى النهاية ، والفرقور هو البطل
وهو يدوي حروف ، يورع أكثر الصرايب ويتقن مثلها . وأحوار بالعربية نادرة
وبعربية نادرة أخرى ، لأن مدير مسرح نرجهان ، ولم يكن يرى مانعا من
استعانة بعض التعابير الفرنسية ، وناحية الفرصة للوجود الرئيس للمشاركة في
التحليل . ولا عمل للأشكال التي تمثل هؤلاء الخوذة إلا العراك مع الفرقور ، وهذا
كله حتى لا ينشر لسعدون الأوروبيون بطل . ويحرص مدير المسرح أيضا على
أن تحصل مشاهد العراك وألوان ماطر ساحرة ، إلا أن هذه المناظر تبدو مشبعة
وعبر طبعه ، بحيث إن كل إنسان لا يسمي إلى صفة لأدياء ، بعض نظره دون
تلك المناظر العظيمة . وحقيقة أن المحصر لا يجدون مكان أحسن من هذا ،
يتسم فيه اطعامهم صروب السفالة وأنواع الآثام . فهل يحب الإنسان بعد هذا
أن يرى هذا الشعب عارفا في العباد وأحسن وأدلة والعبودية ، ويرى شبهه بمنص
أحط أنواع السموم التي تقضي على طاقته وحرته العكوبة ؟!

والحكومة الفرنسية متسارعة في مثل هذه المصالح ، فلم تحاول حتى الآن
إصلاح تلك الأماكن ، التي تنشر لفساد والاحتلال . بالعكس أن أوصاف تلك
الأماكن قد نجحت مد دحون الفرنسيين ، إذ أنها لم تعد تدفع تلك الضرائب
التي كانت تدفعها الى انداي ، ومن هنا كان عجزها برداد بسرعة . وثم فرنسا
بفرضها بحيش من القتل ، يهوق عددها عدد المميرين بثلاثة أصناف !
(80/1 - 81) .

احفالات العيد :

وبعد احتمالات رمضان يحفل المسلمون بالعيد الصغير ، وهو عيد البهجة والمعصرة ، يستسلم فيه المسلم الى مسراته حتى لي لوفات النهار ، فيستيقظ الناس في الصباح على أقدام الموسيقى الصاخبة ، التي يهرها السود ، وهم يرتدون أحمل الثياب ، وبأيديهم الطايير والصمائع الخشبية ، وموسقهم ذات انفاق هجسي ، وتصبحها حركات انصاين السود وتنبههم انصامت واختراوات أجسادهم ، بحيث يلدو كل شيء منهم يتحرك ، الرأس والعم والأذن والعين وانقدم والأصابع ، وهذا في الوقت الذي يتهادى فيه الجسم ويؤدي حركاته على حفة . ومظهر هؤلاء الروح غريب ، يستعصي على الوصف ، ولا يستطيع الانسان أن يخطر اليهم دون أن يصححت وتراهم يلتفون بالأجسي ، طائين منه ثما لهذه التسمية التي قدموها له ، ويصيحون بالآتهم حوله ، ويصيحون وجوههم بصورة رهية ، فيصغر شراه نفسه وحراجها من دائرتهم السوداء بعدد من انقطع الحاسبة . وهذه لموسيقى ارجيه من العادات القديمة المتبعة في الأعياد . وكان هؤلاء أنفسهم يوقضون الذي من يومه صبيحة العيد ، ويهرمون موسيقاهم في قصر القصة مثلما يفعلون ذلك في الأماكن الأخرى ، ويتلقون عليها الهدايا ، ولا يرالون بعملون هذا اليوم أمام بيوت الأعياء من الحضر والكراعة .

ويرتدي الأهالي في أيام العيد الثلاثة أجمل ما لديهم من البسة ، وخاصة الأطفال الذين يرتدون في هذه الأيام الثياب المطرزة بالذهب والفضة ، والسرابيل المصنوعة من الصوف أو القطن ، مما يجعل مظهرهم في منتهى الروعة . والنساء والعنايت محجبات ، إلا أن عددن في الشوارع والميادين لعامة لا يقل عن عدد الرجال . وهن يكتنن بالنظر واتسلية ، ويبها يعنق الزحان في الشوارع معارفهم ، يرش الأطفال الأرويين بماء نورد نحية لهم . وفي باب الواد ميدان فسيح ، يقوم فيه تركي عجور بادرة هجئة كبيرة ، وهونها عدد من الأطفال يهرحون ويصيحون أما أبناء الأعياء فيجلسون في عربات يقودها الروح أو البسكريون ، وهؤلاء الأحمال يفصلون الركوب في العربات المرسية ، فهي تسلة مجهولة بالنسبة لهم . وبما أن الجزائر لم تعرف الطرق الممهدة قبل سنة 1830 .

إن أصحاب العربات العرسية يكسبون في أيام الأعياد مبالغ كبيرة ، عرباتهم محملة بالأطفال الصغار على النوم . وفي مساء ثلاثمائة خطوة ، تقطعها العربة بسرعة ، هو ستم واحد ، وكانت أصوات الصغار تعلو على أصوات النواقيس .

ومن المؤكد أن التحول السبسي ، الذي يتمثل في الجرائر في سيادة شعب عربي ، لم يقص من أفراس هذا الشعب ، إلا أن هذه المباح والأفراح قد ضللت الكثير من صحتها وأصالتها . ولم يكن الفصل وأتباعهم ، ولم يكن يقم في الجرائر عيودهم أيام حكم ابداء ، يحررون على ترك بيوتهم خلال شهر رمضان ، مثلما لم يكن يحررون على ذلك يهود المدينة . فقد كان الشعب يتصرف في تصرفاته ، وهو يهرب عن مباحه ، فكان من السهل أن يؤدي كل ذلك إلى الملاحظات والاهانات ضد أصحاب المعتقدات الأخرى . وقد اتخذ العيد الآن مظهرا مرحيا بصورة مطلقة فالمسجون أنفسهم يتسلطون لهجة العيد دوما حرج ، بحيث أن العيد لا يسب لأحد راحة أو حزن . ولعنهم يشعرون في أعماقهم ، على الرغم مما هم عليه من ثمرات ، يهرق بين الحاضر والماضي فالقسم المثقف على الأقل لا يتحس أن يعمل جلادو ابداء ، الذين كان مظهرهم يربع البصم والطموح على حد سواء ، محل الحراس العرسيين ذوي السراويل الحمراء !

كان أبناء الحصريون يتصرفون إلى صعدهم المرحيين في إنباح ، ويمسحون لحبهم في رصا ، ولا يدعون محلا لكل ما يعكر عليهم سرورهم الأبوي . والساء الحضرية لا يشارك في الواقع في مباح العيد بصورة مباشرة ، ولكن يفرح عن المشاهد الهيجة بحرية ، ووجوههم ممتحة ، لا ترى مني إلا عيونهم السوداء ، التي تلمع فرحا لدى مظهر الأطفال ، وهم يلعبون ويمرحون . وقد مني في أيام ابداء حتى من هذه المسرات البهجة أما النساء المحجيات ، اللواتي كن يظهرن نداءك في الشارع ، فكس كنهن من ابغايا العموميات (82/1 — 84)

الحفلات العائلية :

ويخلص المؤلف إلى الحديث عن الحفلات العائلية ، وهي في نظره من هذا النوع الصائب أيضا ، وقد أتيح له أن يحضر أعراس الحضر في الجرائر مرتين ،

كما دعى فيما بعد الحضور حملة عرس تركي في عصابة ، وعرس كمرغل في مستمام ، ويصف المجلات بأنها كانت كتبها متشابهة . فبعد أن يعود الرجال من عند المعنى ، يحضون بمجرد غروب الشمس ، نصاحبهم الموسيقى والعرائس الكبيرة ، إلى منزل العروس ، فتبعمهم هذه في لباس فخيم ، ولكنها بحجة كالعادة برداء حريري أبيض ، إلى بيت العريس . أما لرائس من الطبقة الراقية فيقطع المسافة عن ظهور الرجال فيما يشبه القفص ، يحجبهن عن عيون لرجال .

وعندما تصل إلى بيت العريس تفر إلى غرفة مصاة ، تتناول فيها طعامها مع الحاضرات من لساء ، وترقص وتبكي ، بينما يجتمع الرجال في ليو ، ويحتفلون ويضعون في عمرة الأعاني والمناجات

ويحفظ بيوت المتزوجين الحدد دائما جمع عمير من الناس ، ويدخل إلى البعد عدد من ريادة على المدعوين ، يصعب اخراجه ! ولهذا عائلته مملوء دائما بالناس ، الذين يربحون فوق الأرض المرمرية ويدحجون ويشربون القهوة ثم تقدم قصعة كبيرة من الطعام ، يصف حولها الصيوف كتبهم ، ويأكلون بملاعق حشيه وبعد الطعام تقدم الأكلة الرئيسية ، وتمثل في الحروف المشوي ، الذي يقطع ويوزع على الحاضرين ثم تقدم للمواكه المختلفة ، وخاصة البطيخ والتمر والبرتقال ، الذي يوزع في الخرائر طوال السنة تقريبا وفي نهاية تقدم القهوة ، ويستمر تقديمها حتى الصباح ، وذلك أثناء مشاهدة العروس العبة . وبأني أولا الموسيقيون والمصور ، يقدّمهم موسيقار انداي ، عن الخياري ، في هذه ويقار ، ويقوم بالدور الأول في الحملة فيحدث الحاضرين طورا ، ويمضي طورا آخر ، ويروي لهم قصص الحب أما الراقصات فهن من بيوت الشارع ، وغالبا ما يرتدين ثيابا ماحرة ، ولهن حظ من الجمال من جهة نظر الأهالي على الأقل ورفص هؤلاء البعايا رتيب لا جمال فيه أصلا ، فهن يلوحن في الهواء برداء كبير شعاف أو مدبل ، ويحركه حركات متنوعة دون أن يتركس مكاسهن ، واحساسهن بهر بشكل مثير ، فكل شيء مهن يرتعد ، الرأس والصدر والأيدي والأرجل والظاهر أن الحضر يجلسون لهذه كثيرة في مشاهدة هذه الحركات الخلية . أما بالنسبة للأوروبي ، فهن ، على العكس من ذلك ، تصحكنه أولا ، ثم تصجره وبأناني ثم

المختار . فهذه الحركات مكشوفة ، وهي صورة طبق الأصل ، تجسم ائمة دون ان يكون لها شيء من جمال ، ومن غير أن تحتوي على ذلك الدلال ، وثلاث الخفة ، وأنواع الفتة التي يحدثها الرقص الأسباني ، فيشد المشاهد الى جمال لراقصة ، وثيابها العاتر ، وريتها الزائفة .

والرقص مهة ربيعة ، فبعد كل رقصة تقترب الرقصة من امشاهد الجالس هاك ، ونحس رأسها فوقه ، واللمباة نحم عليه ان يلصق بجاء انورد أو بلعابه قطعة نقدية فوق وجهها . ونحن بمنى ، ينقطع لنقدية ، نحرك رأسها فتساقط لي مديها . وقد اكاد لي احد المراقبين انها تنقسم ذلك مع صاحب العروس ، وهو ما يشبه ضريبة العرس بالسنة بمدعوين .

وينسلى الساء في الطابق الأعلى بالطريقة نفسها ، وكثيرا ما سمع رعدائين ، التي تشبه صراحا حادا ، ينسر عدة طويلة ، ويصعب تفيدته وهذه الرعدة نفسها تسمع في الحملات والمآتم ، في السلم والحرب ويقول المؤلف انه سمعها حتى في حفلات الختان . ونحن وقت طلوع الجيش الفرنسي سنة 1837 فوق مسدسات لمصورة الصحرية ، رجت بها بعض الرعدة بمصاحبة صفير الرصاص ا

وباتالي نفاذ العروس ان عرفنها ، فصرع عنها ثياب العرس ، وتقدم ها صديقاتها بعض الارشادات ، تتعلق بسلوكها في وضعها الجديد . ويوافق لأقرباء العرس الى الباب ، فيعاقبه هاك ، ثم يدخل السرة ويرى العروس لأول مرة بلون حجاب وبعد لحظات تتردد رعدة اساء من جديد في جوقة لا تشي . وتعرف الموسيقى في اليوم ، وتتصاعد الغتافات في الدار والى الشارع وهذا الصراخ الحاد يعنى أن الزواج قد تم كلية (1/84 - 88) .

وتحدث المؤلف بعد هذا عن الطريقة ، التي تم بها عقود الزواج ، هذكر أن الشبان الحضريين يصلون الى سن البلوغ في الثالثة أو الرابعة عشرة ويتزوج انباء الأكرباء عادة في الائمة عشرة ، ويتزوج غيرهم حتى يصبح في امكانهم أن يعميرا امرأة . فادا سمع شاب بعانة جميلة ، ورغب لي مصاهرة اهلها ، فانه

يبحث عن مخاطبة لها علاقة بأهلها ، تمنح لها لدخول إلى بيوتهم ، والعجائز لا تطبق عليهم القوانين التي تطبق عادة على الحسيد ، وإذا كن متمسكات بالحجاب واستعماله ، فليس يعن ذلك بحكم العادة فقط ، وسوف لن يعيب عليهن أحد مراع الحجاب والمخاطبات بمنعهن في الحرائر بالحرية التي يتمتع بها الرجال ، فلا أحد يهجم بما يفعل .

وهكذا يختار الشاب ، الذي يرغب في الروح سيادة من هؤلاء المخاطبات ويحدد منها رسولا لديه ، ويقدم لها هدية متواضعة ، ويعملها بأكثر من ذلك ان هي قدمت له معلومات صادقة عن حال نعتة ونطمها . وتقل المخاطبة بطبيعة الحال ما عرض عليه ، وإذا كان الشاب عينا ودا سمعة طيبة ، فإنها تسرع في حان ان ودي نعتة وتسرح لهما بانسر الذي عهد اليها به ذلك الشاب . فإذا رخصه صهرا ، فنهت بقدمان لها بعض الهدايا لكي تطري جمال ابنتها على اية حد . ويتم حفلة العدة الشكلية على يد المخاطبة نفسها فيجتمع الولدان ويصفان عن عسوق حتى يجد أن يذبحه الشاب للعصاة . فإذا تم ذلك ذهب الى ادمعي ، وجد عدا عهد رواج اشكلي ، ويحدد يوم لعرس ، ويطلب لقاصي ، حتى يستلم بدوره ما يستحقه من مال في سحاء ، الماء المثل ويشربه مع أولاديه . وعقب ذلك يقرآن منه العائقة ، ليم الرواح على بركة لله والمعروف أن المسلم له الحق في أربع روحات ، أما الأخريات فهي اماء ، ألا أن الحرائر ليس فيها أحد يملك حريما حقيقيا ، وهاك عند قبيل من الحصر لهم أكثر من زوجة (88/1 - 89)

حفلات الختان والولادة :

ويذكر طاهر أيضا حد النوع من الحفلات ، فيقول أنه يشبه حفلات الأعرى تماما ، والوليد الجديد لا يحمل إلى المسجد ، ولا يختن الأطفال إلا في الرمة ، ويدعى الرجل الذي يقوم بهذه العملية ، الشار ، وما هو برجل دين ، وأقصى ما يتسلمه من الأتباء هدية لا تزيد عن ثمانية «وحو» ، أما الغراء فزبه يختن أولادهم مجانا . وهم يختان أبناء ابيادية على يد المرباط ، فالختان بالنسبة لعرب

انهم حضة دية اكثر منها ديوية . أما الحصر فاهم على العكس من ذلك
يطعمون ويكررون نفس الحفلات التي تقام بمناسبة الأعراس .

وهي فاعر أنه أتيح له صدقة ، وكانت تلك الصدقة عريية ، أن يحصر
في عناية حمدة مسوية . فقد كان يسكن في مفهى مرسى ، فاستطاع من عرقه
أن يراقب عددا من الهوى المحورة . ودات به جديته الى اماعدة رعدة النساء
الشكروه ، وسمع في الوقت نفسه بعضه الطيور ، مما اثار فضولة ولم يكن ليدع مثل
هذه الفرصة ، التي تتيح له التعرف على عادات الأهالي وتقليدهم ، تصبح منه
ولو اقتربت بمعامرة لا تحمد عضاها ، فاجتار عددا من السطوح الى أن أطل على
ماء الدار ، فتأهد أكثر من أربعين امرأة ، كن يرتدين ثيابا مبيسة ، من بين
حيات حملاات ، وحصريات رائعات الطلعة .

واستطاع فاعر أن يرى في هذه الحفلة أشكالا من الرتبة ، والألوان من
الحمال البديع ، ودت دون أن يرمح حضوره فوق السطح النساء ، فقد كن
يعين ويرقص ويغنى نفس الحركات المثيرة المتأرجة ، ويضعها أيضا بأنها كانت
حركات آليّة محمودة رنية ليس لها أدنى حظ من الحمال والامتاع .

الفصل الحادى عشر

انطباعات رحالة المالى

فى مقاطعة وهران

هذه ترجمة ترجمة موريس داسير التى قام بها فى مقاطعة وهران مدينة
مسكر ، حيث كانت عاصمة الأمير عبد القادر ، وهو تاريجها فى شهر مارس
1838 . وهذه الترجمة نصفا ولا شئت على نوع من التعكير كان سائدا فى القرن
الماضى عند كثير من المستعمرى ، خاصة وشقيين ، ولعل نقاباه لا تزال تعيش فى
بعض الأدمغة إلى يومنا هذا . ذلك أن داسير يتحدث فيها عن طوطى عصره حيث
يصف من اسقى سم أو رآهم أو سمع سم باهضحية مجرد رفضهم للعرب
الدجيل ، ولجود أنهم يدافعون عن سيادة وصية كما أنه يكشف استمرار عصره عندما
يتحدث عن المآمرات التى تُحاك وراء الستار وهذا اسبق منه هو الذى جعله ،
وعن المطهر الذى حرص على إخفاءه ، بقصى رحلته فى رعب بلغ حد السمر
والرهيم ، وكانت تجربته معه مرهدة .

* * *

كان الرئيس بيليسى ، مدير الشؤون العربية قد رودنى عبد معادنى لمدينة
الحرائر برسالتين كتبتا باللغة العربية باسم النواب المارشال فليل ، وحتما تخافه .
كانت إحداهما موجهة إلى الأمير عبد القادر ، والأخرى إلى حاكم مسكر الحاج
بخاري " ، وكنت قد قدمت إليهما من خلال هذه الوصية ، التى م تكن تفلو

من الخاف ، على اعتبار أني طلبت عدم يهد أن يقوم برحلة داخل المقاطعة
ليجمع خلالها الأعشاب الطبية ويصنع من أدوية .

لقد كان أدعاء مهنة الطب أفضل وسيلة للتخفيف من حدة انزباب
الشيوخ العرب والحصول منهم على إذن بالسفر إلى داخل البلاد . إلا أن هذه
لوسيلة لم تعد اليوم — للأسف — ناحية مفيدة . فقد استعملها عدد كبير من
المغامرين والمتعلمين وشبهكوها ، مما زاد في انزباب العرب . فأصبحوا يرون في
كل أروبي جاسوسا غريبا ، يربح في أن يجمع معلومات عن مناطق البلاد ،
التي لا تزل مجهولة عند الفرنسيين ، وأن يرسم الخرائط ، ويصنع الخلفط ،
ويستطلع وسائلهم الدفاعية .

ولذلك أصبحوا يحاولون جهدهم التمس في تصوير المتاعب والأخطار ،
التي تنتظر الرحالين ، الذين يدعون لرحلاتهم أغراض علمية ، ويتحدثون عن
سفر الشيد الذي تعاني منه بلادهم . ويقولون إن الحال لا تتور على الذهب
وأن الصحارة والياتاب لا تختلف عما يوجد بها في الساحل . لقد كانوا يخشون
أن يتم اكتشاف مورد من موارد البصة في داخل البلاد ، مثل جبل غني بالمعادن
أو مسحة مالحة أو حمام معدني فيجس الفرنسيون على الأسبلاء عيه ولاستقرار
بداخل البلاد ومن ثم كانوا يوثقون حتى في الطبيب الباقي على براءة ما يقوم
به . فقد كانوا يتصورون أن عثوره على أعشاب ثمينة قد يكون سببا في إرسال
جيش لحماية جامعي النباتات .

كان مشروع رحلتي يتمثل في أن أتمه أولا من وهران إلى معسكر ،
العاصمة الداخلية للمفطرة العربية ، التي كانت حتى ذلك الحين مقر الأمير عبد
القادر ، تحت حراسة عامل من عمال الأمير ، وكنت أريد أن أقضي بضعة أسابيع
عند القصل الفرنسي ، وأتباحث معه في أفضل الوسائل التي تمكنني من الوصول
إلى مناطق الأطلس الداخلية المجهولة وكان في يدي أن أتمه بعد ذلك من
معسكر إلى تلمسان ومنها إلى لانغاد وإلى القلة ، التي تعتبر تابعة لبلاد المجرى ،
حاضر ببعض التواجات الشمالية إن أمكن ذلك ثم أعود إلى الجزائر عن طريق
تافقنات ومليانة والمدينة .

وكن على علم بالصعاب التي ستجاسي في رحمتي هذه وكانت تتمثل في
 ارتياب شيوخ العرب وفي كره سكان داخل البلاد للصاري وضعف سلطة الأمير
 في بلاد القبلة . ومع ذلك قررت أن استعمل مختلف الوسائل من أجل كسب
 مودة عمال الأمير وإضعاف حدة رتيابهم ، سواء تم ذلك عن طريق الهدايا والوعود
 أو عن طريق الأعذار المدسنة . وقد بنيت أمل كنه على خلق الأمير عبد القادر ،
 الذي كان أكثر لطافة وأحسن معشرا ، وأكثر بعدا عن الأحكام المسبقة من
 معظم عماله ورجاله ⁽²⁾ . وكان قبل ذلك بأشهر قد استقبلت صديقي بوديشون
 وبيروجر ، اللذين كان لهما مشروع مماثل ، استقبالا حسنا ووعدتهما بأن يوفرا
 لهما الحماية والحراسة ويرودهما بالوصايا بمجرد أن يتما استعدا، انهما لرحلة وينصلا
 به في لمدينة أو معسكر ، فكان تأثيرهما باستقبال الأمير هما بالغا ولو أنهما كان
 يخبئان ألا يكون أمير العرب الدهية جادا في أقواله وأن يكون لديه ما يتدرع به
 عندما يأتيان بريارته وهما على استعداد تام للقيام بالرحلة .

لقد كنت أهد ، سواء على ما سيصحي به الفصل دوماس الذي كان
 يعرف البلاد واهلها أحسن مني أن أدعي بأن طيب سائي أو عامل مجي أو
 تاجر . وكنيت على استعداد للقيام بأي دور من هذه الأدوار عندما تتطلب
 الظروف ذلك . وكان الفريق رايتيل ، القائد العام لمقاطعة وهران ، قد قدم لي لهذا
 العرض رسالة موجهة إلى الفصل العربي أما طيب الفصلية ، السيد هارني ،
 فقد حملت إليه رسالة من الدكتور عويون ، طيب هيئة أركان الجيش ، الذي لم
 يكن يدرج رسما في مساعدتي كلف واحد إلى ذلك سبيلا ، وكانت لدى أيضا
 رسائل إلى الترحامين بن عمران وعياش ، ومن هنا كنت أرى أن يحاج مشروع
 يتوقف على المساعدة النشطة التي سوف أتلقاها من موظفي لفصلية العرسية .

كانت المواصلات بين وهران ومعسكر قليلة في ذلك الحين ، ورغم أن
 معاهدة الصبح كان قد مضى عليها عام كامل ، فقد كانت الكراهية التي أشعلتها
 هزات حرب قاسية بين العرب والأوروبيين ، رهبة إلى درجة أنه لم يكن من السهل
 عليهم أن يقيموا فيما بينهم بسرعة صلات حميمة ، ذلك أن أعمال الهب والقتل

لم تكن قد انتهت رغم معاهدة التامة " ولم يحاول أي من الطرفين إخفاء هذه الكراهية والبغضاء .

قبل وصولي بأسبوع واحد عثر على جثتي جديدي فتلا في نواحي وهران فأثار ذلك سخط الأروبيين ورعيتهم من جديد . وعندما تحدثت أثناء جلسة مع الصباط عن رغبتي في القيام برحلة إلى معسكر سمعت منهم آراء متباينة ، وكان أغلبهم يرون أن مثل هذه الرحلة لا تخلو من خطر حتى في حالة وجود دليل يمكن الاعتماد عليه ، بل إن أحدهم وهو طبيب عسكري ، قد أعرب عن رأيه إذا وهو أنه ما كان ليقوم برحلة من هذا النوع دون أن يترك وصيته . وتحدثت مرة أخرى عن مشروعي مع الحمرال راسيل ولكن حواره لم يكن يمتع على الإطمئنان ، فقد ذكر أنه هو نفسه لا يستطيع أبدا أن يأتمن على حياته بمجرد هؤلاء المصح الخفية . ولكنه يعتقد أن اللحظة الراهنة لا تستعير بأخطار خاصة ، واعتبر بعد ذلك بأنه لا يستطيع أن يحكم على الأوضاع حكما سليما ، لأنه لم يعين قائدا عاما لمقاصدة وهران إلا قبل فترة وجيزة ، ولذلك وجهني إلى قائد أركانه العقيد موسيون . والتقيت في مساء اليوم التالي بهذا الصباط المحترم على مائدة الحمرال راسيل ، فصأنتني المعلومات التي قدمها لي كل الإطمئنان

كان العقيد موسيون نفسه قد شغل لفترة طويلة منصب القنصل الفرنسي في عاصمة عبد القادر بعد نهاية الرائد ميونصيل الأتمية ، فقد أتيح له أثناء سفره إلى معسكر وخلال إقامته فيها أن يتعرف على لأحداث السياسية في داخل البلاد وأن يستمعها على أحسن وجه ، وراد حديثه عن الحياة في معسكر وعن التنظيم السياسي والعسكري في الدولة العربية الحديثة ، وعن تقديرات مفر الأمير عبد القادر الجديد ، من رغبتي في القيام بالرحلة فوجدتني في الساعة الخامسة من صبيحة اليوم التالي في فناء مقر الحمرال ، وأنا على أتم الاستعداد للسفر ، وكنت أمل في نجاح رحلتي ، كانت قد وقفت فيه القاطنة الصغيرة ، التي كنت سأقوم برحلتني معها . وهي على أهبة السفر ، وهناك تعرفت على مرفيقين بلونيين ، كان الفرح والفصول يدفعهما إلى القيام بهذه الرحلة .

كان قنصل فرنسا في معسكر آند هو السيد دوماس . نقيب الكتيبة
 الثانية بقاصة إفريقيا ، الذي كان يتمتع بسمعة طيبة بصفته صابطا قديرا مثقفا
 وديناميا ماهرا ، ومع أنه كان يمينا مع حاشيته ، المشثلة في طبيب وترجمان
 وبعض الخدم العسكريين ، حياة رتيبة متروعة في مدينة عربية صرفة ، فإن
 محطات القنبلة التي كانت تقدمها له أسلاد البقية ، م يكن تكفيه على
 قناعته ، ولذلك كانت هناك قاعة صغيرة من العال تروده كل ثلاثة أو أربعة
 أسابيع بصعوبات الهائلة العربية ، وهذه الطريقة كانت ترسل إليه الخمر
 والسكر ونقبة المحطات الصناعية الصغيرة ، التي لا يشر المرأ على ضرورتها إلا
 حين يعيش في منطقة م تعرف انصاعة بعد ، وكان البعلون من الخوذ العربيين
 التابعين لمصلحة اسقل ، ومن ها كان يهيم أن يقوموا هذه الرحلة لأى لتيج هم
 في كل مرة أن يستريحوا بصعة أيام من القصبة وأن يمتنعوا بمشاهدة مناظر من
 احياء الأفريقية الصرفة في معسكر ، كما تمكنهم من شراء بعض الأشياء بأسعار
 رخيصة وفي مقدسها للدواحر ، يحضون ٣ ظهور بعاهم لغارعة ويقفونها إلى
 وهران يبيعوها ويكسروا من ورائها مالا وميرا . وكان يراض هذه العذبة دائما عربى
 في خدمة عبد العادر بعبه وكيله أو فاصله في وهران ، على طلب تقدم به إليه
 الخمرال ليضعه تحت بصره " فقد قمت برحلتى مع قافلة من هذا النوع وكنت
 قد استأجرت في وهران حصانا متوسطا بخمسة دركات في اليوم الواحد ، وكانت
 أمتعتى قد حملت فوق ظهور بعال القنافة ، وقد سمعت في رحلتى هذه برفقة كل
 من النقيب دوماس والسيد هارلي الطبيب العسكري الشاب

وتحركت فذلك يوم 26 مارس 1838 بعد أن صافحنا رايتيل الجصور
 ومرافقه الصابط سافور لمدة طويلة كما لو أننا كنا نريد اقيام برحلة طويلة حطيرة
 ونحمت نحو الباب الشرقى ، ثم سارت على مهل فوق هضبة وهران التي كانت
 محصورة في ذلك الحين وكان ديبلا وهو بدوى أشيب ، قد التفت في برنس سى اسون
 منسج ، وتجد تلك الحياة الخاصة بالعرب وهو يفتقد ظهر بعن ، أشهب ، يبدو
 عليه التفت مثل راكبه ، ومع ذلك فقد أحجلا في أثناء الرحلة دواما المسمة
 ومراقفى ، وكانا أكبر سمة بصحتهما وقدرتهما على التحمل . وبما أننا كنا نود أن

مكس مودة دليلا ، وسدحل السرور عن قلبه ، فولا حمايته لنا لقنما في
الساعات الأولى ، فقد وجهت حصالي نحوه ، وسرت لى جابه وحاولت أن أهدأ
حديثا معه ، فأعجب عليه سؤالا من لأسنة العادية في هذه البلاد .

— واش حالك ميدي ، واش انت ؟

فأجابني بصوت متدبر .

— بخير ^(١٩) .

ورد على بقية أسئلتي استمعته بالطريق وحقق بعض لنهجة لتدمرة
لقد كانت ملامحه القاسية تنير في النفس انبعاثا رهيبا ، فكس أمد يدي بحركة
لا شعورية تقرب إلى مسدسي ، كلما نظر إلى من حجب أهده الخشنة نظره
تنبه نظره بصح وحين كنت التفت بعد ذلك إلى مرافقي ، كنت أحدهم
يسيرون جهود إلى جانب البطل المحتملة

لقد مررت قرب من المعسكر العربي بنحجون انظاره ، الذي يقدم سوبا في
مروح الحصر من أن تأتي الخيل على سانات ربيع لمقويه ، اسي تمددا بالحوية
والشاهد على مدار اسه كلها وكان يكون من خارجو " ، رئيس كوكبه
العرب ، هو الذي يشرف على هذا المعسكر المرتحل وكان قد دعاي قبل ذلك
أيام بعد زيارته في حبيته والقيم معه بزهدي ، برافب حلالها لحشرت ، وكان
يؤدى أن أروره ، وكى حوي من أن أحطي ، الطريق وألا أحق برعاني في بوقت
لأست ، حصي تنجلي عن هذه الزيرة ، لا سيما وأن رجل قبيلة لعراة كانوا
يتربصون في ثمت المصفاة بالأرويين المنرديين ليهيم أو قتلهم بدافع حقهم
الرهيب .

وبعد ثلاث ساعات عادريا المنطقة الرسمية التي كان يوصلها عن ممكة
السلطان عبد القادر ، في هذه الجهة مستقع عرصه خمسمائة متر ، ودعنا
سهل تلبلات ، وهو عذرة عن حفول واسعة إلى حد ما ولكنها قليلة الحصنة
تغطيها الأوحاش والأدغال الكثيفة ، وهنا بدأ يظهر حقيقة ذلك العدد الكبير من

الفوق ، لى كثيرا ما حدثني عنها بعض من رافقوا حملة معسكر ، إلا أن
 أنواعها لم تكن كثيرة وكانت الفوق الرعمرية ، اى تبنى صدفتها اليصاء بدائرة
 صماء نصرت من السعة ، تشكل بقسم الأكبر منها ، وكانت تخرج على مختلف
 الأدغال والأزهار صفرا سيجا . ومع أن رأيتها فوق كل سنة ، فالظاهر أنها تفصل
 الإقامة فوق نبات دقيق ، التي يكثر وجودها في سهل تيللات . كانت هذه
 الفوق اصباء تمتد بمائة فلاة طولها آلاف الأذرع فوق شبكة عريضة من أوراق
 الدق والصعل الكادب والحل لشبك واشحص والخروب وكثيرا ما كان هذا
 البساط المتحرك من الفوق يحول في رحايف يدعة ، فيصورها المرء براعم
 مرة ، وهدف نبع مرة أخرى . ويسر له في بعض الأحيان بمائة ثريات ويحوم فوق
 فوق الأعصاك . وكانت تغطي بعض الأشجار العادية بشكل عرير ، بحيث لم
 يكن هناك سدد لرؤية قشرها ، فتبدو وكأنها أشجار صدف حارجة من الأرض .
 وكانت هذه الفوق هي اى أعدت تقريبا الجيش العرسى من الموت جوعا ،
 فقد طبحت في الكاب الذي عسكرت فيه جيش الأرشال تزيه اثناء استجابه
 من معسكر . وقد نعت وقته العدة وقسمت طعاما لجميع أفرادها من
 صارت الفصل إلى عدد . وقد حدثني عن ذلك الغيب مانعوس قائلا -
 « لست أدري مد كان سيصير إليه أمرنا لو أننا لم نعلم عن هذه العريجات ،
 التي لم يكن يعرف أنها مسيحية . السنة توحية شهية كانت معدا في
 ذلك الحين دعة كالكيت الموتى . وكانت أقدم متعبه دنى حدها »

ونسكن سهل تيللات فينة العرب لى اشهرت في الحرب مع
 العرسى موتها وميتها إلى لى وانفس وكانت هي لى هاجب جيش الجمل
 تزيه امهروم في انقطع وقسمت على مؤخره وأسر السبد دى حراس سنة
 1837 وعارت على قبيلة لرمانة العدة لمرسا عددا نوحه الجمل بوحو إلى
 الدعة وقتل ساءها وأطعد واستوت على قطعان ماشيتها وقبيلة العربة في
 مفاصة وهران شربة بقبيلة ححوط في مقاطعة الجزائر حكنتها حمارس السلب
 وانتهت بطريقة وقحة ، وعلى استعداد دائم للإعادة على مناطق العرسية ، والترى
 بالشرهين والصباديين المحدثين ومن صبرا طريعههم ، والمرار بأسرها وقطعها إلى

الخيال ، كنما أراد طابور مرسي رد زيارتها والانتقام منها لما تقوم به من أعمال
السلب والنهب وقد قال الأمير عبد القادر ، مرة للفصل الفرنسي : «إن المراد
قبيلة العراة قتلة من الشرار الأول ولكنهم يشكلون أفضل جنودي . » وعدد أفراد
قبيلة العراة يزيد بكثير عن عدد أفراد قبيلة حصوص . ولي وسعها أن نحمد ما يهد
عن ألب فارس . حقا إن قبيلة بني عامر وقبيلة فنية أكثر عددا ، ولكنها ليست
مخاريتين ولا مرهوبتين الخائف مثل قبيلة العراة

ولا شك أن مراضي كانت تعمل في توسيعهم أحاسيس مؤلة وهم يمدون
عن مسطحة هؤلاء الأخلاف ، دون أن يكون لهم حارس آخر غير الدليل الذي
كان من طرار أبناء العراة في شكله ونمطه وكرهه للصاري . فمع أن الوكيل
كان قد عبه خصمها فانه لم تكن ندو عبه أية رعة في الدفاع عما ، والمخاطرة
بحياته في سيف في حانة وفوق هجوم عبها ، ولم يكن يحمل أي نوع من
أسلحة . ورغم أنه كان في خدمة الأمير ، فبما لم يكن تصور أن يظهره البائس
يمكن أن يوحى لوائحه ، لإحترام يرى هل سبق الأمير عبد القادر لنا أو أنا
فينا ندم ديد ؟ وذا قال له أتباعه من المسلمين «أتريد أن تهلر دماء
مسلمين مطهرة انتقاما لدماء الصاري كلال» فهل يتحرأ الأمير عبد القادر ،
لدي لم يقم حكمه ، خلافا لسياسات الأتراك ، على الطعم والإرهاب ، وإنما أقامه
على مكانه كمرصد وعلى لروح بديهة لمقصده ، التي كانت تسيطر على
فصائل الموالية له . هل يتحرأ عن معاقبة قبيلة الرهينة ، وهي أفضل ركائز في
الحرب ، بسبب اعتزال بعض لمسيحيين ؟ وحتى إذا كنا لا نحصى عدلوة القبيلة
كنها ، فمن بعض ما أن حياتنا لن نتعرض لخطر رصاصه يفضفها منصف ما
من بين الأدغال دون أن يحشى اكتشاف أمره ؟ إن من يعرف في الحقيقة مدى
صعب السلطة ، أنني يجارستها الخيفة على الشيوخ ، والشيوخ على العامة ،
ويعرف مدى قوة الطاعة بين هؤلاء الصبح ، الذين لا يحتملون الحصوص لأي
نظام ، ومدى شياول الرؤساء في المعاقبة على المخالفات ، التي ترتكب ضد
الكفار ، من يعرف نظام العرب العوسوي وطابعهم التي يصعب التحكم في
والإطعشان إليها ، فانه سيجد ما اعتري قلوبا فيها من هلع ، فتعالت دقاها ، ثم

ضيق وهذا قبل أن تعود على قرب الخطر ويعبر نفوسا نوع من الانمالة وإن
كانت لا تعي الهوى والأهملان

لقد كنا في الساعات الأولى سطر في مرج الأدغال لمقر فلا يرى أنرا لمزل
عرفه ، ومع ذلك كثير ما كانت أحبا المشارة تظهر لنا شجرات النسيق
لمسقة نسيقا بديعا تخطر الحيام المصوغة من شعر الحمل ، وبها عدم الصريح
أيض الخافق غثاة برس بدوى محني ، ونصور لنا عود بات أوى الخدات
عذبة صراح قبيلة العرة في معركة !

وعندما اكتشف بعد ذلك أن حواسنا نعدنا في كل مرة بدأ الملع الرهب
يربنا شت شت ، وواصلنا في النهاية رحلتنا عبر المنطقة المحيرة هاشي النال إلى
حد ما .

وكان دينا شبح كبير ما يذخر عما يؤدي صلاته ، وي أن القدام كان
قد بدأ في هجره بعد قررة من برام حركاته وسكاته كانت الشمس قد
أوشكت على غروب من شبح عري عن بعد ندي راح يصور في صبر ، لأنه
كان متعبا على الاستراحة بين الشجرات سيدة حاما ، وانعمر في صلاته بعض ،
وحيث شئ من كان حر شجاع من شجرة شخص قد حتمى ، فوضع على الأرض
في تافل كبير وعمد لأحد أن ك حبه يشاهد صلاته فطر إليها نظرة
مستومة وصاح في نهضة حافته بيعدا عنه « مشوا ، امشوا » وحيث لحق
ما بعد حين كان قد استعد بصفه ، الأمر الذي تار ذهنته فقد سأب عن إد
كما مره فضاء ليلنا في دور فرب ، لأن من علم بعد على قبه عريه أخرى إذا ما
عن واحدنا رحلتنا خلال ساعة من البرس ومع أن كان بود أن يحصل رحلتنا
أثناء حره من الليل ، فقد سرنا أن نأخذ باحراج دليبا ، لأن حادنا كانت قد
نعت وما كانت تستطيع مواصلة السير دون عذب ، ولأنها كنا نحن أيضا نرعب
في الغلوس حزن بار عملية تشغل في حمة وتناول طاس من الحليب وميت في
حمام دافئة ، وبعد ذلك أحد بدويها يسر حابا عبر الأدغال ، فلم يلبث أن
وجدنا أنفسنا في غابة من الأعراس ، لا أثر فيها لأي طريق واستمر

قصة من الرمن ، كانت لأدعاج حلالها تشبه حيا ونحيف حيا آخر ، وكانت الحيا مشعر وبعار تصبح ، ولكن الدليل الصخور كان يسير أهدا دون أن يلتفت إلى الوراء ، وكان يبدو عبه أنه يعرف بطريق معرفة جيدة

وبعد أن ركب حوالي نصف ساعة ، وصلنا إلى ساحة كبيرة مضاءة تعطي حيا سوداء وقطعت ساحة ورفص سكن الدوار الأول السماح لنا بالميت ، ولم نر غير ساء والأصمات الذين كانوا ينظرون إلينا نظرة حاذقة معادية ويصرون من خلال الشاشات أن يواصل سوريا ، ويحير نصف الدوار الثاني رج دليق بفانوس شبح ، وهو أيضا يسوي عصور قبح وث نيات مثله ، وأحيوا جميع ما بالمرء ، وأصبح لعبا أن نرعى قرب الدوار ، وضربت ل خيمة لفصي بين يدي وهدأت أسير هؤلاء طمع الذين استعملونا أول الأمر بوجوده عادية لم نخرج إلا حد أن باد معهم بعض الكلمات ، وحصل بين نوع من التعارف محسوسا مما تحول دار كبيرة وسألوا عن الأحبار الجديدة وعن معرفه بصورة خاصة عن ابلود من عرش " الذي كان في ذلك احسن مبحث الأمير عبد الشادر إلى باريس وكان يحتل بده مكانة متميزة باعتباره ما لمزاد من قبيلة العربية ، وانعصى حرم من النيل بين سمر وانصرف ، ثم سلقا مهدوء تحت سنف القصر المصوغ من شعر الخيل ، الذي كان قد أهد لنا ، وغمت بين هؤلاء المصوغ مطمش النار ، كما لو أني كنت في بيني ، وسدفتي ذات الماسورتي بين يدي ، وعندما استيقظت كانت رؤوس لا تزال بين أكتاف - كان ذلك أكثر مما كنا نتوقع أ

ليس لناس في مقاصد حرائر أي تصور عن تجمعات كبيرة للحيا لبوية السوداء ، التي يتخذ حجمها في بعض الأحيان شكل مذهب صخرة ويسكنها عدد كبير من الأسر ، ويقسم بها عدد وفير من القطعان ، فبعد حيا الدوزير في مقاصد الحرائر يتراوح بين ثماني وعشر حيا سوداء هوائية مصوغة من شعر الخيل ، أما في مقاطعة وهران وفي المدن الحربية لمقاطعة قسطنطينة والتيطري وفي جنوب ولاية تونس ، فإن هذه السورير قد تصل على العكس من ذلك إلى خمسمائة خيمة ، تحصل بينهما لجوات قد تصبى أو تسبح ، ولكنها بشكل دائري

وتنير طبيعة المساكن ، التي يسكنها هؤلاء البدو وتعملهم ينصبون بمحيرات
حصنة ، وكان هذا الدوار أكبر دوائر العرابة ، التي شاهدتها في الحرائر ، وكان
يضم ما يماثل مائة أسرة .

وكانت حول مدينة الحيام هذه قطعان كبيرة من مختلف الأنواع من بيها
البدو الأسود " " ، وعند من انبوس المرحلة المتربة والأبقر والثيران الصغيرة
والهزيلة إلى حد ما ، وكان هناك في لينة عدد من مردة القطعان ، من الجمال ،
التي كانت رؤسها وأسمها الشاحنة ترفع كقطع الصخر وسط كتلة الماشية
المتحركة ، ورس حجاب ثناء هذه الكتل الحيوانية وحجرتها وصباحها كانت
الكلاب البدوية البيضاء الطويلة الشعر ، التي كانت تشبه كلب البدع من جهة
وبنت أوى من جهة أخرى ، تسبح بياض متوصلا لشعورها بوحود العرابة في
مصرح الحيام ، ولأعراب يقصدون الإقامة في الأماكن المعزلة البعيدة عن الطرق
العامية ، ويمتلك لا يعرف مكان بعضهم أحيد ، إلا من حلال دحان بار يقطع ،
ومن يؤكد أنه كانوا يربون دناث أن يتجسوا صفاقة التسمية الصادرة عن
إحويهم في البدن ، ومن كانوا كثير ما ينعون في استعمال كرم صياحهم ، وأن
يتعدوا عن أحدتهم حتى يفسد عليهم الاثرب منهم ، وما كان في إمكان
كبة مرسية أن تفلح طريقها عبر هذه لأدعس الكثيفة دون أن يمتد إلى وحودها
رجال العرة قبل وصولهم طوية ويعملون على نقل قطعانهم وحمامهم إلى
مكان آمن ، لقد كانت قبلة العرة أثناء رحلتها عبر أرضها في حرب مع قبلة
من عامر ، فكانت كل منها تمر على مصرع حيام الأخرى ويستولون على قطعانها
ويقتل رجالها ، وكان الأمير عبد القادر في ذلك الحين عائشا في مدينة ، وقد حاول
حلها وأعوامه بدلة شهاب السراخ بين المسلمين ولكنهم لم يحدوا أذانا صاغية

كانت هناك حصنة عربية تنفذ حبال الأحسن ونرى دائما تقريبا على البعد
نفسه من البحر ، تفصل سهل تليلات عن سهل سيق أو هيرة ، ويسمى
سوات أيضا ، وهو أكثر حملا واسعا ، وكانت عادة مولاي اسماعيل تعطي هذه
المنصة وتحتوي على عدد كبير من الأشجار والأدغال الخشبية المصنعة وتكثر
بها خاصة أشجار المصطكا ، إلا أن بها أيضا أشجار الزيتون البري وأشجار

الأثل الإفريقي وأشجار الصنوبر والحروب وأشجار البلوط الخشبية المختلفة ، و
مقدمتها أشجار الدبق ، ويؤكد العرب أن هذه العاية هي مقر الأسد المفضل ،
وقد بصحنا دليلا بالأسد أبدا عبر هذه العاية أثناء الليل ، وذكر لنا العربي أن
الأسد يكمس على جانب الطريق ، وبدأ في الحين يروي لنا قصصا وحكايات عن
الأسد ⁽²⁾ وما كاد ينتهي من ذلك حتى كنا قد تركنا خلفنا عناية مولاي إسماعيل
وأسودها .

وامتد أمام أنظارنا سهل سبق المصيب مرجا أحضر لا يرى له حد ،
وشاهدنا فيه عددا كثيرا من الدواوير القريبة من الطريق ولقطعات الكثيرة وكذلك
عددا من الأضرحة ، والأضرحة مراكب في شمال إفريقيا ثلاثة أشكال قصصا
يموت مراكب عادي ، وهناك عدد من أمثاله في كل دوار ، يكتمل العرب بإقامة
سور مسحص حول قبره ، ويرفعون في وسطه علما أبيض أو مجرد حرقه من
خشب ، وإذا كان المراكب المتوفي ويا كبيرا ، وكان له تأثيره الديني على عدد من
القبائل ، فإنهم يقيمون له صريحا فوق قبره ، وهذا الأضرحة ، التي يراها المرء في
كامل البلاد ، تما في ذلك الأماكن المعلقة ، فباب فوق سقفها ، وهي تطل من
بين أشجار الصنوبر أو من فوق جبل ، ترسم بألوانها البيضاء صظرا رائعا ، أما
المراكب المشهورون ، الذين يحلون ويعظمون في طول البلاد وعرضها ، فإن
العرب يبنون لهم مساجد تحيط بأسوار دائرية ، ويقوم على حراسها طائفة من
قبيل ، ولا تخلوا أبدا من المصلين ، وليس هناك عدد كبير من هؤلاء المراكب والأربا
الذين يحطون بإحلال كبير ، وقد كان سيد محي الدين ، والد الأمير عبد القادر ،
واحدا من هؤلاء الأرباء الكبار القلائل في هذه البلاد .

كانت رحلتنا عبر سهل سبق بعثة إلى حد ما ، لأن دليلا المحور كان
يرى عن ظهر بعله أمام كل صريح ويحكي لأداء صلواته متكورا كالنودة ، وكان
يجري في الحدود الخشبية للسهل عبر سبق في اتجاه الجنوب الشرقي ، وهو واد
صغير ، نشب صفناه العاليتان المنحدرتان سورين متواصلي الامتداد ، ولجاء هذه
الوادي لون أسود ، ويدعي العرب أن مياهه مسمومة ، وأن الحيوانات تضي
بمجرد أن تشرب منه . ويدعون أيضا أنه ما من فارس يترك حصانه يشرب من

مياهه إلا ويتركه للبرهان ويواصل سفره بمرجه وعماه . وبعد ساعة من عبرى وادي
 سبق نبدأ السلسلة الأولى من جبال لأطلس ، التي تمتد ها من الشرق إلى
 الغرب . وكان عليها أن تصعد ثلاث سلاسل من هذه الجبال قبل أن تصل إلى
 معسكر ، ونقصنا عن بعضها بعض وهاد رائحة تعطي مساحتها أزهار كثيرة ،
 ولكنها غير متنوعة ، وقد أعجبتنا بها بحلييات بصورة خاصة ، أما أشجار
 الصنق الأطلسية نادرا ما وقعت عليها أنظارنا فوق الجبال ، وهي تشبه أشجار
 المصطكاء تماما ، إلا أن ارتفاعها يمنع أحيانا متبين قدما ، وقد سبق لي أن
 شاهدت هذا النوع نفسه في نواحي قسطنطينة

وفي يوم 7 مارس (1838) وصلت لبل إلى مدينة معسكر في وقت متأخر
 إلى حد ما . وكان الترحمان بن عمران قد خرج يرحب بنا باسم القنصل على
 مسافة ساعة من المدينة وأصبح ركوب أكثر رهقا ، فقد كنا نعتلي ظهور الحمار
 لسحدر بعد حين ، ولم يكن يرى أثر المصص من الور ، ولا سمف حركة دائمة ،
 ولا تاهب إليها بأمة مزج ، تنس على اقترابنا من المدينة ، فلم نشعر بياث على ،
 صاحبة معسكر لكبره ، إلا حين أصبحنا نسير في وسطها ، كانت أبواب
 المدينة مفتوحة ، ولم ير هناك أثرا للتحرس ، ولا أثار دركي يسائر عن جور
 صغرى ، ولا جاءنا حمركي لتعشيش أمتعا ، وتوقفت في رفاق بعض أهم مقر
 القنصل ، الذي استقيا أمام الباب ، وبعد أن عانق أخاه ، رحابا أن يقاسمه
 مسكه البسيط ومشاركه في طعامه الأكثر بساطة

وعندما سلمت إليه رسالة الخزان رتبيل ، قال لي ، « كنت مشرل
 عدي عن الرحب والسعة حتى ولو لم يروذك رئيسي هذه الوصية ، إلى لأشكر
 كل عريب ، يروزي في وحدتي ويمكسي من جديد من نبادن الأفكار على الطريقة
 الأوربية ، إنك لن تجد في معسكر مطاعم ولا عرفا مؤتنة للإبحار ، ومن ثم فليس
 لك على أية حال من خيار آخر غير السكن في صرلي . » وما كدما نجس إلى
 مائدة القنصل قرب المدفأة المريحة ، حتى أرسل إلينا حاكم المدينة الحاج بوحدي
 حروفا و « كسكسا شرقيا » رثما مطعما باريب ، فقال القنصل « إنها المرة
 الأولى ، التي يولي فيها حاكم لمدينة الأروبيين مثل هذا الاهتمام ، فأتم نروون أنه

يحتفل بوصولكم أكثر مما يحتفل بوصول الذين جاؤوا لهدمتي ،» وبعد ذلك بالمحطات حصر الشاوش أو صاحب المحكمة ، الذي يقوم أثناء النهار بحراسة بهيمة انقصية ، وحلبنا عما أشيع بين الناس من أن أحد أبناء سلطان هرب قد حل بمعسكر فصحاء كثيرا لهذا الخبر ، ورجح نخس ما رحيين من ما نحن المسافرين الثلاثة يتصوره الناس أمرا هربا !

وتقع مدينة معسكر في سفح المنحدر الجنوبي من سلسلة جبال الأطلسي الذئبة شمال سهل اعريس بديع ، وتبعد عن جنوب شرقي مدينة وهران ب 26 مرحلة وعن البحر في خط مستقيم ب 18 مرحلة ، ومع أن مدينة معسكر كانت منذ عصور من أعديم مدن انقصية ، و ما كتبه شو "عنها لا يزيد عن سطرين ، فوصفها نائب نفيع «وسط سهل خيل» ومن هنا يبدو أنه لم يره ولم يردد إلا ما كان قد سمعه عنها ، وبما أن معسكر كانت ، كما كتب هو نفسه ، ترقص وحود حامية تركية بها في ذلك الحين ، فليس من المحتمل أن يكون قد استطاع لمس شيء ، وليس في معسكر أي معلم من معالم الآثار القديمة ، فقد كانت مكتوبية قديمة ، التي ذكرها بصلبيوس ، تقع على بعد ساعات في اتجاه الغرب ، وكانت هناك أنقاض صارت قديمة غير ذات أهمية في قرية المرجبة التي تقع على بعد ساعة من معسكر ، ولكني لم أنمها إلا بشكل عابر أثناء مروري بها ، وكانت معسكر عاصمة - بذلك حين كانت وهران بيد الأسبان ، وهي تعطي مصارحها الخمس نسبة بصورة غير مخصصة مساحة تقدر بمليون ومائة قدم ، وهذه المصارح مكتوفة أو لديها مصاحف بسور دائري بسيط ، يبع علوه عشرين قدما ولكنه ربيع ومنحدع ، يمكنه حقا أن يعطي النسبة من محامات انقبائل العربية ، غير أن المدعيه الأروبية تستطيع أن تهدمه في بضع ساعات وقد عرف الأمير عبد القادر ذلك عندما ترك عاصمته سنة 1835 تعرض بكل مساحة للسلب ولهب على أيدي الفرنسيين ، ومعسكر مكان نمر إلى أبعد حد ، حقيقة لقد بي أغلب الدور فيها من الحجارة لا من الطين ، على حد وصف شو ها ، إلا أن هذه الدور صغيرة متوصعة ، وهي مجرد أكواخ حجرية ، وشوارعها ضيقة ، وبناها مبنية بالحجارة والحركة ، وليس لمساجدها أهمية

كبيرة . فلا يرى المرء فيها أثرا لماارة جميلة عالية حللها لما هو عليه الأمر في المدن الكبيرة بالبلاد ، ولكن الأصرحة نحت ، على العكس من ذلك ، وسط المدينة . أما ما تبقى من عظمة الآثار العربية ، فمن المرء أن يبحث عنه في قصور الأمير عبد القدر والسايات الأتراك التي حطمت ولم يعد يسكنها الآن أحد .

وبعد مسكن القنصل دوماس (Dumas) على بساطة الساية الوحيدة التي بقيت سليمة ، وكانت تحتوي على ثلاث غرف مطبخة ، وضاء صغير ومطبخ وشرقة وقد أرسل عدد من الجنود الفرنسيين المدهريين من وهران ليقبضوا في معسكر بصعقة أسايين ويدخلوا عليها لأصلاحات الضرورية ، فاليهم يعود القنصل في وجود المدفأة ، التي يجد فيها سكنها لعراء . هي النساء تجتمع حولها الأسرة الأروبية المتكونة من زوجين فقط لشرب القهوة وتذخين العليون ، فبادل أفرادها مع القنصل انشهم أحاديث بسيطة ، نسيه إلى حد ما وحسنه وسأله امرئيين عن إقامته في مدينة عربية ، فقد تحدث أنا عن جميع مشاهد حملة قسطنطين (الدية) ، في حين تحدث القنصل وطلبه فارسي (Varnier) عن طيبة خاطر عن تجاربها وحزنها وملاحظتها في تسعة العربية الجديدة وفي مسقط رأس الأمير ، الذي صعد به حمة ، ولا يزال إلى اليوم مصدر غوته الكبيرة ، وقد استطاع القنصل الفرنسي ، نقيب دوماس ، أن يرسو على مشاعري بلطمة وطية ، إذ انطس معي على صحبة في حديث متنع ، رغم أنه كان زاني وانتهى في لكون مرة ، وم يكن يحكي عني تقريرا في مر من أساره ، وكان يتسم بالصدق والأخلاق والأمانة ، وإذا كان غيره من الديبوماتيين يتنازرون بالسرعة التامة عند معاشرتهم للأحداث ، فإنه كان على العكس من ذلك يعرف كيف يتلصق مع الآخرين ويحسبهم على الكلام ، فيصل عن صريفهم إلى معرفة كل ما يجري في البلاد . ويتحدث بالمفرد الشيوع عن أوروبا ، وعن أعاجيب الحضارة ، وعن الأحداث السياسية وعما تورد الصحف من أخبار جديدة ولكنكم عحت بهارة هذا الصبب في حديثه مع الأهالي ، الذين كانوا يستمعون إلى كل كلمة يقولها بانتباه دون أن يقبلوهم أنفسهم على حديث بسهولة ، فس خلال الأسئلة العابرة كان يستخرج منهم معلومات كثيرة عن أحداث المدينة ، حيث كان

الأمر عبد القادر في ذلك الحين يستند للقيام بعمله على عيني صاحبي ، وعن
مصلح البرود ، الذي أشيء حديثاً في تقدمت ، وعن صناعة المدفع في
تتمسك ، وعن قوة الفائل المتعلمة وموقعها من الأحداث الجارية وغير ذلك . وكان
يعرف كيف يستلزمهم من خلال الأحداث المختلفة ، فيترع منهم من وقت
لآخر هموة من هموات اساء ، ويتوصل منها بعد ذلك إلى استنتاجات أخرى .
وقدما كان ينتهي حديث من هذا النوع دون أن يحصل أثناءه على خبر له أهمية
ولو كانت محدودة ..

وأذكر أنه جاءنا ذات مساء صديق أقال يدعي بن حميد ، فأخبره
القصص قرب المدينة ، وسفاه بسجده من الرحاحتين ، اللتين كانتا قد بقيتا كما
حملهما معاً ، وكان حميدو هذا إسائاً عرب الأصور ، فقد رمت به لأقار
تسكن عرب في أماكن عديدة ، ولكنه لم تستطع القضاء عليه ، عن كونه
لأحضر من تعرض لها في حياته ، وكان اسمه الحفيظي عيسى (Genniger) ،
وقد ولد في - فاريا بمدينة - وكان لا يزال به . فيما ذكر لي أقارب في مدينة
نويورج (Neuburg) الواقعة على الحدود ، وكان جدياً في العرق لأجبية حتى
سنة 1833 ، وهي السنة التي وقع فيها أسرا في أيدي العرب أو عرب إليهم
سنة ، فسلم ، وتعلم اللغة العربية ، ويعود على أسلوب الأعراب في الحياة ،
ويصرفهم في المنكر ، وقتل شجاعة إلى حد مبدء الأمر عبد القادر في
أعجب المعارك التي خاضها مع الفرنسيين ، وكون له زيادة على ذلك هيلفا نظامها
صعباً ، وعوده على الحركة ، فاصبح كثافة كنية مدبرة من الشاه ، ولكنه سئم في
النهاية الحياة الأمريكية العقيمة ، وهرب ليتحق بالفرنسيين من جديد ، وأكد
لصحرائ دي ميشال أنه وقع أسرا في أيدي عرب حين كان جدياً في العرق
الأجبية ، واستطاع الآن أن يفر منهم ، وقد اعتبره دي ميشال طاراً من المدينة ،
وكان يسمى به الهلاك ، ولقد انت أعدده إلى الأمر عبد القادر ، فأساء العرب
معاملته وعدوه ، ولم ينفذه من الموت سوى عاطفة الشفقة ، التي عصرت قلب
سيده عندما أخبره بأنه لم يتحل عن خدمته إلا لأنه لم يستطيع سده حاجته إلى
الطعام بين العرب لقروعين ولأن اليأس كاد يهلكه .

وعندما علم الأمر عبد القادر في معركة المقطع عربة دحية ، كانت دمر
 انتصاره ، رغب في إرسالها هدية إلى سلطان المغرب ، وبما أنه كان من الصعب
 إرسال عربة ثقيلة ضخمة اعجلات عبر جبال وعرة المسالك ، فقد اختار الأمير
 في طريقه إرسالها إليه ، واستشار في ذلك المارق الألماني ، فالمغرب يتصورون أنه ما
 من أولي إلا وهو متمكن من عدة مهم ، بحيث يستطيع صنع اسداع أو بناء
 اسم كما يستطيع في الوقت نفسه حرق الأرض ، وحين يتظاهر مارق ما
 بأخيه ، فاسهم يعتبرون ذلك منه مجرد تنكر وعد . وهكذا ادعى حميدو أنه
 خير من صناعة الثغرات ، فتمت قطع العربة الثقيلة ووضع العجلات وثقة
 الأجزاء الأخرى فوق ظهور الخيول ، وبدأ رحلته إلى المغرب ، بعد أن روده الأمير
 بالمال والتوصيات وقال له «إني استطاعتك البقاء هناك إذا أعجلك ذلك . إما إذا
 كنت تحبني فليست في حاجة إلى أن ترك بالعودة» . وبعد رحلة دامت ثلاثين
 يوما وصل المارق مع مرافقيه إلى مدينة فاس ، وقدم للسلطان عبد الرحمن تحت
 العربة المغربية ، وكان يهوي انشاء في المغرب . ففتح هناك مفهى بالأموان التي
 وهب له الأمير عبد القادر ، ولكن أموره لم تسر هناك أيضا كما كان يريد لها أن
 تسر ، فأعلن إعلانه وعدد إلى الأمير عبد القادر ، فحرب به وأعادته إلى خدمته

وهذا المارق بهشوف حال على معمل البارود تسمان وكان قد عاد من
 المندية ، التي كان قد ذهب إليها بقيادة الأمير واستشارته فيما يجب عليه عمله ،
 لأنه كان قد اختلف مع ابو حميدى ، حبيبة الأمير في تسمان ، حول نوعية
 لانتاج وطبيعته فأيدى الأمير في رأيه . وكان حميدو قد أصبح امريق تماما ، فقد
 دل على ذلك وجهه المشوه الذي أسمر بفعل لحاة الطويلة الصلبة في أرض المعارك
 والآلام ، ولم تنجح في لحية الشفاء وابسته البدنية أن أعرف فيه مواضع ألماب ، مع
 أن ملاح وجهه لم تكن متلائمة مع ملاح العرب ، بحيث كان يبدو وكأنه ينتمي
 إلى قبيلة عربية بعيدة ، وعند الوداع تحدث معي بالألمانية لغزرة طويلة ، وقد ظهر
 لي أن نعمات النعمة الأم وأحاديثها عن «ألمانية» قد أثارت شرارة الحبس في قلبه
 القاسي ، الذي بدا لي لأول وهلة أنه لا يعرف مشاعر من هذا النوع ، وعندما
 خرج في مساء متأهلا ، بفعل المشروب الذي لم يتعود عليه وفعل ما كان يحس

به من أم موجه ، صاح بي «ودعا أيها السيد المواطن في لأعنيك اساميا معرب ،
لأنك تستطيع أن ترى وضئت ثابة ،أما أنا فقد حكم علي أن أموت بين هؤلاء
لقساة .»

وعندما كان الفصل يتحدث مع المارق ، استطاع من خلال الأسئلة
التيكية أن يستمد من هتات لسانه معلومات عن لأربعاء في لندن ، وعن
مثل صاعقة المدفع ، التي أنفق عليها الأمير أموالا كبيرة ، وعن موقف الأتجاد
العاصب ، الذين قرروا التحلي عن مساعدة الأمير بمجرد أن تستأنف الحرب ، ولم
يس الفصل في أثناء ذلك أن يبقى المارق من المشروب المعري الذي يفتيه
الألمان أفضل مصحح لهاب الأسرار ، وقد لاحظت عند بداية حديث مباشرة
عياب الدكتور فارسي ، الذي كان دائما يحرص على سماع الأحاديث المهمة ،
وحيث خرج المارق ، ارتفع سائر حائطي قرب لمداة التي كان حائسين اليها وظهر
الدكتور بوجهه المنحني بعرب ، وهو يصحك صيحة ضحية ، كان قد اختفى
في كوة خفية ، ويده ورفي وفلم ، فقد كان يحجبها سائر سميت ، يجمع من نسر
الصو إليها ، ولكنه لا يحول ديد وحبو لصوت له ، فكتب حديث اللوي
الأماني المحسط بحاية وعترف لما بأنه قد فعل ذلك في حالات مشابهة ، ولكن ما
تمرب على ذلك أصبح في ،مكده أن يكتب بسرعة ، واكتسبت أدماه رهافة
مدهشة ، وبما أن بعض حديث عرصة للسان دائما ، ولو تم إملاؤه على
الترتيب عن طريق شخص قوي الذاكرة ، فقد كانت احرفلانه لأمية سي كانت
تشكل مجلدا كبير في أرشيف القصلية وثائق ذات أهمية كبيرة

وقد تعود أن يزور القصل بومبا تعرب شيوع العرب ، ويحضر المندبة ،
وصياط الأمير وحمود جيشه نظامي ، ولم يكونوا يأتون لزيارته مجرد تعاطي مقهورة
عنده بجانب محب ، بل كانوا يزورونه لأغراض أخرى أيضا ، ولكن الفصل كان
يعرف كيف يستغل مثل هذه الزيارات ، بحيث لم يكن يصرف عنه صيف من
ضيقه دون أن يستخرج منه خيرا مهما ، وكانت أمنع المحطات بالنسبة في أثناء
إقامتي في الجزائر هي تلك المحطات التي كان يتحدث فيها الحاكم الحاج
بوخاري ، والخليفة الحاج مصطفى ، والشيخ محمد بوسعيد أو أي شيخ من

شيوخ بني هاشم أو مرابط من مرابطي قبيلة البرجبة النعبية ، وهم جالسون إلى المدعاة عن المحدث المأصبة ، ويرزون قصصا من حياة الأسير ، الذي كان يستمع بمكانه كبيرة في نفوس أغلبه أو يتحدثون عن الحكايات والخبرات القديمة . وكثير ما كانوا يشتكون معا أيضا في مناقشات حول الإسلام والمسيحية . وكان الفاش يشتد أحيانا ، إلا أنه لم يتسم أبدا بالحدة والمرارة ، وكان يبدو عليهم أنهم يشعرون بالسحة كما دفعنا عن ديد حرره ، ذلك أن لا عبالة المرسوس الذين تثير ستمراهم وتعضهم من أعداء حد ، وكان حديث شيوخ القبائل ، التي نسكن القبة والصحراء ، أحب هذه الأحاديث إلى نفسي تقريبا ، هناك لمناطق لا نرى مهيمنة عندما نحن الأروبيين . ولدت كتاب نيمو لي أدلى ملاحظة عميقة أثر تذكاري ، فكنت أسارع إلى تسجيل كل ما ذكره الشيوخ عن مدن الواحات وحياة سكان الصحراء ، فأستاء بعض الواحات ، التي تتوسط بحر الرمال ، لم تصل بعد إلى أوروبا ، فهناك غمام يقع في حجاب الآخر من جبال الأطلس ، لا يربط غير معروف عندما والأخبار نابع هناك من مدينة طويلة دون أن يصل خبرها إلى أشراف سكان العالم المتشد ، الذين يودون أن يعرفوا عنهم الكثير ، فقد وقعت هناك حروب واسعة ملوث عن غروبهم وأعدموها ، وأجنى أثر بعض القبائل ، وظهر رحى أدعوا أسود وحموا أن عنهم على أركاب اعزاز الدوية من أجل وهم من أوهامهم الكبيرة ، وم تعد أصداء كل ديت هضاب العليا ، التي بفضل شمس البلاد عن الواحات الصحراوية ، أم الأحبار الصيلة ، التي جعلتها القوافل ورجال التحفة عبي ، فقد أصبحت أو كتاب الخرافات العربية الذي يصعب أن يستخرج منه التوفائع التاريخية الحقيقية ونعمرها عن بقية الأحبار والحكايات العاصمة . هم بعد اليوم في إمكان مؤرخ الدكني أن يكتب تاريخا متاسكا عن بشاة بعض الحكومات في كل من ميرب ونوفرب وورقلة وعين ماضي وعمره من حكومات القبائل الصحراوية

والواقع أنه من السهل الحكم من السلطة والثروة بين القساء في سجن ، احيطت ، حينه الحوية بأسوار حصية ، لكم ياترى من طابع وطولات كبيرة ، نستحق أن نسجل في التواريخ انعطوفة بالشعوب ، أنهت هناك دون أن نخلق أثرنا

ودون أن يتغنى بها شاعر ، ويحفظها مؤرخ للأجيال القادمة ؟ وإلى أى حد باترى
بيع حرص سكان المناطق البعيدة على خلود أعمالهم وطولانهم بعد المعارك
اطلاحة التي كانت نشب بينهم من وقت لآخر .

لقد كانت رعتي في معرفة الأوضاع الراهنة لسكان الصحراء والاطلاع على
عاداتهم وسماع أخبار مدتهم ورواياتهم وآثارهم ، التي لا يعرف أصلها ، والتي تعود
إلى أرملة عمارة وتقع في أماكن قاحلة ، كانت رعتي هذه أقوى من رعتي في سماع
أخبار يرددوها الأعراب عن ماضي أولئك السكان الصحراويين ، وهي أخبار
نستحق أن تسجل ونكتبها لا نصلح لكتابة التاريخ ، لأنها تختلط على ألسنتهم
بالخرافات والأساطير والأحجية الواسعة . وقد أيدع شيوخ الصحراء في وصف
طريقتهم في صيد السمك والأسود . ورووا لنا أشياء عجيبة عن طبائع هذه
الحيوانات ، وكان من حقنا أن نصدق مثل هذه الروايات ، لأنهم كانوا يتحدثون
بصفتهم شهود عيان ، ولأنه كان بإمكاننا أن نقرأها عما رواه الآخرون عن
الموصوع معه غير أن حكاياتهم لم تكن تخلو من المبالغة والوقوع في الخطأ
والحان الخي ينجح دائما إلى التهويل والمبالغة والميل إلى المصائب يدفع كذلك
إلى تصور الأنساج والأطياف ، وبذلك لا بد من موهبة خاصة ، وتجربة طويلة ،
ومعرفة دقيقة بطبيعة الأعراب ، حتى يستطيع أن يتعرف على ما مثل هذه الأخبار
من حواش موصوعية . وكيفما كان الأمر ، فإن الأحاديث المسائية في منزل
القنصل بمحسكر تعتبر من أجمل ذكريات رحلتي وكانت الأحاديث التي سمعتها
من السيد دومان والسيد هارمي ، عن حياة الأمير عبد القادر ، وعما يتميز به
بوصفه حاكما ، ورجل دين وبطل حرب ، وكذلك عن حياته المبكرة ، كانت هذه
الأحاديث ممتعة للغاية فكثيرا ما كان السيد هارمي يدعى إلى خيمة الأمير في
ظروف مؤلفة ، لأن ابن الأمير الوحيد كان قد مرض ، فأرسلت أمه وجدة -
كان الأمير في ذلك الحين بتقدمات - في طلب الطبيب الفرنسي . فبدل كل ما
في وسعه لإنقاذ حياته ، ولكن الصمير عى الدين مات بين ذراعيه . فاستسلم
أهله وأبناء شعبه لقضاء الله وقدره كما تقضي بذلك التعاليم الإسلامية ، دون أن
ينالهم غضب على الطبيب المسيحي ودون أن يفقدوا ثقتهم في هذا الطبيب !

وبادرا ما حدث أن ارتابوا في مهنته . فقد كان هناك إمداد بمرضى عصر كل يوم بعدد كبير من العرب وذلك في المواعيد التي يستقبل فيها الدكتور فارسي ويخصصهم ويوزع عليهم الأدوية مجاناً وكان بعض المرضى يأتيون إليه من مناطق أخرى ويقطعون مسافات ، قد تبعد عن معسكر بمئتين ساعة ، وكانوا يعانون من الأمراض المفرقة التي تنتشر في هذه البلاد ، مثل مرض الجذام الرهيب ومرض الزهري على اختلاف أنواعها ، وم يسم من عذابها حتى الأطفال اصغار . وأمراض الحرارة والحرب والصلع والحراج والأورام الكبيرة ، وخاصة في الأذرع ، وكذلك أمراض ليمون العذبة ، وكان هذه الأمراض كلها ذات مظاهر متعددة ، وقد أقصى بأن الحياة الطبيعية البسيطة المرتبطة بصورة دائمة بتقوية الهواء وكثرة الحركة لا تمكن مصنف وسيطة من وسائل الوقاية من الأمراض الأساسية ، وإن الحجة المعقدة تقوم على أمراض قسوة تنسب إلى عصر أكثر حداثة ومع ذلك فإن الرحلة ، الذي يعبر أراضي الأعرب فوق ظهر حمل ولا يتمكن إلا نادراً أن لا يسكن إطلاقاً من الدحون إلى الدوار ولا يرى غير الرجال الأقوياء الذين يترددون على أسواق المدن ، هذا لرحلة يلزم كراهب ، يتحدث عن نوع من الناس الذين يمشون بالحفاك والسلامة وبهاية ، ولم يروا شيئاً من آثار من سفهم استطاعوا المحافظة على أصديهم إلى أمثال هذا الرحالة سوف يجدون من حراسهم وبما سجدوه من انطاعات ، حين يشاهدون في مستوصف من هذا نوع نعمة هؤلاء الناس الطبيعيين الذي يجدونهم ، ويضطرون إلى الاعتراف بأنهم يتعرضون رغم الطبيعة التي يحبون بالحفاك في الهواء الطلق لبعض الأمراض والأذى ، التي يتعرض لها أولئك الذين يالو حفاك كثيراً من التمدد والحصارة .

وكان من بين مرضى سيد فارسي أيضاً عدد من مرضى الزهيم فقد جاء إلى عيادته مرة أعزالي عملاق وراح يقسم له أن في أحشائه سلحفاة نعمة وتصمط داخله ولا يسمع في مثل هذه الحالات غير الدخس بل يعتقد أنه يصلح أيضاً أن يستعمل في أعجب حالات المرض الحقيقية والسيد فارسي يوافقني على ذلك إلى حد ما . دبت أن الأمراض التي يعاني منها مرضى ، إما أن تكون مرمية لتعصى على العلاج ، وإما أن تتطلب علاجاً طويلاً . ولكن

الأعرجي لا يستطيع أن يتحرك قمرًا بشأن ذلك ، لأنه قبل الاهتمام بأموره ، مهال
إلى البهائم والتراخي ، مؤمن بقضاء الله وقدره لا يعرف شيئاً عن طرق العلاج
الطبية المعروفة عندنا . فهو يعتقد أنه إذا لم يشف من مرضه بعد ثلاثة أيام من
تناوله للمشروبات أو للأقراص ، فإن ذلك يعني أن الهواء لا فائدة منه ومع تقدري
للدكتور هارمي وعبدلي عما يبدونه من تصحوة وتعال في خدمة مرضاه ، فيدفع
من هذا المريض إلى ذلك ، ويبدأ بمساعدة الترحيل عن جميع الظواهر المرضية كما
يفعل طبيب السليمي في أوروبا ، ويصفي به ويصف له طريقة العلاج ويقدم له
ارشاداته ونصائحه ، مع تفديري لكل ذلك بعد كثر على يقين ، مثل الدكتور
لمصنف نفسه ، من أن تلك النصائح من يعمل بها أحد إما أن تصبح الأعرجات
، العدة سطة أهيم وحميتهم من الرطوبة وبعديتهم تعدية كافية يشبه من يخلص
في جمع من الصم ، مهما كان المرضي أنهم ينجون على مثل هذه
إرشادات . وكان مرضهم أن يستلموا منه فذرة محبوبة ، تحوي على مريح ما ،
بعد كانوا يصورون أنه صاج يداخله جميع الأمراض وأنه يحمي صلاح الدين ومن
يؤكد أنه سيد هارمي كان يعرف مع نفسه أن عجالات ممارساته الطبية لا تفيد
الأهلي هائلة كبيرة وإنما تعد انفصل ، ويقدم تبع لذلك خدمة كبيرة
للمسألة المرضية ونهوي مركزها هؤلاء مرضي يشقون في هذا العنصر أكثر مما تنق
فيه عن أنفسهم وكان عدد من قد اعترفوا بحيل الطبيب الرومي ورجحوا بنون
عنه حتى في العائل البعيدة ، وهو ما نرى بينهم انطباعاً حسناً عن المرضي
الحير ، فقد كان أولئك الذين شعروا من أمراضهم أو جمعت عنهم الآلام يعمل
طبيبتهم البعيدة ، وسبوا بعد ذلك بحس حالهم إلى الأدوية التي أعطيت لهم .
يكهون الدكتور على معالجته بهم بأحد مشوعة عن دخل البلاد ، فكان
أصل عيون الفصل من بين مرضي الدكتور هارمي أ

وعاليا ما كانت تحصر إلى عبادته أسماء الأعرجيات ، ومن بين فتيات
بافعات ، برفقة ابائهن أو أرواحهن ، ولم يكن يستعمل الحجاب ، شأن في
ذلك شأن بقية الدويات ولم يمتنع عن الكشف عن أذرعهن وأرجلهن
وصدورهن . ولكن الجميع ، رجالاً ونساء ، كانوا يرقصون إظهار الأعضاء

الناسلية المريضة ، رغم إخراج الطبيب هيبهم وتكيدهم بأنهم لا يستطيع أن يشخص المرض ويقدم لهم العلاج المناسب إلا إذا هم كتموا عنها وكان يروى لي أن أنامل يوميا مجموعة جديدة من هؤلاء الأشخاص بتمساء الذين كانوا يجلسون مع أقاربهم فوق الحجارة المصروفة إلى أن يتم محصلهم من طرف الطبيب ، وقد جرت العادة أن ينفذ المترجمان من عمران وعياش ومما شاذ من محار للحياة ، عبد ساب ، ويصاهران باللامبالاة ، ولكنهما في الحقيقة كانا يلتفتان أحاديث الأعراب ، فعقب بأدهاهما بحكايات وكلمات مسلية ، منها مثلا حديثهم عن الطريقة التي وصل إليهم بها مرض البرص ، فكنا يروون ذلك لكل صيوف الفصل ، وهي حكايات مفرقة ، لا مجال للمحدث عنها ها ها

وقد عاصر الدكتور فارسي معسكر باء على ما سمعته من الأخبار متفجرة ، في ربيع سنة 1839 وسافر إلى مرسا ليكتحق منصبه الجديد في مستشفى عسكري وقد أسد إليه هذا المنصب الذي يعتبر بالنسبة له الخطوة الأولى في طريق الترقية ، وهي مثل مكافأة وزارة الدفاع له على الخدمات التي قدمها بلاده ولا أعرف شيئا عن المصيب لدى السجل بالقصبة حلما له . إلا أني أعفد أنه من الصعب تصور على رجل مساك من جن الأتباء العسكريين يصبح هذا منصب ، فقد كاتب سيد فارسي شخصيا ، تميز وكأنها حلفت ليكون ها تأثيره الكبير على الأعراب كان قوى الجسم ، عريض الكتفين ذا ملامح ، لم أعرف في حياتي أعرب منها ، وعليه طويبة كثيفة تعتبر ربة صروية في هذه البلاد ، وكان الفصل يشبه ملامحه ، وهو مصيب في ذلك بسا يظهر في ، ملامح خوراني ، كان قد رآه في باريس في أيام شبابه وروى لعل يفرض من أن طيبا حر غير متزوج وبه ملامح أقل عراية ، ما كان ليحظى بمثل هذا الإقبال لقد كان في استطاعة الدكتور فارسي أن يدخل المنطقة كلها في طمأنينة تقريبا ، لأن أساس كانوا يعرفونه وكانوا يحترمونه مهبة الضيافة كل الاحترام ، ولكنه لم يكن يجرؤ على الاعتماد على المديونة بأكثر من ساعة دون أن يرفقه أروبيون مسلحون أو دجل

عربي ذلك أن أعرب هذه منطقة يكافون على التصحية الخاصة بمكران

الخميل ! حتى الذين شعوا من أمراضهم كانوا يعطرون بن اسود طارسي بخره
 السي لباس إلى اعراب ، اندي قدم له الطعام اسجدة خشبة طه ، وكان
 لأعراب الذين يأتون لاستشاره لطيب في سابه الفصلية ، يأخذون الأدوية مع ،
 ثم يذهبون دون أن يوجهوا إليه كلمة شكر ، وبكهم كانوا يمدون أكثر بعد وتذو
 إلى حد ، حين كان الدكتور يذهب إلى دارتهم في الدواوير نفسه ومع ذلك
 فإن اعترفهم بحمده لم يمنع حدا كبيرا من العمق كما أن ترحيلهم له لم يتطلب
 على عواطف لكرهية التي يحمونها بمسيحيين ، فقد كان بين سكان الدواوير ،
 الذين يرددون حبه في مثل هذه اريارات ، ويعطرون بن طمعة العربية بنبيء من
 ارضه ، من يدو في عيه الرغبة في التحصن مع ودا كان م يحرص به اعرابي
 م . ويطلق عليه سر أء عودته مدفوعا بعصه وكفه به ، فان ذلك لا يعود
 بن حترمه هذه نصب وسعوره باهيه حين شخصه ، وانما يعود إلى اعتقاده
 به قد يكون في حربه بن مساعدته في يوم ما "

كان حرج حري ، عشرين الأمير عبد القادر مد أهام شابه وأخلص
 أبا عه . هو حجة مذهبه معسكر في ذلك الخبر وكان يسكن سرا عادية ،
 يقع في شارع حسي ، ويكه كان يقضي صحابه يومه في دار الفصه . وكانت
 قاعة الاستقبال بها أربعة ، يقضي بن رحمه ، تمام فيها دكا كين الصنائع في أهام
 الأسوي . وكان الحاكم يحس في عرته سيهه ، لا تتسع لعشرين شخص ، وفي
 خضيرة من نصف ، وحوله حواريه أو كدبه . وكان هناك حواري مئة شواش ،
 يقفون عادة أمام المدخل أو قره ، وأيديهم عصي طويلة ، يعطرون أوامر
 سيدهم ، ويمثل وضعهم الرئيسية في معرب بالصفة ، وهم يؤدون هذا العمل
 بسجاء طوعا ، وإذا ما كان يمر يوم من أيام اسوق دين أن نورع فيه بحماله
 صربه وعندما يرى لمرء هذا الرحل ، اندي يصدر مثل هذه الأوامر ويحضر
 تنفيذها معه ، يقع بأن عجب المرأة لا يقدم ب أي معيار لمعرفة حتى أفراد
 هذا الشعب ، فقد كانت ملاحح مدح بوحاري تسم عن الطينة وورع صورة لم أر
 لها مثيلا . كانت ملاكته تشبه تلك الملاحح اثناليه ، التي اعتاد رساموها أن يظهروها
 على وجه يسوع المسيح حفيظة لم يكن له وفاره اقدس ، إلا أنه كانت به مغر

الورقة ، وحملته الوديع ، وناسق ملاحه وشكل لحبه ، ولم ينفعه غير شمره الضويل . وكان الخاج بخارى يشبه سيده عبد القادر إلى حد كبير ، وهو ، ما أكده لي جميع من رأوا كلاهما ، ويحضر ما بينهما من فرق في أن ملاح الأمير كانت أكثر ناسقا وشجونا ودكاء ، ولكن الخاج بخارى كان يتمتع من جهة بحسب قوى حيل ، وهما رميلا من أهام الصنعة . وقد برهن الخاج بخارى ، أثناء محر كثيرة ، على مدى إخلاصه الصادق للأمير عبد القادر ، لقد وقف إلى جانبه في أشد الأزمات التي تعرض لها .

فعندما جرح الأمير وسعد عن فرسه في المعركة ، لمي خاصها ضد مصطفى بن استدجيل ، أسرع إليه الخاج بخارى ليحميه بحده ، وأحضره به كذلك في معركته مع موسى الشريفي^{١١٠} وكان فوق ذلك واحدا من الكبار اقلان ، انتهى لم يترددوا في مساعدة الأمير بعد احتلال الفرنسيين مدينة معسكر ، وكان الخاج بخارى صيف ريف في حديثه مع المسيحيين والعرب على حد سواء ، وإذا كان قد جعل نصف دورها النصب في إقامة العدل ، فلا يعني ل أن يأتع في سنامه بالشدة ونفسية ، فإن شمه نصه لا يعترف بأي عقاب آخر غير عقاب العدل ، والحرب يحدون إقامة العدل هذه الصريفة .

لقد ستمنا نحن المسافرين الثلاثة مقبلا حيا كما يتنصر من مثله من حاكم عرقي ، وبركاد بعد أن أحربا معه خلدن مطولا ، سحرنا خلاله بلطفه وحسن معشره ، إلا أن مازد هار ، كان حيا في عرفة الخاج بخارى ، أخبرني حين قدمت إلى مستعجم بعد شهر ، أن الحاكم كان ، بعد أن ودعنا بحراة وأصرها عنه ، قد صرح حيف بكرة شديدة مستعملا كلمة « كلاب » ، ولعله فعل ذلك ليضع من حوله أن تنطعه مع بكفار لا يتعدى حدود المعاملة !

ولم تكن توجد معسكر قبل حملة المارشال كنيون غير بداية واحدة جديدة بالمشاهدة ، وهي قصر باي المقاطعة السابق ، وكان الأمير قد سكن هذا القصر بعد طرد الأتراك ، إلا أنه أصبح بفاصا منذ ديسمبر 1833 ، ولم يحرص الأمير على ترميمه بل مع حتى من إزالة الروم عنه ، ولم يعد من حق أحد أن يسهه ،

وكان من الضروري أن يبقى على حاله هذه لأنه إذا قصرنا منعونا مد أن وجه الكفار وكان الأمير نفسه قد أقسم ألا تخطأ قدماء أرض المدينة بعد أن دستها أقدام لصبرى . ولم يحل نفسه ، فكان يسكن حينه خارج المدينة كما جاء إلى معسكر .

وكان القصر المذكور ، حسب ما تدل عليه بقاياه وباء على ما ذكره من شاركوا في حملة كتلون ، بناية مهمة إلى حد ما ، إلا أنها لا تستحق أن تشارن لا بأجل البساتين العربية في مدينته الخزان ولا بقصر ابني في قسنطينة . هذا القصر رواق صغير ، هو الآن عبارة عن حطام ، وكانت جدرانه معطاة بالحرف لأرق ، ولكن الجود الفرنسيين برعوه عن أماكنه على سحائهم ، وبشروا قطعة من فوق الأرض ، وهي لا تزال في اليوم ، ولا يتبقى لمرأ جدرانه ليصل إلى غرفة شجرة دون أن يحرص حياته للحضر ، فكثيرا ما تنهر أرضيتها تحت الأقدام ، وقد اتخذت لشاهي مسك له بعد اسحاب الفرنسيين ، وأصبحت جدرانه المدرجية عروشا وساحة لطير معلق ، التي بنت أعشاشها من العادورات وأصبحت تلفلن بدهشة كلما صعد إليها الآن رائد ناصر ، ويعتبر الملقن حائرا مقدسا عند العرب ، يسكن بينهم في أمان ، ويبدو أنه يمنع عن الصيافة عند جميع الشعوب ، عند هود والمسلمين والمسيحيين على حد سواء ، ويعتقد عرب الخرثر أن طيور اللقلق كانت في السابق أولياء ومراطين مسحهم الله طيورا بسبب الأثم الذي أركوه " " هناك مجموعة كبيرة منها تسكن كل لبساتين القديمة ، وخاصة مقرب المساجد حيث تقف قرب اهلال بمثابة الحراس ، وهذه طيور من النوع العادي المعروف باليلارح أو اللقلق الأبيض أما اللقلق الكبيرة التي تعيش في أعماق اهرقيا فهي لم أر لها اثرا

وبل أثار القصر ساحات وحديقة مسورة ، وكانت ساحة الكبيرة محروسة مستعملة ، فأحدا تسلي فيها صيد طيور الشاهي التي كانت جاسدة فوق جميع الجدران دوما خروف ، أما الساحة الصغيرة فتوجد بها اصطبلات حول عهد القادر وخليفته في المقاطعة الحاج مصطفى بن التهامي ، وم أر من قبل الأمير مح ثلاثة جهاد عادية جد من بينها جواد رمادي اللون كان عهد للقادر قد استطاع

ظهره أثناء دخوله إلى معسكر عندما تابعه سر هاشم وهو يرتدي برنس رنا ولا يملك غير نصف بوجو ، وقد كبر هذا الخواد اليوم وصعب وأصبح غير صالح للمركوب ، ومع ذلك فإنه لا يزال يبالى حصته لوفية بومب كما كان يفعل في السابق ، وذلك مكافأة له على خدماته السابقة التي أتاحت له أن يقضي الآن أيامه الأخيرة في هدوء قرب مكياش الشجر والحناثش الجديدة ، أما الحروب الجديدة ، فقد أحدها الأمير معه في المدينة ، ومن جعلها حوادة الصحراوي الأسود ، الذي يبلغ عمر وثلاثة ستة أقدام وعرضها عشرة أذرع ، وكان قد أدهش مرافقي الحرس بوجو نشاطه وحبوبه جهاته ويعد أربع حود في البلاد كما يعبر الأمير أيضا أفضل فارس وكان تحضر في الساحة نفسها معانم ألبه ، كانت تملو قلعة ، قبيلة الزويش حربة ١١٩ .

وكان يقصص دومانس قد استأجر حديقة قصر ، التي كانت حاله من الأحرار وتحتوي أعشاب غنية ، وقد استعنت مرعي لخيول القصبلة وحدثت سدي حربي في حيرة مثالا « كان حديقة القصر في أيام الشاي محمد مظهر آخر ، فقد كانت أحواض الزرع فيها مقسمة إلى الأحرار والأشجار والمصر ، وكانت هناك في كل روية دجوة ، سقطت مياهها في حوض مرمرى أحمر ، كما كان هناك حمام كبير في وسط الحديقة ، وكانت لمرسل تخرج فوق هذه المروج ، لقد احتل كل شيء منذ أن أعيد الأتراك على المدينة ، فلم يهتم بها أحد بعد أن دمرها بو هاشم ، ولم يحرص عليها شيء لأن السياسيين لم يعودوا يلقون أحورهم وما أن جاء الفرنسيون أحيوا وسكوا القصر حتى يسبب الأشجار ، ولم يعد يسو فيها غير الأعشاب » ، وكان يبدو على انساني بصلق فيما قلده ، فقد يست أشجار البرتقال ، ونصبت مياه الدهورات وحملت سور الحديقة بروجف وسقارب دون أن يحاول أحد إعادتها .

وكان هناك قصر صغير لنادي السابق ، يقع في الجنوب خارج المدينة ، وكانت حالته تشبه تقريبا حالة قصر الأمير المهدم ، فقد تم فيه وتخريبه على يد قبيلة بني هاشم ، التي كان على الدمين ، أبو الأمير عبد القادر ، قد جند لها لهرود

الأتراك وكان الطريق المؤدي إليه والبستان ، لندي يحتوي على أشجار السجيل
 ورمال والحروب ، أحسن مترو في سواحي معسكر . وفي بوقد حثان موريس
 لنصر ، وكانت هناك حكومة من الحجرة تحدد مكان فيه ، وموريس هذا معبر
 من بوقارليك ، كانت قبيبة محبوط قد أسره سنة 1836 ، وعدت عذب أيتها ، ثم
 حملته إلى عبد القادر ، فموس معاملة حسنة أثناء إقامة الأمير معه في معسكر ،
 وبعد ذلك بدأت حياته تتدهور نتيجة العز والوسوء المعاملة والحين إلى أهله ،
 وعدم رآه صاحب البحرية الأسير دي فرس ، كان هذا رجل ، الذي كان في
 ساسي يوصف بالحمال والرويق ، قد دبل ، ومات بعدها لرميله في انشقاق بروسا
 مهترنا ، حمده من فر نيل وربما أنقذ حياته أيضا . وكتب دي فرس بحدنا
 بذهب من نصير الأتيم ، الذي انتهت إليه حياة موريس الشفي

ولا يتجاوز عدد سكان معسكر حارب سبعة آلاف نسمة ، من بينهم
 خمسة آلاف حصري . تحمل تقاليدهم مكانا وسط بين تقاليد العرب والمصرية ،
 فهم يعيشون منهم في محلات الشحار والصبعية وكثير نغاسة وكسلا ،
 وأقل نظافة ومحالا وبعث ، ونعصهم يصمون فوق رؤوسهم عمام رديئة ،
 ويكتفون أحيانا بحيط من شعر الجمل ، أما أبناء المدينة الأصلاء ، ويمتازون بلباس
 لشرة ، وسيل الملاح ، ونظافة اللباس ، فلا يصل عددهم إلى ألف نسمة .
 ويتراوح عدد اليهود بين ثلاثمائة وأربعمائة نسمة ، وهم يرتدون على عرر يهود مدينة
 احراز البسة سود ، ونسب الأبناء الشرقية ، غير أنهم أكثر فقرا ونعاسة منهم ، فم
 من حادثة ، لا ونكون سببا في هب يورهم ودكاكيتهم ، وقد قتل عدد كبير منهم
 فل أن يحيى جيش الأمير عبد نقادر عن معسكر بيوم واحد ويهتسي بقية
 السكان إلى كل الطوائف الاخرى تفريها . فهم حيط من القبائل ولربوح
 والكراعة ، أما الأتراك فقد اختفوا من مدينة معسكر تماما .

وبعد احتلال معسكر من طرف الفرنسيين — وهم لم يعرفوا المدينة
 اطلاقا ، عن العكس مما جاء في بشرة كمنونين ، وإنما هدموا قصر الأمير ، أما
 البيوت الحجرية والطيبة ، التي لم لتيجها البسة لبران ، فقد تركوها على حافا
 نمسة متداعية — نفس عدد سكان معسكر مد ديسمبر 1835 بحوالي ألف

سنة ، إذ أنقل معظمهم إلى بغداد ، المدينة المهددة التي أنشأها الأمير عبد القادر في الجنوب الشرقي من معسكر ، ومات بعضهم في الحال جوعاً وسماً أو انتهت حياتهم على أيدي القبائل ، ومع أن مدينة معسكر تعتبر أهم مركز في المقاطعة ، فقد كانت قبل الحملة العرسية قرية فقيرة نعمة ، كانت مدينة بدوية حفيظة ، مدينة متفهمة تستعصي على التدمير ، كما هو الحال تماماً فهي ، إلا مكان نقل الأمور والمصانع من الحال في ساعات معدودة ، وحشد لا يبقى للمناجح عم الحجارة ، فإذا هو صلب عصبه عليها وسماها على نعامها وعدم استحقاقها لذلك ، فلم يحضر مكان مدينته بكثير ، وفي وسعهم أن يقيموا خلال أشهر قبيلة معسكر بمثابة ، ونكس أهمية معسكر في وقوعها في مركز المقاطعة ، فهي تبعد عن الحدود الغربية خمس أميال التي تبعد بها عن مقاطعة البصرة ، ومن استطاع أن يواصل احتلاله ها ثلاثة آلاف رجل ، هم على استعداد دائم للرحيل ، شريطة أن يكون بينهم أرحمائه أو حشده فارس ، فقد أصبح في وسعه أن يستولي على أهل سهل في المقاطعة ، وهما سهل إعرس في الجنوب ، وسهل الشمال الخصب الخصيب الذي يزرع اسمه ثلاثة مرات ، مدعى من طورا ويدعى هوة أو سوير طور حر ، وهو كان المارشال كلوزيل قد أحل سنة 1835 معسكر ، عوض منسك ، ورس إيبا فيما قويا ، ليقوم بالإعارة على مواجها وسفل في روعها ، فلو كانت قبيلة هاشم في سهل إعرس ، وقبيلة مينة على صفاق بنسب ، وكذلك فئة من عامر والعربة ، قد فعلت ما فعلته قبيلة البرجية ، من تخليها عن الأمير عبد القادر ، فهذه القبائل ما كانت ، مهما تبع أثر حطت أمير الحماسية في عرسها ، ومهما تبع حقد على الفرنسيين ، فحل في سهولة ويسر عن أماكن إقامتها ونسبها بمناطق تقدمت الجرد ، ومن المؤكد أن كانت متقاوم بشجاعة صعبة أشهر ، ثم تقع في نهاية بعدم حدود هجمات على الفرنسيين المنحصرين في معسكر ولم يبق لها بعد ذلك إلا أن تحو حصر الدوائر والرمالة ، فتحد إلى مفاوضة الفرنسيين ، ولو لم ذلك لأصبح الأمر اليوم لاحقا وحيد مثل أحمد باي ، ونكاك عنه حشد إما أن يصمم إلى الفرنسيين على عزاء ما فعله ماضيه مصطفى بن اسماعيل وإما أن يهجم على وجهه مع عدد قليل من المتطهرين ، وهو في بلاده أشبه برئيس عصابة منه بأمر

يقام سوق معسكر في ميدان فسيح هاجتها المعروفة باسم باب علي
 خلال ثلاثة أيام في الأسبوع ، يوم الجمعة والسبت والأحد ، وهو أكثر الأسواق
 التي رأيتموها في الجزائر كلها حركة وبشاطا ، وكان عدد البويع المتجمعين به يزيد
 بعشرة أضعاف عن الأقل عن عدد الباعة الذين يترددون يوميا على سوق باب
 عزون في مدينة الجزائر ، وثلاثة أضعاف عن عدد رواد أسواق المتيجة المهمة ،
 وكانت كمية البضائع الواردة من داخل البلاد فيه أكثر من كميات البضائع ، التي
 تأتيها في الأسواق الأخرى ، فقد اشتري ريش العائم ويصنعها بأثقال رخيصة ،
 وكانت الثمر فيها صغيرة الحجم ، مشوهة الشكل ، ولم يكن لها مذاق الثمر
 الموسمية والمصرية . أما حلوى الحبوب الحبية مثل الأسود وعبود ، فلم تكن
 نوحدة بكرة ، وكانت عالية الثمن نوعا ما ، ولا تحمل إلى سوق معسكر كذلك
 نكت الكمية الكبيرة من عسل والشح التي تحمل إلى أسواق مسطية مثلا ،
 وفي مقام ذلك يوجد فيها بضع بكرة وتعتبر بصفوح وحبود لأنعام أرواح
 البضائع ، في حين أن محبوب لا تعرض في السوق إلا في موسم الحصاد ، ومع
 أن الأمر قد صعب رعيه من بيع الحبوب بمرسين ، فقد عرضت عليها جواد
 حمية ، لا يريد نخب عن مائة وخمسين نوحو ، وعدد الحمل في مقطورة وهران
 يزيد كثيرا عن عددها في بقية أخرى المناطق لأخرى

ومشاهدته سوق معسكر لا تختلف عن مشاهدته سوق بورديك وسوق
 الحبيس ، إلا أن وحي رود سوق معسكر في مجموعهم بأنهم يعملون بالحربة في
 بلادهم ، جعلهم يتصرفون بحرية أكثر ، ويطلع عليهم مضر شيفا فقد كانت
 هذه السوق ، التي تكاد ماحتها تدع مساحة نصف مساحة مدينة معسكر ،
 تجمع بشخصيات عربية ، مسخرة الوحود متحبة ، طويلة القامة ، قوية
 العضلات ، يرتدي في أعالي أردية سوداء فضفاضة ، وتجمع بين المشعورين
 والفصاحين والمهين ، الصبيان ولراقصين ، والموسقيين ، والعرايين ، والباعة
 والشرية ، والكسالي ، وكلهم يؤدون أدوارهم في ملهارة الأسواق الحربية العادية !
 وهذا ما يحدث بالبلات يوميا في أسواق الشرق بالقاهرة ، فقد تحدث عن ذلك
 لرحالون المحدثون ، وبكهم أشاروا إلى عارق واحد ، وهو أن العلاحين المساكين

والضحايا يستسلمون هناك يدافع اليأس إلى مخرج من المرح مثل الصيد السور
في كونا ، الذين يصرون لطوبى في المساء ليرجعوا بها عن أنفسهم بعد انصافهم
اليومية المرهقة !

إن العلاج مسكين يشهد سوط سيده الضخمة التركي في نفس الوقت
لدي ينظر فيه إلى ألعاب المشعوذين ، في حين أن أعرب الأمير عبد القادر ،
وهم رجال محاربون أمة أقوياء ، يسرون مرعوي الرؤوس ، وكانهم سيوك كنهم ،
عبر الرحام ، ويصافحون ضيوعهم ومراجلهم كما يصافحون أصدقائهم ، وهم
محمون على أن اللصوص وحدهم يستحقون انصاف الحقيقة ، أما إذ أعندى قائد
أو قاصر على الأبرياء وأساء معاملتهم كما حدث في مصر ، فإنه يجرى من سنته في
الحال ، ومحكمة الأمير معه على مكانه مرهوبة تمسكه بأصانته كما هو عربي ،
وحرصه على نشر العدل ، وكسبه يوده عشالره ، إن إطلاق اسم «الأميراطورية
العربية» على حكومة محمد علي في مصر ليسو كشافة سحرية مريفة ، فائلا حول
يتحفظون هناك في أوجس ريب ، وهم عرافة حذاع وفطيع من العبد اسلدين ، في
حين أن لادة الأبرار يعيشون عيشة راحية ، ويحمون عما يبدله الصلاحون
انصاف من عرق الحين ، ثم يصور هذا الوضع بهمة القوم العربية ، وساء
على هذه الحقيقة كما يستطع أن يظن على كونا ، واناريسيت وتكاس ، وغيرها
اسم الأميراطورية ارحه ، وتحدث هذا ذلك عن عمال السكر الروح اسهوكين
وعن احمد ، لدي دونه ، مشاكلهم أعني المستعمرات فوق الأرض ، فقد طردت
هذه لعنات العنانية ، هذه سلاوى نصيرية ، التي استطاعت أن تعيش في بدع
بفضل المعارك حرة ، التي حاصها العرب وندوا من ويلاب — طردت الأبرار
من شمال إفريقيا تماما ، ذلك أن أحمد مهدي م بعد العرب أندا ، وقد برمو الساحل
في ليبيا وأحصوا في تونس بالأهدى ، وكان يحكي انهم في يانه الخرائر وكان الأمير
بعد لقادر قد رحد صسطه ومطلبه من العرب فقط ، ومن ثم فإن أحدي في
لينة أفضل رؤية هؤلاء العرب الأداة ، الذين يحاولون في معسكر وعمومهم تلعب
بمقنعة ليرة ، وحب الحرية ، رغم قسوتهم وندتهم ، على رؤية دلاحي صراف
لبل الأداة ، الذين ينصفون رعب بالأراضي الخفصة وسبب العنانيين تنهب
صهورهم !

نقد أنفسى حديثى الأول مع الفصل دوماس باستحالة قيامى برحمتى إلى القبله واصحراء دون أن تكون لدى رحمة من الأمر فقد كان الخليفة الخاج مصطفى واحكم الخاج بخاري سبني نطن وكان يحارب استنكار عبد القادر لعن من هذا النوع كما كان يبدو عليهما أن موقفهما من الأوروبيين أسوأ بكثير من موقف الأمير ذاته . ورفض كذلك قريباً الأمير ، وهما عنه ، ندى يسكن قطعة سيدي محي الدين ، وأخوه ندى انجد نفسه صومعة في كاشروه ، استعان بمودم في مساندة ضلبي بدعوى أن طبعهما الدينية وتبعدهما لا يسمحان لهما بالتدخل في مثل هذه الأمور الإدارية ، وأشار علي بالانصاف بكبار موصلي المقاطعة وبعد أن حلت هذه الأمر مع لفصل فترة طويلة ، وساءت معها عما إذا كان من المناسب أن أقدم إلى حاكم معسكر توصية التي يراد بها لما رشتان فاني ، والتي يمكن أن يهد من سوء ظن الشيخ ، فحرب في الهيئة أن أعرض عليه هذه التوصية ، لأنها تحدد هدف من رحمتى بدقه وتتيح لي قسراً من الاحترام والاستقبال الحسن على الأقل .

وقرأ احكم توصية دساة ، ثم قدمها بكتابه الأول ليقرأها سورة ، وذكر خطه . وبعد ذلك سألني عن رحمتى فطلعت منه أن يصنع تحت نصري حرساً ، يراقبني في المناسبات ، ولكنه رفض ضلبي هد في أدب ، وفهمي أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دون إذن من السطون وعددت أخبره أن لدى رسالة أخرى إلى الأمير عبد القادر نفسه ، وإلى أربع في السمر إلى مدينة لأقدمها له ، وأطلب منه أن يرحض لي في السمر إلى داخل اسلاد ويضع حرس تحت نصري ، فأحاسي الخاج بوحدري بأن السطون أمراً ألا يسمح لأي نصري بالسفر إلى مدينته ، إذ هو لم يكن يحمل رسالته سياسية ورسمية ، يضاف إلى ذلك أن الطريق إليها يمر عبر جبال ، تسكنها عائل ، لا يستطيع عدد قليل من الحراس حمايتي منها ، ويصحني بإيقه في معسكر من أن يحضر الأمير بمعه ، وأعلن عن استعداد له لوضع حرس تحت نصري لزيارة وحي معسكر كلب رعيت في ذلك وحيث لم يبق لي اختيار آخر فقد كان جواب الخليفة مثابها لجواب الحكام تفريها . وليس خافاً مدينته الحرائر أية فكرة عن مدى صعوبة التغلب على ارباب

رحل الأمر ، فهم يرون في كل قادم مهدداً عربياً متكرراً ، يريد أن يصنع رسوماً وحرائط عن أحرار البلاد ، التي لم يرها الفرنسيون بعد ، هذا من رحالة أروقة إلا ويحمل معه ، في تصوره ، خطة سرية خطيرة . فهم لا يستطيعون أن يتصوروا الأسباب ، التي تدفع معظم الرحالة الأوروبيين إلى القيام برحلات استكشافية لا تنحصر من خطر وعاء ، لا يستطيعون أن يعرفوا شيئاً عن رعايتهم الشديدة في الوصول إلى المدن ، ثم يتحدث عنها بعد رجعة آخر ، ولا عن ذلك حين ، اندي كثيراً ما ينور بشكك عريب في أعماق بعض يستاء الثقافة ، ويحملهم على إضافة لغة أخرى إلى صرح المعرفة الإنسانية ، ولا عن ذلك الشعب العميق ، سمر الذي يستند برحالي ، أمثال هوردي وهوركهانز ومويو ، وبارك ، حين يعودون من رحلاتهم بضويلة المؤنة إلى مدائنهم ، فلا يدعهم يمشون بالراحة والهدوء في عالمهم المهدد ، وقد يدفعهم صورة مستمرة إلى الإقامة بين الطوائف المختلفة والإقدام على معادرت جديدة ، يتقرب في سبيلها حتى يفهم ، ان العرب لا يؤمنون شعب من هذا النوع العريب ، لأنهم لا يعرفون طبيعته !

ثم يتجاوز سفيث دوماس والدكتور هارمي في برهنتهما إلى مسافة ساعتين جنوب ميسكر . وقد حوّل الأخير بحث الحصول على رخصة من الحاكم ، تمكنه من زيارة حمام وجبسية ، الذي اشتهرت مياهه المعدنية بين الأهالي لما كان من فوائد صلبة ، ولكن الحاج نحاري كان يجد في كل مرد ما يتدرج به ، فعد به عن استعداداته لأحضر المياه المعدنية إلى كان في حاحه بها لعلاج مرضاه ، وشغل الطبيب أيضاً في الحصول على رخصة من الخليفة . وهكذا لم تعد لا الهدايا ولا الخيل ولا غيرها في التعبد عن عدد هذين الشيوخين وعلى سب رفضهما لا يعود إلى أربابهما أو كرهتهما للمسيحيين بقدر ما يعود إلى خوفهما من أن تسقط عليهما قبائل التي تسكن في داخل البلاد ، وتنهضن بأبهما أن يحا للفرنسيين أن يتجسسوا على البلاد ويدسوا أضرحة الأوباء بأرضهم بها ومن نقاط الضعف في حكم الأمر ، الذي أقيم على المشاعر الدينية القوية ، أن رعاياه يسيرون فهم أية هامة للفرنسيين إساءة لا مبرر لها ، وأن صوت مرابط واحد متعصب ، ينجم الأمر بعضاً من هذا النوع ، يمكن أن يصنع خطر عليه ، وه يمكن للحكام مدينة

الحرائر أى تصور عن هذه لعقبات ، التي حالت بين وبين تعبد مشاهير
الحميلة ، فقد كانوا يعتقدون أن في وسمي أن أصل دون عائق إلى ثلث البلاد
المجهولة ، التي تقع بين محدثت لأهل الحوية ناية الحرائر وبين الصحراء ،
بل كانوا يرحلون بالتأخر التي ساعدوا بها من هذه الرحلة الشاقة ، فقد تفتت في
معسكر رسالة من السيد غويون (Guyon) ، الطبيب ، لأن مهنة الأركان يهشي فيها
بالرحمة التي شرحت في لقيام بها ، ويشجعني على التوغل في الصحراء إلى أبعد
حد ممكن ، وبكم أصبحت أثناء تناول الطعام عن مائدة القصر ، نصورات
كبار موظفي الحرائر عن سهولة التنقل في أقاليم الأمير عبد القادر

كان قد بقي في أمل واحد ، وهو أن يصل الأمير نفسه . لقد كان عبد
القادر أنجي من رعيه ، وأسمى كسنت من شيوخه بحيث إسمي م أيام مطلقا من
أمكنه الحصول على رحمة من وحرر بمكسي من القيام برحلتي ، فقد كنت
أعرف أن الأمير كان قد عرّض حياته على السيد بيبي ، الذي أدعى أمامه أنه
عالم متخصص في عدد ، برعب في القيام برحله إلى الجبال ، ولكن بشوب
الحرب من جديد حتى يسهل ويس لقيام برحله هذه فاتفق بعد ذلك السيد
ببروجير (Borbrugger) عبد القادر لسمح به بريرة آثار القبلة ودراسها ، ثم
اتصل به الدكتور بوديشون (Boudichon) برخص له في جمع النباتات والأعشاب
الطبية ، هوعد كلاهما بتقديم جميع لتسهيلات الممكنة . حقا فقد بقي كل
ذلك مجرد مواعيد ، وكان هذان السيدان قد ترددا بدورهم في القيام برحلتها إلى
جبال الأطلس في داخل البلاد ، إلا أنه كان من المعروف أن يتم احتشار الأمير من
خلال الرحلة ، التي كنت أن أبوى القيام بها أبدا ، وذلك لمعرفة ما إذا كان في
الامكان الإعتماد على وعود عبد القادر ، و لم يكن هناك ما يحمي من القيام
بتلك الرحلة في الحين ، فقد كان في وسمي أن أكثرى الدواب من معسكر
وأبعت في طلب الحاجيات الأخرى من وهران بسرعة وفكرت طويلا في الطريقة
التي أعرض بها على الأمير عبد القادر حسي ، وفي الكيفية ، التي أكسب بها
مودته أو أثير بها فضوله أو طمعه من خلال مشروع ما فيهم هو بعينه هذه
الرحلة إلى داخل البلاد وكنت أتصور أن عبد القادر قد يكون أقدر من رجاله

على الانتهاء بصراخ بعض المنصين العاصيين من سكان الخرب : وضع
حرسا تحت نصري وهو ما لا يجرى عليه مرسومه ، فقد سبق له أن تحدى أكثر
من مرة المراتبين المتمرسين والقواد والشيوخ المحاربين ، وتحامل معارضتهم له عندما
وقع معاهدة الصلح مع الفرنسيين . وكان فوق ذلك شرعة غاسية إلى حد ما ،
وهدد كل قبيلة بسبب سائبها وقطعاتها ، إن هي تعرضت بسوء لأروى يقوم
برحله تحت حميته

كنت أنتظر وصول الأمر عند التقادرات انشاب بشوق كبير وكان من المتوقع
أن يحل معسكر في منتصف شهر أبريل ، ولكن الأمر لم يحضر ، فقد كان في
ذلك الحين يسعد المهجوم على عين ماضي ، فكانت طلائعه في تقدمت أما
قواته الرئيسية فكانت معركزة في السهول وكان قد نصب إليه عدد كبير من
المصنعات المداعين في العدا ، حتى تجمعوا حيث طوعا من جميع جهات
البلاد ، ومن ثم لم يكن في حاجة إلى مدداته فوجت المعركزة في القسم الغربي من
سلطنته ، وسار قواته في شهر حزيران في حذاء عين ماضي دون أن يمر بمدينة
معسكر . وهكذا حصدت من الوحيد أيضا في القيام بهذه الرحلة في داخل البلاد

وحارب في أثناء ذلك أن أشهر فرصة يقدمى فغير الإمكان لأهم مبررات
في جميع الأماكن القريبة بخبرة مباشرة ، ولم يكن مراقبو حملة كاثوليك قد
شاهدوا منها شيئا على الإطلاق ، فقد كان الجو في ذلك الحين عائما ، وكانت
لأمطار تصافق قدم يتر الحش معسكر ، وإنما عاد رجعا ، بعد استراحة دامت
ثلاثة أيام ، دون أن يدخل سهل اعريس ، الذي كان قريبا منه جدا ، وقد أقيمت
بها جميع المرات ، سي قمت بها مع الفصل وصبيه ورجعي رجعي الآخرين ،
إلى أماكن ، لم يصل إليها بعد رجائه حديث ولا ورد له ذكر عند كل من شو
(Shaw) ويسوبيل (Peyssonel) ، وبريس (Bruce)

وصعدا في 31 مارس 1838 شارب الربح ، وهو جبل يقع شمال شرقي
مدينة معسكر ، ويسمى السلسلة الجبلية الثالثة ، وتعتبر قمة أعلى قمة في المنطقة ،
ويطل على منظر يكاد يكون مثاليا لذلك المنظر الذي يطل عليه جيلا لنا

(Aqina) وريحي (Agi) ، وقد اتخذ هذا الجبل اسمه العرب من شكل قمته التي تشبه الشاه ، تفضلها الرياح الشمالية الغربية في شهور شتاء بخدة ، وبذلك تتعذر الرياح بصفها في صفحة الجبل ، فلا تصل بلواها إلى سهل اعريس ، وكان ذلك اليوم جميلا مشمساً ، ولم يرافق دليل في برهتنا هذه ، ولكننا كنا مسلحين بصورة جيدة . وبعد أن تجاورنا باب على بهيـع خطوات أحد نجوم فوق رؤوس صائـر كاسر ، ويظهر بيضاء ويشكـل مهيب ، فاضطفت عليه النار وأسقطته ، كان صفوا كبيرا ، وقد وضعه في محفظة صيد ، واقترب مني العرب ، الذين كانوا فرحين منا ، وراحوا يمدون إعجابهم بسديتي الصغيرة ، التي لم يصدقوا أنها تستطيع أن تصيب الهدف أيضا مثل بلادتهم الطويلة ذات الأقدام الكبيرة ، فقد كان على العموم ما اصطدناه في هذه البرهة من حيوانات وفيها حد ، وكانت هناك في سطح جبل شوارب أربع نباتات كثيرة ، بعضها نادر الوجود ، فأخذ منها الدكتور فارسي مجموعة ، ملأ بها عينة كانت معه ، وقد عثرا هناك على حمصة أنواع من أعشاب السحب ، كما عثرت أنا في منتصف الطريق إلى قمة الجبل على نوع آخر من الفواقع الحمضية التي كانت مختصة بالأدغال بشكل عرير ، وكان يبدو أنها لا توجد إلا في الأماكن المرتفعة ، فلم مرها بد لا أنا ولا الدكتور فارسي ، أنثرا في مكان آخر وكانت ثمة جملا من عينة لشكل تدب في الطريق المعبر وفراشات. مـركشة كثيرة تظهر حولنا ، فمسكت منها نوعين ناديين والتفت فوق قمة الجبل بمواظبي الشهم مذباب مقون (نوع من الفراش) ، الذي كان يتمايل فوق الأزهار العالية في عرة وسهجة .

وتعطي جبل شوارب نـرح حتى قمته نـرة حمصة ونباتات متنوعة من أزهار وأعشاب وأشجار صغيرة ، لا يزيد ارتفاعها عن حمصة عشرة قدما وتحتفلها هجوات ، لا تبدو فيها الصحور العارية إلا في الأماكن بغيلة التي حرمت الأمطار عنها التربة . ويتراوح عمق هذه الهجوات بين ثلاثين وأربعين قدما ، أما صحوره الساقطة في بعض الجهات فهي كثيفة وهوائية ، وقد عثرت في سطح الجبل على رجومات قليلة متحجرة ومبعثرة ها وهناك ، ولكنها انحلت في الوسط تقريبا . ولم يكن في وسعنا أن نصل إلى القمة راكبين ، ولذلك تركنا جيادنا في مرج سطح

الحبل تحت حراسة الترحمان ، وبعد القمة في حوالي الثامنة عشرة والصف ، وبلغ ارتفاع قمة جبل شوارب الريح 1460 مترا ، يبدو من هونها أوسع منظر في اساحية الشمالية ، يرى المرء منها أولا مجموعة من الجبال لمغطاة بالأشجار وعدد من الصخور البارزة والوهاد العميقة المنحدرة ثم يشاهد وديانا هسيحة محصورة ، تبدو فيها السواوير وقضبان اداشية وأصخرة الأوباء . وكان من الصعب في هذا الخبط من الجبال واللال معرفة السلاسل الجبلية الثلاث ، انني تمند من الشرق إلى الغرب ، وترتبط فيما بينها جبال كثيرة منحدرة من الشمال إلى الجنوب ، ولم يكن عرض هذه السلاسل ماء على ما استطعت أن نقيسه بعيننا . يربط عن مت مراحل ، أما خطوط فقد قدرناه بحوالي ثلاثين مرحلة ، وكان يبدو أن الجبل المنحدرة في السلسلة الشمالية تنحدر بحر البحر كما هو الأمر بالسلسلة لجبال الواقعة قرب مدينة الخرائر ، وتشكل أهدا قوسا كبير ، يشغل سهل بين القسم الأكبر منه واستظما أن يشاهد حصن دائرة من السلاسل خلف المساحة الممتدة بين صمغاف الشيف ، وهو أكبر من بهالة الخرائر في الشرق وبين صحور المرسى الكبير ، وكانت موشل وهزن وأريزو وصارغان وصمغان واضحة للعيان ، وتنتهي في الشمال على صيغة البحر الأبيض سوسط العائنة المربعة .

أما المنظر الجنوبي فكان محدودا حاليا من التوسع فقد شاهدنا أولا سهل اعريس الذي تنحدر إليه إلى حد ما سلسلة جبال الأطلسي الثالثة ، وكانت تمتد في أطرافه الشمالية تلال حصراء وتكون وهادا حصراء تعتبر أحسن مراعي المنطقة ، وفي وهدة من هذه الوهاد تقع قبلة سيدي محي الدين ، مسقط رأس الأمير عبد القادر ، وكانت دائما المقر الرئيسي لأسرة محي الدين وسكنها الآن عم الأمير ، وهو أخو محي الدين الوحيد ، الذي لا يزال على قيد الحياة ، والقبيلة اسم يطلق على صوامع أولئك المرابطي ، الذين يسهرون على تربية الأضغال الصحار ويعلمونهم القرآن ، ويعلمونهم يصبحوا مرابطين ، إذن فهذه الصوامع عبارة عن مدارس ، لا يؤمنها إلا أبناء لأسر ايرافية أو أصحاب امراهب المتسيرة ، الذين يتخرجون منها أولاء ، ويعودون إلى قبائلهم ليلالوا أعظم الأحرار وأكبر القليل ، وتشكون قبلة سيدي محي الدين ، انني تعتبر مد فترة طويلة أشهر مدرسة دينية

في مقاطعة وهران ، من أربعة بيوت أرضية يصعد ، يسكن بنا منها شيخ القبط
 الخالي ، وفيه مكتبة وعرفة استقبال ، ويقم في بيت المحور له سائر الثلاث ،
 ويسكن التلاميذ ، الذين لا يريد عندهم عن ثلث عشر تلميذا ، بنذبة
 مستصلحة ، تحتوي على عرفة واحدة تفصلها الخديفة عن مسكن المربط ، أن
 البيت الرابع فهو عبارة عن مصلى أو حمام ، يتجمع فيه للتلاميذ أو الصيوف
 لأداء الصلاة ، ويبدو مظهر القبة في السهل ندي ، هيبوت البيضاء ترتدي
 معاصف حصراء من أوراق الكرم ، وهناك غلة تنصب أمام مدخل حمام وتعرض
 في حديقة القبة خضر والبرص والأزهار ، وبشرك الولي نفسه في المصلى ،
 فيسقي ويرعى الأعشاب الصارة ، ويرعى فطيرة الصخر عن حافة جدول قريب ،
 تنمو فيها الأعشاب لخصراء طوبى السنة

وتتردد زور على القبة يوميا ، بما لأداء الصلاة أو لاستشارة الولي
 والبرود بركاته ، ولا يأتون به دوعي لأبدي أند ، فاحدهم يحمل لبولي رأس من
 قصبة ، والآخر يحمل كب من لحوب ، وثالث يقدم له مبدعا من المان ،
 وجلس سبى محي الدين ، محبة ليضاء أمام باب بيته ، ويحي رواه بلطف
 وينسبهم مهم اهدايا وبكرمهم في مفاد ذلك الطعام (الكسكي) وامياه لعدة .
 ولا يكاد عدد زوره يقل عن عشرة أشخاص في اليوم الواحد فيجلسون
 حوله ويتحدثون ساعة من الرس في هدؤ ولطف ، وكل مهم مشكته الخاصة ،
 عهد يعيش في مزع مع جاره ، ويطلب من الولي أن يتدخل لإنهاء نزاع وذلك م
 برقة الله ولدا ويرجو أن يدعو له الرجل الورع حتى يمن الله عليه بولد ، وثالث
 يعاني من مرض حفيظي أو متوهم ، أو يعاني من أحد أعضاء أسرته أو جواره
 عرير عيه أو بعده صغيره ، فيتحنى إلى المربط ليقيم له نصيحة ويدعو له
 ليرفع الله عنه كل ذلك وكثيرا ما يدور الحديث هناك أيضا حول مسائل
 سياسية ويتبادل المتمعون الأخبار الجديدة ، ويتباحثون في القصة
 الديموماسية ، فيرحلون بكل من يحمل إليه من وهران خيرا بوصول سفينة نظاية ،
 وكل من يحدثهم عما أصابه من ترحمان وصبح وكل حاج يعود من مكة حننلا
 أخبار من الشرق عن محمد علي وسلطان المؤمنين ، وكان أحصاء العدد في

المصقة من قود وشيوخ ومرايطين يترددون على ميدي عبي الدين في مرات متفرقة ، وكثيرا ما كانت هذه الصومعة الصغيرة تنحكم في مصر البلاد ، صيفا بقرر الحرب أو اسلم عدد من الرجال المستحيين ، اندي يتردون لي الغالب الثياب المهترئة ويشربون المياه العادية ، ولكنهم يذتمون بعود كبير لدى قبائلهم ، التي توحيد ييب جميعا صلاة العقيدة ، هناك اخذ سنة 1832 قرار بانقصاء على أترك معسكر ، هناك كان عبي الدين الرجل يدعو اسس الى الجهاد ويحثهم على محاربة الفرنسيين وهناك أيضا وده عبد القادر ، الذي يعتبر ديد شاك أجدد أبناء إفريقيا بالاعتبار بعد محمد علي ، هي هذه الصومعة ، التي يدعو كل ما فيها إلى التأمل والهدوء ، تخول إلى رجل عصم ، وكان عبد القادر قلما يترك يوما يمر ، كلما جاء أي نواحي معسكر ، فرب أن يرور مقر أجداده ويتشاور مع عمه

وترى من قمة جبل شوارب اترج سلسلة جبلية رائعة حبوب سهل اعريس ، يبدو أعمدها أوضح بكثير ، وكما أقل ارتفاعا من سلسلة الثالثة وكاب ، هناك أخير منسنة حبة حرمه ، يرى في الأمن الحولي ، وتند ثمانية حدار حويل الخفوف من القسم عثايه ، وقد أكد ل جميع الأعراب ، الذين تحدثنا معهم في معسكر ، أنها شكل ما قبل السلسلة الأخيرة في أعلاه الجبوب ، وكانت ترتفع حبوب مدينة معسكر سلسلة جبلية سادسة معصدة تاتلوج ، وبعد ذلك نحفر احبال يدرج نحو القمة ، ويصح عبارة عن بلال غير متأسفة ونجد مساحة الأراضي الحصنة ، ويدعى التلال أو الحصان العلب ، في المقاطعة على مسافة حوالي سبعين ساعة ، وتبدأ بعدها لأراضي لرمية ، التي تنحسها نواحيات الحصره

ويقع كاشروه ، صريح أسرة عبي الدين ، في صفح السلسلة الجبيه الرابعة بحوب سهل اعريس ، وموقع الميضة رائق ، ولكنه عدل المظهر ، وتبدو ميونها البيضاء فوق الشروح الحصره شبيهة بالبيوت لسوسريه أو البيوت البومارديه ، وقد حذرت أسرة عبي الدين لأصاحتها مصطفة أهل بكثير من المنطقة التي حازتها لسكانها ، بل ربما تعتبر أهل مصطفة في المقاطعة ، ويقع كاشروه في وحدة من وهاد الأطلس ، وعن حديه محاور صوية عالية إلى حد ما ، ذات أشكال

مدينة ، بنت فوق بعض أحراستها شعيرات الوقل ، وتراحت في أعصانها أشجار متنوعة طويلة المدوع ، بحيث يستطیع المرء أن يهتر فوق أعصانها دون أن يحمي السقوط سقطنة مؤنة ، ويلاحظ المرء هناك أشجار الخروب التي تختار عن غيرها في المنطقة بأسرها بعلامه الوارحة ، وأشجار الرمذ والبصعكاه والريثون البوي والربا . وقد احسب بحصها ببعض ، ورصت بها نبات منسقة ، تشبه مرة أسراج البحر ، وتشبه مرة أخرى مظله العرش ، وتشبه في أحيان أخرى سجادات أشعة وصوار وبيارق ، وكل ذلك يتشكل من اعصان وأوراق حصراء مسوعة . وكان هذا الأفق المتشكل من الأوراق الهادئة ، لأن لرياح لا تصل إلى الزهده معتمة ، بمعنى الأصحرة البضاء ، فلا يرى إلا من بين فحات الأعصان المنتشرة هنا وهناك . وكان هناك سبعة أصحرة يتنظمها صف واحد ، وتصل بين أشجار نصار ، وكان صريح محي الدين ، أبي الأمر عبد القادر ، يحاذي حور مصعب ، كان قد سي فرقة مصطفى وبه محي الدين ، أكبر اخوتي عبد القادر ، كروح من أعمود الشعر ، وعاش فيه إلى جانب نراب أجداده حياة حية ، وحيد ومن غير ولد . بعد كان هذا الرجل الشاب في يوم ما قائد فيبه عليه القوية الشدق ، وشارك في ثورة ضد أخيه ، ثم نحل فيما بعد عن أعماله وأمرل عن المجتمع ، وأغد من كاشروه سك له بفصي نقيه أيامه في كتابة كثيره تحت المحوم وبين حرير الجداول الحبية ، ورفرة حضور النعابة . ومن لصف معرفة ما إذا كان هذا الرجل انشأ قد احتر هذه حياة العربية عن ميل به ورعة به أم أنه أراد الوصول إلى هدف آخر غير معروف فامنى الدحل ، والتشيل ليؤثر في مواجيه وبكسب - يدهم ، وعلى أنه حال غاب أسرة محي الدين هذه تنصف بالورع والتصوف ولم يخضع التصوف بالدهاء السياسي ، والعقلية الحرية ، وحب الانتصار ، وكثرة الصموح إلا في شخصية الأمر عبد القادر وهناك مكان آخر يستحق أن يذكر هنا ، وهو فرقة الرحبة التي تقع في مواحي معسكر ، فقد كانت الرحبة حتى سنة 1835 ، قبيلة عظيمة ، تكاد تكون لها قوة قبيلة العرانة ، ولكنها كانت ، بعد استيلاء المارشال كلونلي على معسكر ، أول قبيلة تتحلل عن الأمر عبد القادر وتتفاوض الفرنسيين ، وعندما

حطلى عبد القادر فيما بعد بمساندة قبائل النافذة وعاد إلى معسكر وهو أكثر قوة ،
 تفرقت كلمة البرجية ، فقد أراد البعض منها أن يفعلوا ما فعلته قبيلة السواتر وقبيلة
 الرمانة ، ويتجهوا إلى أسوار وهران ليستقروا هناك ، وأراد البعض الآخر ، وهم
 الأكثرية ، أن يتفاوضوا مع الأمير حتى لا يفقدوا مراعيتهم الجميلة في سهل
 سبرات ، ولكن عبد القادر حاصرهم بحيث قبل أن يتوصروا إلى قرر هاني ، فعبر
 القائد قدور بن معري إلى مستعالم ، وهو يعيش اليوم في قرية مازعران من راتب
 أدن له به المرشاش كلونين ، وعنده لم يرد عبد القادر ، بعد أن عجا من فصته
 شيخ قبيلة المارقة ، أن يعمل بالبرجة ما فعله بالأثرية ، فلو ترق قطرة دم
 وحيدة على يد ابراهيم شويش ، لأن الأمير قد كان قرر أن يقضي على مقاومة قبيلة
 البرجية بشكل نهائي ، فذهب في البلاد وأرغم بعض الأسر على الانصياع إلى قبيلة
 هاشم ، وأحبر بعضها لآخر على الانشقاق فقبيلة عليه وأرسل حوالي ربعها إلى
 مقدمت وللمساك بحيث لا توجد اليوم قبيلة تدعى برجية ، بعد تآثر أعصابها
 في كامل المنطقة ومن يعرف مدى حب العربي لقبيلته التي يعتبرها أسرته
 الكبيرة ، ومدى حرصه على تقليده واعتباره بقوته وأعمالها الطوبى واستعداده
 للدفاع عن تحدده بقوة سلاح ، ومن يعرف أن العربي لا يدفعه إلى التحل عن
 قبيلته ولا حبه عليه أخرى إلا بين والأحرام ، وسوف يدرى مدى ما يشتمل في
 نفوس أفراد البرجة من كراهية لعبد القادر وعم محاربتهم إحصاء ذلك عن أفراد
 القبائل التي يعيشون فيها ، وكانوا أقل تحفظا في الحديث عن كراهية عدما كانوا
 يتحدثون مع الفرنسيين ، فكثيرا ما سمع القليل دوما من أحبار عن تلك العناصر
 الخطيرة ، وإن كانت لا تزال صعبة مؤثرا ، من أفراد البرجة ، الذين كانوا
 يستعدون لحياة الأمير عبد القادر ، والخروج عليه ، ولكن البرجيين كقبيلة لم
 يعودوا يشكون خطرا بالنسبة لعبد القادر ، فقد كسرت شوكتهم وهزل سلاحهم
 بعد ثقتهم ، ومع ذلك فإنهم يطوفون على عصب وسيف ، وسوف يتسارعون
 إلى مساندة أي شيخ ينور على الأمير في أية جهة من جهات البلاد

وتبعد قرية البرجية ، عن معسكر بأقل من ساعة ، وهي لا تتكون من
 بيوت الشعر ، وإنما تتكون من بيوت بعضها من الأعواد ، وبعضها الآخر من

الطين أو الحجارة ، ويسكنها حوالي ثلاثين أسرة ، وقد بدا لي البرحيون أقل نسوة
إلى حد ما من بقية قبائل لمقاطعة ، وعلى الرغم من أنهم أفقر من العرابة في
الأموال والملابس ، فإن لديهم الكثير من الممتلكات الصغيرة كما أن حقوقهم أفضل
من حقول العرابة ، وتقع هذه القرية في منطقة قبيلة هاشم ، التي تؤيد الأمير بكل
ما في وسعها من قوة ، وتحرس بوحشية أراضيها في أمرهم .

بعد أن انتهينا من مشاهدة جميع الأماكن المهمة في وادي معسكر ،
شعرت برغبة شديدة في القيام برحلة أبعد في الجبال ، فقد كان هناك على بعد
خمسة مراحل في الجنوب العربي حمام سيدي جحيمية ، الذي نال في بلاد شهرة
كبيرة بحصل مياهه المعدنية ، ولا يجيز مكانا مغفويا مثل حمام المسخوطين ، وإلى
يسرى إلى زيارته سبب عدد كبير من الرحلانيين والمرضى والروايز ، يتدفق في
حماماته الطبيعية ويتنزه بصريح مرابطه المشهور على حد سواء ، وكان استقب
دوماس والدكتور هارمي قد حاولا أكثر من مرة الحصول على دليل يرافقهما إليه ،
وبكهما لم يوفق في ذلك ، فأرادا أن يمتحا فرصة وجودي في هذه المرة ويقوم
بالمحاولة بعنهما ، بالحاج أكثر ، وكان يريدان في بداية الأمر أنه من الأفضل أن
أحاطون أنا بمحمدي الحصول على رخصة من حاكم المدينة ، لأنه سبق له أن رفض
طلبهما عدة مرات لهذا لم يجر في ذلك فإن علي عتد أن يذهب معا في زيارة
رسمية .

فذهبت يوم 3 أبريل (1838) بصحبة الرحمان بن عمران إلى حاج
بحاري فوجدته جالسا في غرفة الاستقبال ، وحوله عدد من الخوجات والنشوش ،
وكان قد انتهى آنف من الفصل في إحدى القصص ، فكان يبدو عليه الأسى
بوعا ما ، ومن ثم لم يتكلم علي حتى بالدعوة إلى الجلوس ، فجلست قبالة بكل
بساطة فوق الحصيرة وبدأت معه حديثا ، أود أن أنقله ها حرب ، ليستطيع
الفردى أن يكون لصفه فكرة سوء الظن الذي تمكس في نفوس موظفي عبد
القدور ، وعلى لعراقيل ، التي يصعبها دائما في طريق كروبي كما أراد زيارة
المسكن التي لم تطلها بعد أفندم الجيوش العرسية

قلت له :

— كنت قد وعدتني بأن تصنع تحت تصرفي حرماً أو دليلاً كنت عر لي
أن أروى لأماكن البعيدة في هذه المنطقة ، وأن أطلب منك اليوم أن تعني بوعده
وتقدم لي دليلاً برافقي ، أو حمام سيدي بوجمعة

سألني الخراج بحري دون أن ينظر لي .

— وماذا تريد أن تفعل في حمام سيدي بوجمعة ؟

— أود أن أحلب شيئاً من مياه معدنية فقد سمعت أن لها قوة شافية ،
وهناك بئر من أبناء شعبي يعني من مرض حطرت في زهران ويرجو الشفاء منه
بمصل هذه المياه المعدنية .

— سوف أومر عليك نعت الرحمة البعدة ، وأضربك بمر الصحور
وأهوى ، وقد لا تتمكن من العودة اليوم لذلك سأرسل شاولاً إلى هناك
ليجلب لك ما تريده من الماء .

— لن يصيدني ذلك في شيء ، فلي أن أخص الماء في لبع نفسه قبل أن
يبرد حتى أحترق قوته الشافية .

— لا يجوز لك أن تقترب من سبع ، هناك ينوي مرابط لا يحب
المصري وإذا أنت احترت منه ، سوف يسلط عنيت المرض ويكون الماء سبب
في موت من ضلكت .

— اني لأحترم امراضهم وأعدسهم ، فأنا أعرف أنهم رجال صالحون ،
يستحقون حبكم خكمهم وشدة ورعهم في إصلاح ذات اليين ، فقد أثنى عليهم
المصري ، الذين عادوا من الأسر ، ثناء كبيراً ، لأنهم كانوا دائماً يفتنون عددهم
الخصية من العذاب الذي يسلطه عليهم محاروكم ، ولذلك لا أعتقد أن مرابط ،
أحسن رفاته كل لإحلال ، يمكن أن يحفظني من سوء .

فكر الحاكم برهة ثم قال :

— قد يعمو لمرباط عك ، ولكن مرافقتك لن يسجوا من ذلك بالكيفية

— اسم يريدون أن يفعلوا ذلك رغم الخطر الذي قد يتعرضون له . وإذا مرضوا فليس الدمب ذنبك ولن يلوئث أحد على ذلك .

— ان التوكيل (الفصل) حديقي ، ولا أحب أن يلحقه أدى ما دمت أستطيع منع ذلك .

لقد كنت على يقين بأن سوء البض هو الذي يدفعه إلى انتحال هذه الأعداد ، ولذلك عرفت البصمة وقلت له .

— انت تعلم أني لست مريب ، وإنما أن أُلْهي ، ولا تهمني شؤونكم الحكومية إطلاقاً ، ولم يحارب شعبي شعبك أبداً ، وسلطان أُلْهي صديق لسلطان المؤمنين في مصرطية ، ثم إنه من الأفضل لكم أن تكسوا صداقة سلطاني ، فهو قوي جداً كما حدثت بذلك التوكيل ، فلهذه مدفع كثيرة وحيرل لا حصر لها

وهناك فاضلي الخناج حاري محبوبة .

— بيان أن يكون أُلْهي أو مريب ، فقد عقدنا الصبح باحلاص وصدق مع العربيين ، ولا يمكن أن يمنع عنهم شيئاً سمح به لخصرائي آخر .

وفي نهاية واقع الخناج بخاري عل أن يرسل معنا من يرقنا إلى نصف الطريق ، ومن هناك يمكن أن يرسل من أقرب دوار أعزانيا ليجلأ لنا حزننا بماء المنع .

وقد أثارت هذه الموافقة الصعبة فرحة كبيرة في دار القفصية ، ذلك أننا كنا نأمل أن يرسل ونحن في الطريق ، الدليل مسكنا من الوصول إلى الحمام معه ، وامتطيا ظهور جيلادا بعد تناول انعطور مباشرة ، وكان عندما سته : القيق دومان وأخوه ، والطيبان فارسي وعارلي وأنا والترجمان بن عمران ، وكان دليلنا فارس من فرسان الأمير ، وهو رجل في زمان الشباب ، قوى العضلات ، يعتمر نموذجاً للعربي الأصيل المسمر الوجه ، تنطق ملامحه بالحرارة والحيوية والصراحة ، فالشباب الذي كان يمنع به ، لم يسمح بعد لذلك التعصب

البعير الصرم ، تعصب الشيوخ ، بالسيطرة على ملاحه ، لمعان في لاحتها
 أنه استعجب بمكان أن يعتمد عليه في حالة ما إذا برحما لخطر ما ، ومع ذلك فقد
 قدم لهذا العارس الشاب المارد حصان هربل نفس ، إلى درجة أنها كنا نتوقع استناره
 بعد كل خطوة تخطوها إلى الأمام ، ولعل ذلك قد تم عن قصد ليحال بين الدليل
 وبين الموافقة على الوصول بها إلى أبعاد من مكان الذي حددته له الحاكم . وقد
 استأنا بدلت ، وحدثنا الأعزبي الشاب عن استئنا هذا ، فكان رده على ذلك أن
 وحر حصانه بالمهماز الطويل ، ورمى بسدقته الرقيقة الشأن في الهواء وكبر كما
 يعمل في المعركة ، وانطلق فوق السهل كأنه يريح العاصفة ، وأخبر حصانه الهربل
 فجاءه إلى حدود صحراوي أصيل ، وراح يحصر على لحامه ويرفع ذيله وعرقه الطويل
 يهتر في تريح ، بينما كان راكبه ينظر إليها نظرة العور والاحفاد ، لقد كان ذلك
 مصرا فاحرا فهبط المدرسان العربيان في إعجاب : «بانه من أعزبي أصيل»
 وعبدلده ، شعرت جيادنا أيضا بالفرحة في الساق ، وبما أن الأرض المسطحة كانت
 تسمح بذلك ، فقد تركها العار ، ودحا في سباق هيج ، وكان كل واحد منا
 يريد أن يرى دليل الشاب أن في مسطاعه أيضا أن يمدو فوق حصانه بسرعة ،
 وفيما سباه طويته دون أن يهتم بالهوام والأعشاب التي كانت تتوسط الطريق .
 يبع صول سهل اعريس التي عشرة ساعة وعمره ثلاث ساعات ،
 ويتحدته وادي الحسام ووادي موسى ، ولكن الأخير مهما لا يكاد يستحق هذه
 التسمية ، وتسمى سهل اعريس قبيلة واحدة وهي قبيلة هاشم التي انقسم قبل
 حوالي قرن من الزمان إلى قسمين ، هما هاشم الشرقية ، وهاشم الغربية ، وبكل
 منهما قائد خاص ، وتستطيع القبيلتان أن تكونا معا جيشا قوامه ثلاثة آلاف
 فارس وألف رجل ، وقد تكونان أقل عددا من بني حاتم ، ولكنها أعني منها
 بكثير ، فلهما الخيول وقطعان الكثيرة ، وتعرفها فوق ذلك في القوة والعزيمة ،
 إلا أنها من جهة أخرى تفوق الغرة في وحدة كمنيتها ووحودها في موقع مركزي
 قرب معسكر يحمل من أقوى وأهم قبيلة في المقاطعة

وتعطي حقول القمح والشعير نصف سهل اعريس ، وكان السهل البري
 يظل من بين السبل على امتداد البصر . وكانت الأرض أصلح للزراعة منها

لرعي ، لذلك كانت قبيلة هاشم ترسل قطعانها بعد ررعة القمح مباشرة إلى سهل سبق ، فتهدم دواوير كثيرة ويهمل سكانها ولا يعودون إلا في موسم احصاد ، ولا يحتوي سهل عريس على المستقبات ، وذلك من جملة مكانا صحيا صالحا للإقامة ، ولكنه أقل حصوية من سهل سورت ، ولا سيما فيما يخص الأعداء الخطيرة ويعود السبب في ذلك إلى انحصاره إلى الماء الوفير وفي استنصاعة المرء أن يجعل من سهل سورت ، على طريق شق عدد من القنوات ، حديثة حصنة صالحة لمختلف أنواع الزراعة ، في حين أن سهل عريس أصبح لزراع الحبوب من لأي شيء آخر . وعندما ركب بطريقا فوق سهل النبال الذهبية ، صاح الفصل مازحا . « بصرو ، لكم كان في وسع روجو أن يهزج ويهزج هاهنا ، فهو حصرها لا يستطيع أن يترق ، الأحصر وأنبال » ونكبا أفتركا أيضا أنه من المستحيل أن يتجمع العرب مثل هذه الوسائل التي تفرحها روجو . ذلك أن الجيش العربي قد يندفع إلى مصعة أو يبيع يتسكن من تحريك جميع الخفوف ، التي تعطل بينها مصافات غير مزروعة .

وكانت هناك سلسلة حبيبة تمتد على عشرين طريقا ، في الساحة الجنوبية منها عدة بلاد مفصلة عنها ، لأحدها قصة عربية انتكس ، فقد كانت عبارة عن صحور متراكمة ذات أنشكان عجيبة ونكبا لم يتسكن من رؤيتها بوصف ، فقد كان النبل يرتفع فوق السهل بمقدار ثمانية قدم على الأقل وقد حدثنا العربي قائلا « هذه كدبة المسحوطين ، لنبل ملحوب ، فهناك فوق القمة يجلس نساء محبات فوق ظهور احمال وعذراء على الرماية والعصاة ، وقد مسحهم لئلا حجارة » ، ورحوباء أن يحدث أكثر عن تلك الأشياخ ولكنه أحب حائما وبصوت خفيض بأنه لا يعرف أكثر مما ذكره له ، وحيثما نظر مرفقي إلى قصة النبل في فصول لاحظت أن كيف النبل نعلني شباب في برودة وراح يتسلم بالأدعية في هدوء ، وبعد أن تركنا ذلك النبل ورأينا ، بدأ عليه وكانه قد تمسك من فزع مربع ، وعندما جاء إلنا في اليوم الثاني يتناول معا القهوة ، صبا معه أن يحدث عن ذلك مرة أخرى ، فامتنع في بداية الأمر ثم روى لنا القصة بتدوية في المنطقة عن هذا الحبل المسحور وأكد ما أنه سمع أثناء مروره راكباً حصانه بعينات الرماية أو المعاريف

لوهيبين ورعايد الرهوف المنطقة من حاصر راكبات احمال المتحضرين ، إن آداب الكافره لم تسمع لذلك متيلا ، ولم أسف لأن لم يستطيع أن تدخل هذه المعجزة عن قرب ، فقد كان على بعد عن طريقنا ، ولو ذهبنا إليه لكان على أن نأثر عن زيارته لعمياء العبدية اساحة فالهجوم الواحد لم يكن كافيا للقيام بذلك .

وحين وصلنا إلى المكان ، الذي حددته الخفايا بدليل ، رخص الدليل مواصلة السير ، وقد كنا نتظر ذلك منه ومن ثم وصفت في يد الشاب العربي قرشين اسديين ، ووعده نفس لمع بعد عودتنا من الحمام المعدني هور امان في يده ، وحسب مني أن أكرر له وعدي مرة أخرى ، وأخيرا قال «عشرة وحيوات ، ولا بأس بعد ذلك أن يصرفي ساعة بأصبة عشرين صرة » وبعد أن سرنا حول ساعتين ، مركبنا سهل حطب ودخلنا المنطقة الخفية ، فأتبع طريقا أكثر صعوبة ووعورة ، وهو الطريق العادي الرابط بين معسكر ومكان ، ولا أنه ليس من سهل على الخضر أن يمر به ولو كان لا يحمل معه غير مدافع الخفية وعربات صغيرة ، ذلك أنه على المركب نفسه أن يسير ببطء وحذر حتى لا يستر في محلات وخجدة لكثيره ، وأن امره يشتر في مثل هذه الأماكن مدى دائره حصار عربي ، بعد فترت برحلات كثيرة في هذه البلاد ، وكنت أسير في بسلام الحداث ، وفي بعض وصف والأقطار ، عبر العادات والمعتقدات بينة الأوجال والخجدة ، لكن حصار لم يتسبب أبدا في معوضي ، وفي استطاعة لحياته العربية ، التي لا تركب غير الخيول العربية بعد أن عرف فيحتا سينا غنيث ، أن تمر لأن هذه الأراضي مغلقة ، في حين أن لمدافع وعربات الدخيرة لا يمكن نقلها عبر هذه منطقة إلا بعد إزائه العديد من الخواجر .

وكان مرافقي العسكريون يرون أنه من مستحيل مرور الجيش من هنا قبل أن يجهز الطريق بذلك ، وقد تذكرت في أثناء ذلك أن سمعت أحداثا ماثلة عن فلسطين من أموره بعض الصباط في هربس ورحال لمدينة ، ومع ذلك فقد حملت هناك مدافع ثقيلة في ساعات معدودة عبر منطقة أصعب وفي جو غير مناسب

وبعد حوالي ساعتين تفتحت الجبال أمامنا عن وجهة عريضة ، وكان رصاع
لقصم يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف قدم ، وكانت الجبال مغطاة بأشجار
برية لم أر أحمل منها في أية منطقة من مناطق الأمازون ، وقد خيل إلينا من بعيد أن
هناك ثغورا أو قطعان ماشية يتشربون فوق هذه الحفرة ، وعندما اقتربنا من
دلتا ، لاحظنا أن شواطئ فيور . يرتفع عن الأرض ثلاث ، ونبتت ل بعد حين
في الساحة البحرية في المرتبط بيباء ، التي كانت لفور ، الأخرى القليلة تحيط بها
وكنها تجمع حول عرش ، ويسمى أن سيد بوحفية كان ربا من التدرجة الأولى ،
فقد أقيم فيه مسجد صغير ، وسكن حوله عدد من «الطلعة» خراسه الصريح
والمبوء الزوار ، ولاشك أنما كنا المسيحيين الأوائل الذين دخلوا هذه الواجهة
المحرقة .

وأحد «مضائق» السيل يتحدث مع دبلنا ، الذي كان قد سقاياه ،
وقد بدأ عليه أنه يفسد على مرفئه لتكفير إلى هذا المكان المقدس ، ورفض
تصوره قطعه سماح بنا بالوصول إلى حمام وعرف أثناء مه ولم تكن للكنيسة
الحلية تعبد مع هذا الأسان لمعصب ، وقد رفض حتى أبال الذي عرساء
عليه موقعا أمامه وقد استند به العصب والحيرة لقد وصلنا إلى عددا ،
هكيف يعود دور أن حقق ما كنا نريده ؟ ورغم أن الرجل ومي معه لم يكونوا
مسلحين ولم يكن هناك دورير بالقرب منهم ، فإن احتمال العصب والتهديد ، لم
يكونا مقبدين بالنسبة بنا في هذه الحالة ، وفي نهاية الأمر أخرجت من جيبي عددا
من القروش الإسبانية الجديدة وأرسلته إليها ، رفض مرة أخرى ، غير أنني لاحظت
أنها أثارت صراخا في نفسه ، فقد حاول أن يبعد نظره عن القصص القصبة ، ولكن
عنه طلقا عاتقين ، فالأعزى يسير عليه التعصب الديني والطمع في
الحصول على الفود ، ومن يؤكد أن هانير لصفتين كثير ما نستخدم لصراع في
نفسه بينهما ، وكان الحصر في هذه المرة لنصفه الأخيرة ، فقد كادت أعيد القروش
القصبة إلى جيبي ، حتى عد الرجل الذي يده ، وظلها في موضعها بأن على أن
أصلي بمفردي إلى صبح الماء وأن عن مرفئي أن يتفكروا عودتي ، فسرت حلقه في
اتجاه المرافئ .

كانت المياه تنبع من معارة صحرة ، نعدو من الأرض حوالي ثلاثين قدما
وتصب في حوض صغير لا يزيد عمقه عن يوترين ومحيطه من حمى أقدام ،
ولاشك أن هذا الحوض كان سابقا أكبر حجما وأكثر عمقا ، بعد كانت أرضه
مغطاة بطبقة كلسية صلبة ، نشأت عن ترسبات المسح ، وعطت الحوض شيئا
عشيبا ، ولسوف نعد المسح . وقد أصبحت هذه الترسبات عبارة عن كلس
مفروخ بحامض الفحم ، يتكون منه حاسب من الصحرة ، وهو أقل بكثير عما
يوجد منه في حمام المسحوظين ، ولا يتوفر حمام سيدى بوحليفة على واحد في
المائة من حرارة المياه الموجودة في مقاطعة فلسطين ، فبهاه تسيل صعبة من
ثقوب كثيرة ، وتأخذ طرفها غير محرق بمحور لصب في ماء صريح لولي ،
حيث أقيمت عدة أحوض للمستنحمين ، ولم يسمح لي بالدخول إلى صريح
الولي بعنه ، وتنع درجة حرارة المياه محما وستين درجة ، وما أني لم أتمكن من
السواء هناك أكثر من دقائق معدودة ، فإني لم أجد ما يكفي من الوقت للملء
لحرر والقرب كلها ، ومن ثم لم أستطيع أن أأتممه كما ينبغي ، كانت الشمس قد
أوشكت على المهب ، وكان « الطاب » يرى أني قد رأيت لقدر الذي تسمح لي
به القروش الإنسانية

وكان مريضى قد تسلمو حمى شديد الواحد بعد الآخر ، فوصل أولا
الدكتور المتحمي فارسي ، وتبعه الملازم دوماس ، ثم وصل السيد عالي ، والترحمان
عمران ، في حين بقي الفيب دوماس مع الأحصنة إرباء لعصولنا ، وقد تعذر
وجه « الطاب » عندما شاهد رفاتي يقربون من ماء بعد أن كان قد صعبهم من
ذلك ، ولكنه لم ياصت ، وكان دليلا قد دخل فيه المرباط ليؤدي الصلاة ،
صائب « الطاب » في أنت ، ذلك عن المنطقة ، فأحذرني بأن هناك خمسة بايع
أخرى من هذا النوع تنبع في الوهدة ، لكن مبها أقل حرارة وأقل حرارة أيضا
ودكر كذلك أنه لا توجد آثار رومانية في الأماكن القريبة ، إلا أن هناك على بعد
ساعتين مسينة كبيرة في الجنوب ، تحتوي على الكنائس المهدمة والأعمدة ،
والحروف التي لا يستطيع قراءتها أحد في المصحف ، فهل هي باترى آثار مدينة
مكتوبها ، لني بحد بطليموس موقعها في هذه المنطقة * وحين خرج دليلا من

قبة لم رابط طلب ما أن رحل بسرعة فتركنا المنطقة الجبلية الخصبة ، التي م
شاهد من إلا القليل ، بقلوب كسيرة . ومع أن العلام كان قد بدأ يمتد حول
جبان الأضراس ، فقد أحسنا سير ببطء وكما نشفت إلى الوداء بصورة مستمرة
لنظر إلى وهدة الأصرحة ، هادئة حيث تنصب الشوهد ، لواحد قرب الآخر ،
ومكثنا كذلك إلى أن اختفت عن أنظارنا ، وبحمل العرب موتاهم من أماكن
بعيدة إلى وهدة سيدي بوحبيبة ، وأعلمهم بمعلول ذلك لتقديمهم الطيبة أبدية
صبرة عن الحنة ، التي وصفتهم هم نمران (الكريم) شكل ضاعري .

لقد كان المنظر الطبيعي الهادي يسير إلى أبعد حد ، ومع ذلك فزده م
بحلب انتباهي كثيرا ، فقد شعرت بحبي من أنظر الخصى المعتم في الحبوب ،
حيث تجمع المدينة لأثرية ، التي تحدث عنها «لطائف» وعدمها حاسوب عنها أن
أنظر من خلال المنظر الكبير ، حسنت ذلك لرحالة السعد ، الذي سيشرح له
في يوم ما التوصل في الماشق المحبوبة ، التي لا يزال الجهلاء انفساء حتى هذه
المنطقة بمصفون أنوسها دور الرحلين في رية

هوامش :

- (١) الدكتور تشارل (جده الأمير عبد القادر) ترجم الدكتور أبو القاسم محمد ابن عبد الواسع بنسبته بنسبته ١٧٠٤ ، ص ٥٥ ، أنه حبيبه الأمير عبد القادر هو مبعوثه من بني ، يمكن فاجع ذلك مع طرح حربي وهذا
هذا صبيح الأمير عبد القادر بنسبته ، وبذلك ، يمكن من ذلك شخص من
- (٢) أنظر ما كتبه عن الأمير عبد القادر في الفصل التاسع
- (٣) أنظر تشارل ، المراجع السابق ، ص ١٧٨ ، بما يخصه
- (٤) ، يذكر ذلك في مرمر الأمير ، من الأمير عبد القادر في حربي
- (٥) وجدت هذه القصة بالعربية مكتوبة بحروف لاتينية
- (٦) ذكره ناصر ، ج ٣ ، ص ٦ ، من بني حبيبي فيسرك
- (٧) يؤكد ناصر في موضع آخر ما قلناه هنا . أنظر ج ٣ ، ص ٤٥٦
- (٨) مع هذا خرف منصور يوم دافع عنزل في مقدمه من كتاب ١ ص ٤١ ، ٤٢ ، أنه قتل جده من الأمير في حبيبه الأمير
عبد القادر في بعض المناطق القارية له
- (٩) استعمل المؤلف هنا صيغة القيد (انتهى)
- (١٠) أنور ناصر في حبيبه الثالث في كتابه (ص ١٣٣) ، رحمه الله عليه يقول من فرس جاءه هذا ، قلت سيده من فرس يدور
هذه في حربي ، وهو يعني أن حبيبه المرأة ، ولكن لا يتضح منسبته لهذا عبد القادر الأمير بنسبته . فهو عبد
يقول لكل شخص هذا ، وبالنسبة إلى عبد القادر ولده ، حتى منسبته الحربي . ومع ذلك فهو عبد القادر وحمل من القليل
منسبته عبد الأمير ، وذلك ما جعل الأمير عبد القادر يكلمه بالفرمان نهاية سيادة ، حسب أسيد إلى حمل هذا إلى
ملك عرب . في بنسبته ، ويوضح كل شيء هذا ، إلا أنه فقد رضاء الأمير عبد القادر لهذا شخص بنسبته هذا من
طعنهم .
- (١١) ذكر ناصر في حربي الثالث (ص ٥٨) أنه وجد العنود السوداء جعلت أغلب رجال الأمير ينفذون حواسمهم
- (١٢) نصبت ناصر في حربي الثالث (ص ٦١) من أسود عامة مولاي أحمد بن هذا ، ذكر في مكانه منسبته وأعرافه فيلما
الفرقة إلى عامة مولاي سمحلي الزايدة من سهل منسبته بلال من المناس بنسبته للأمير ، وقد سبقت من هذه
المناس مرة في حربي وأخيراً في حربي ولكن مرة أسدا ولا سمحلي . ولكن أثناء حربي ، بعد الحراسة القوية ■
- (١٣) يخصه المؤلف . الرجاء الإعتناء بوضوح شيء ، الذي هو المؤثر في المناس تقول من حربي المناس حربي

- (14) لا حلف رئي مؤلف في سكونه مضمرة ، وفي سكونه الهمزة مضمومة حارة ، غير أنها حية من التثنية - انظر مثلا
شوشن ص 123 وما بعدها
- (15) ولا يوزن إلى لوز حصة بهم حكاية من الأوز من الفهر ، ويستعمل كذلك بحس الميزة عند ليدل من حاسم السوط
وفي حاشية المراجعة الثانية ، في حاشية المؤلف «
- (16) بدلت المؤلف في جزء الثالث من كتابه (ص 214) من الأصحح وضمها في شيء إليها هنا ، ويحصل للتبديل في
صحة التصحيح موسى المبرقولي له الجب
- (17) ذكر المؤلف (ج 1 ، ص 94) عند حديثه عن ظهور الخوارز في الأوز عند الفهر كان قد أهمل أن يذكر حقيقة الفهر
تجاني بآله هذه إلى نيتس ، ويكتب وصفاً إلى هذا في حاشية على ما ، ذهب أن معنى الأوز ، الخارز حاشية الفهر لم يبق
إلى صفة الفهر ، كما هو من غير حية تزدن أسود وجملة حيدة في الفهر
- (18) يحصل مؤلف في جزء مذكور (ص 99) بعد « عرضي مسجول » ويذكر أن هو يريد في إنجابه مذكور هو أن
هو الفهر حصل من سي أعتدتها هو حسب الفهر فرب الخارز ووزن ثب حية كبد راوسها إلى حلف ولفظ في
بعد الفهر هو دير حية من « برنيز المسجول » يؤدبه صلاهم

المجل الثاني عشر

صور شمسية جزائرية

لا يكاد القارىء يفتح اليوم كتابا قديما ، يتحدث عن الجزائر في عصر من عصورها بلغة أحسية ، حتى يجد منه قد اسفل اليها بالمعل ، يعيش ظروفها التاريخية المتنوعة ، وأوضاعها الفكرية المسايمة ، ويستعرض معالم تقاليدها وعاداتها ويشاهد مآبها ومساعدتها وأرقها ، بل كثيرا ما يجلب اليه أنه يسمع حركة شوارعها ، وأصوات باعها ، وصباح دلاكيها ، وأحاديث مقاهيها وأغاني أصفانها لعرافة ، ويشعر أنه يجي في احوالها الخاصة . دلث أن المؤلف العربي ، الذي أتبع به أن يعيش فيها فترة من حياته ، كان حريصا كل الحرص على ذكر جمع النماصيل والخرنبات التي لا يهتم بها الكثير ما اليوم ، ويرى في الحديث عنها ، في أي مناسبة كانت ، صريحا من سمو وصناعة الوقت ، مع أنها تفتح أمام الدارس عمالا كبيرا لدراسة نمسة الشعب والتصورات التي نصرأ عليه بين وقت وآخر ، وتساعد على تفسير بعض تصرفات المعبية في ظروف خاصة ، هذا بالأصافه الى أنها تربط حاضريا بماضينا ، وتكون حرة من تكونها الخلقى ، وشخصيتها القومية .

وهذا المؤلف انغمس في مشاعره نحو الجزائر فتمسح بين سطوره وكلماته ، بين جمده والمأظه ، الخوف حينا ، وأخذ حيا آخر ومن

شأن هذا الحقل أيضا . هذا الحقل التاريخي أن يعبر لنا بدوره مسكن بعض الدول ولأمر د تجاه الحرائر المعاصرة ، التي بدأت تستعيد مكانها التاريخية وتستعد لقيام بنورها في بناء حضارة الأساس . هناك أشياء كثيرة ونصرفت متعددة ليست جديدة ، وإنما هي مواقف تاريخية كتب لها بقاء والاستمرار ، سجلها غورا وم سجلها عن ... لم يسجلها احدا دنا .

وإذا كان أعجب من تحدث عن الحرائر من المؤلفين والرحالين لعربيين ، وخاصة في العرة التي أعقبت الاحتلال ، قد اقتصر على معالجة الجوانب المذكورة ، فإن المؤلف المسمى أدونيس شترال قد تناول ، بالإضافة إلى ذلك جانباً لم يتعرض إليه ، فيما أعظم ، غيره . فهو يقدم لنا في كتابه «صور شخصية جرائرية» ، الذي نشره في مدينة فيس سنة 1842 ، قصصا وحكايات عن حرائر قدم لـ في جزء من شخصيات حرائرية وأجنبية ، وحلل عواطف بعضها نحو الحب الآخر ، وقد أحصى أسلوبه فيها لوحه ارموماسية التي كانت قد ظهرت من ذلك سواب ، كما صور طبيعة بعض الحمرين والحشع الذي حثهم على الطهي إلى الجزائر

وقد قسم المؤلف كتابه إلى أربعة أقسام :

1 - يحتوي القسم الأول منها على القصص التالية -

أ - انتقام الحصري ، وهي قصة ملارم فريسي ، جاء إلى حرائر في الشهر الثاني بعد الاحتلال ، وقد لعبت برأسة طيور لب ليله وليلة ، وحيل إليه أنه يشتق هراء الحوائر ويردد ملاهي الرقص الشرقي ، ويحشر في نعيم ما بعده نعيم وشاهد ذات يوم إحدى نساء أحمد بن حمود ، وهو من الزبائن مدينة الجزائر ، فوق سطح المرب المحاور لركله ، فقام بها ، واخذت هي تبادل بعض لاشارات ، ولكن سببها علم بأمرها ، وربما منلبة بحريتها ، فاستسلمت له استسلام لحماة غداً الصفر الجديدة ، فمضى بها إلى صبيته قرب مصكر ير حادم ، وهناك أنضم منها في بحر أحد الأيام وعند عودته ناداه أحد الحراس ماداة برادوا لمرسيكو في مسرحية هامت ، ولكن أحمد بن حمود لم يبك ، فاطبق عليه الحارس النار ورياء قتلا .

2 — المعمر المخلوع . يتحدث شترال في هذه الحكاية عن معسر قدم إلى الحرائر بحثاً عن الثروة وأضاء ، صر في طريقه بمائة يسكبها بصفا جود فرصت عليهم الإقامة الجبرية ، فاقرب منهم وأعرب لهم عن رغبته في الحصول على منزل يكون قريباً من الحرائر .. وبعداً عن أسار ونازود ؛ ودا بأولئك الجود يعرضون عليه ، ذك إشارة حارسهم ، السارل له عن تلك البنية مقابل مشي فريك ودلو من السيد . وعندئذ احتاحت المعمر موحدة من البهجة والسرور ، واهتر طبه البداية البديهة . وحين طلب منهم أن يقدموا له صناد على صحة الصفة ، أجبه أحدهم : « هذا شيء غير معمول به في هذه البلاد » يكفي أن يقول لمرء في ذلك : « هذا البيت في ! » ونحو شهود . « وهكذا تم الصفة بكل سهولة ، ولكنه ما كاد يستقر بها حتى جاء بعض الصباط وأخرجوه منها بالقوة .

3 — معامرة حظيرة هذه القصة نصف لخطاب خرجة مرت بصباط فريسي ومرافقه الصباطي ، عندما كانا يقومان بإحدى المهمات على طريق وهران ، حيث خرج ليهما رجال من بني عامر ، واعتصموا طريقهما ، ولكن ظهور فورية فريسية على حين عرة حمظ عندهما حياتهم وأبعد طيف الخوف وبالكافي انزوب عنهما ، فاحتضى رجال بني عامر كما خرجوا صجأة .

ب — أما القسم الثاني فيتضمن بدوره الحكايات التالية :

1 — الأسير . يعترف المؤلف في مقدمة هذه الحكاية أنه قد استعدها من مذكرات رجل عايش في الحرائر مدة تزيد عن ثلثي سنوات ، ويروي قصة عراف كرعلي ، حدث حبسه عن نتائج حملة قسطنطين الثانية قبل انضمامها بحملة قصيرة ، ووصف مراحل معاركها ووقوع قائد الحملة عن ظهر حرسه وإصابته وموته ، وتبدأ كذلك للمنة بحجة مستقبلها مع حبيب العربي أ

2 — صيد الصبح في نواحي الحرائر في هذه القصة يصف المؤلف لحظة يلتقي فيها أحد الصيادين بالصبح في منطقة حسي داي ، فيكشف أن بدئيه فائرة وأن حرامه خال من الدخوة أو أجهل ما في هذه الحكاية هو تحببه لشاعر هذا الصيد ، حين يدرك الخطر المحدث به ، ويشعر بالحيوان يلقه قرصاً ،

فينتصرون القمر بدور في حنقته ، والجوم تتراقص متعاقبة في سحر عريب ، ودون
بعد أن أحس بشعر الحيوان يلامس وجهه ويمسح فيه البرودة والحمود .

3 — حسن واسماعيل وهي قصة العربي ، اسماعيل ، الذي صحن بانه
حسن ، لأنه تعدى على حرمة حين قتل صبيته أحمد حقدا وغيرة . فقد كانت
تعيش في عيتمته هذه تدعي عائدة ، يحبها حبه لابنته ، وكانت تبادل أحمد حبا
بحب ، إلا أن أحمد اكتشف أن مصيغه سوي تزويجها من أمه حسن ، ولذلك
قرر أن يتركه ويرحل عنه . فاجتمع قبل رحيله بعائدة وحدثها بما عزم عليه ،
فاحت عبه في الفداء ، إلا أن أحمد رفض أن يسيء الى مصيغه بأي شكل من
الأشكال . ورآه حسن في موقفه ذلك ، فحقد عليه . ولما عزم أحمد على السر
عزم عبه أن يرفقه مسافة من الطريق ، فكان ذلك آخر عهد اسماعيل
بصبيته . وما أن عرف هابيه حتى صمم على استرداد كرامته التي دسها امه أمام
القبائل الأخرى . وهذه القصة أروع ما في الكتاب على الإطلاق . وسيمجد
القديس نرجسها في نهاية هذا العرض .

4 — اليهود في اريغيا . يحتوي هذا العنوان على ثلاث حكايات عن
علاقات اليهود بنابيات تونس ودائيات الجزائر ونابيات وهران . وقد ركز المؤلف في
حكاياته على معاملات يهود لتجارة التي هي أساس كل علاقاتهم في ذلك
العاصمة بها .

ج — يخصص القسم الثالث من هذا الكتاب لتقديم ما يلي :

1 — بلدة عن تاريخ الجزائر ويتحدث المؤلف في هذه الدراسة عن
أهمية الجزائر وكبر صاحبها وحمودها ، ثم يعقد أسما ، أبعادها ولدور الذي لعبه في
تاريخ الجزائر القديم ، ويذكر لدول التي تعاقبت عليها خلال العصور الطويلة ،
ويهي هذه البلدة بالحديث عن سنوات الاحتلال الأول

2 — ممكة النباتات في الجزائر تحت هذا العنوان يتحدث شترال عن
طبيعة بلاد الجزائر ، ويشير في مقدمة دراسته إلى أنه لا تكاد توجد في مواحي
الجزائر نبتة واحدة غير صالحة للأكل أو للتجارة أو للاستغلال في المعامل ، وأن

الأرض الحرارية تمتنع بجموية فريدة ، تمنكها من احتضان نباتات كل من أوربا وأمريكا دون عناية خاصة ! ثم يذكر الأشجار المصنفة ولثاير اشجوة التي تنشر عطورها وروائحها الزكية في انحاء شدة الشمس الرائعة ، ويؤكد ان لكل شهر براعمه وثمره وان نتائج الأرض الخصيبة لا يقطع أبدا بصورة تامة . إن المؤلف في مقاله هذا يمجّد خصوصية الحرّ والرّيح وما تقدّمه لأهلها من خير وجمّة وعطاء

3 — الحرّائر في صورته الخالية يحاول شرّال في هذا المقال أن يقدم صورة عن الحرّ بعد الاختلال ، فيتحدث عن بعض الصّاعات الوطّية ويصعها بأنّها لم تتعدّد بعد مرحلة المصنوعة ، ثم يشير إلى ما طرأ على طبيعة الحرّائين من تحولات جعل احتكاكهم بالسخيل الأجنبي ، من ديث أنه لا يوجد من يعوق الحرّائين في تعاضيه بسد ، فهو لا يقطع عن تسوّي الخسر إلا عندما يفقد الشرارة الأخيرة من عيه ! وبعد هذا يرسم المؤلف صورة لبحر الحرّ ببيئاتها الجديدة ، وشوربعها الحديث وشرق مواصلاتها ، وحركتها المصايرة للمريضة ، التي تجعل الإنسان يشعر بأنه يعيش في مدينة أوروبية ، وصحرائها بعد ثنائي سوات من الاختلال

4 — حمام حصري يتحدث المؤلف هنا عن تحرّية دخول الحمام ، فيصف داخله وحدراته المصنفة بالمرمر ، وعرفه ورواره وعملية الاستحمام من أوجها إلى آخرها ، ويغفل مشاعره تجاه كل ما شاهدته واحتسبه حسما وعقلا لأول مرة !

5 — حصريات الحرّائر . يتناول شرّال في هذا المقال بعض مظاهر المرأة الحرّائرية ، ويقدم وصفا لحياتها المسرية ، وحروجهما لخصور الحفلات الدبية التي كانت تغام يوم الأربعاء من كل أسبوع ، أو لزيارة قبور الأرياء ، وشيلب التي ترتدبها في مثل هذه المناسبات ، ويستعرض حتى الحركات التي تصدر عنها عندما تريد أن تلفت النظر إليها أو تعرف نفسها أو تظهر رشاقة قوامها بشكل معين .

6 — سهل متبحة . يعود المؤلف لتمجيد الطبيعة الحرّائرية ، فيتصور سهل متبحة حراما فاحرا نتمترم به منطقة حرّائر تارة ، ويتصوره في بعض فصول السنة بساطا أحصر نظره الأرهاق والورود تارة أخرى ، ويرى في آثار الصباغ والقنوات ما

وصل إليه سهل متيجة من اردهار وعمرن خلال العهد المصبة . وبقي بعد
دبت ما ذكره البعض من أن سهل متيجة كان حتى وقت عمر بعد مرعي
لقطعان العرب لا غير . وبالتالي يصف لصحبة التي قامت حول متيجة بعد
لاحتلال ، وذلك حين رد كل معمر أن يكون به نصيب في حصصها وترتيب
المعطاة !

7 — قبر الرومية . يصف شران موقع هذا الصريح ثم يروي الأسطورة
التالية :

قبل زمن طويل كان يعيش بين أفراد قبيلة ححوط رجل سعيد يدعى
يوسف بن القاسم ، وكانت امراته حبيبة خورة ، وكان أبناؤه في صحة وعافية ،
يديرون له بالخدمة . وكان هو نفسه يحاربها شجاعا ، ولكنه وقع ، رغم شجاعته
أسير في أيدي الصاري ، فأخذوه إلى بلادهم وباعوه رقيقا . وكان سيده رقيقا
به ، ومع ذلك كان يوسف يشعر بهشقة كبيرة ، وما أن يتذكر ما فقدته حتى
تهجر الدموع من عييه . وذات مساء اشتد به خزن بعد أناته من عمه
فجلس تحت شجرة وأحد يداي به قائلا :

— ويلاه ! من سبرر ع حقي في الوقت الذي أروع فيه أنا هنا حفل
عبري ؟ وما هو مصير زوجتي وأطفالي الآن ؟ هل ساحرم من رؤيتهم مرة أخرى ؟
وهل سأحيي حياتي بين العرباء ؟

وبما هو في ساعاته هذه رأى سحرا مقلدا نحوه . ولد اقتراب منه قال له

— من أية قبيلة أنت ، أيها العربي ؟

فأجاب يوسف

— أنا ححوطي

— لا بد أنك تعرف ضريح قبر الرومية .

— أواه ! إني لأعرفه معرفة جيدة . إن صرتي الذي تركت فيه كل ما هو

عبري هل ، يقع على بعد ساعة من ذلك الصريح

— أتريد أن تعود الى أهلك ؟

— أهذا سؤال توجهه لي ؟ ولكن لم يحدث عن أمر من هم أحد !

— إن ما ستترك به ليس أمر مستحيلا . هي امكاني أن أضع لك طريق العودة الى وطنك ، إلا أني أطلب منك لي مقبل دست عملا ، فهل أنت على استعداد للقيام به ؟

— تكلم وكفى عني يقين من أنني سأفعل كل شيء من أجل الوصول الى أسرتي . أما على استعداد للقيام بكل ما يرعى صمري

— كن مطمئنا ياسيدة هذا الأمر . أعرفي الآن سميتك ستصبح لك ما أريدته منك . سأحررك في هذه الساعة وأهيء لك سبيل الوصول الى بحرل ولت بعد عودتك أن تعيش في أفراد عائلتك ثلاثة أيام كاملة ، على أن تسحب في اليوم الرابع من صريح قبر الرومية ، وتشعل نارا صغيرة ، ثم تحرق الورقة التي سأسلمها إليك . هذا يدري أن هذا من السهولة يمكن . أقسم لي إذن بذلك ستفعل ما أطلبه منك وستأصحبك حريتك في الحين

ففعلا ابن نفاسم ما طلبه منه ثلح حر ، وأخذ منه ورقة تحتوي على حروف ورسوم لم يتوصل الى فهم دلالتها . واستعد حريته في اليوم نفسه ، فعاده وفي سمته إلى مرافا ركب معه إلى الحرائر ، ثم يبق بها سوى خطوات من شدة شوقه إلى رؤية أهله وسافر في الحال إلى مسقطه قبيلته . وفي وسع المرء أن يتصور البهجة التي عمت أسرته . وقد تقاضى اليه أصدقائه ليشاركوه أيضا فرحتهم بعودته ، فعلى حمله مردحها بالصيوف مدة ثلاثة أيام

وفي اليوم الرابع تذكر العهد الذي قطعته لحره ، فتوجه مع الفجر الى صريح قبر الرومية ، وأشعل النار وأحرق الورقة لغربة كما أمره الساحر . وما كادت النار تأقي على الورقة ، حتى اعترته دهشة كبيرة ، فقد برزت من شقوق الصريح آلاف لقطع الذهبية والفضية ، كأنها أسراب محل أمرها حدثت مغارات على غير هدى . وثبتت هذه القطع تحوم حول الصريح مدة ، ثم غيبت اتجاهها فجأة

وسارت نحو بلاد البهاري ، وقد اتخذت شكل عمود لا نهاية له ... تماماً كما تبدأ الخطاطيف أو طيور الحجر رحلت البهدة .

وكان ابن القاسم ينظر بام الى كل نبت اللوات التي كانت تظهر فوق رأسه ثم راح يفكر محاولاً أن يمسك البعض من . وبعد أن أتعب نفسه دون فائدة جدد برؤسه ورمى به في الحفرة استطاع بهذه الطريقة أن يمرل حوالي مائة قطعة فضة وعشرين قطعة ذهبية . وما كادت هذه القطع تلامس الأرض حتى غلغل الكبر ولم تسرب بعد ذلك أية قطعة خارج الصريح .

ولم يتحدث ابن القاسم احداً عن مغامرته هذه باستثناء عدد قليل من أصدقائه ومع ذلك فقد سمع الباشا بهذا وأرسل العمال لهدم الصريح والاستيلاء على محتوي الكبر ، إلا أنه ما كادت تسقط صريرة المطرقة لأولى حتى ظهر شيخ امرأة فوق قمة الصريح وأحد يصيح :

— عذولة ! عذولة ! تعالني إلي وساعدني ! أهدم بهيول كنورك

على مدائها سرب من البعوض يحجم الجردان العادية ، وخرج من البحيرة المحاذرة وحارده العمال لساعاته القوية الخادفة . وبعد ذلك الحين فشلت جميع المحاولات التي استهدمت فتح صريح غير الرومية . وقد ذكر الحكماء أنه لن ينسكن غير اسفرائيل من منالام الكور شي بقيت داخل الصريح !

د - في القسم الرابع والأخير نتحدث المؤلف عن مجموعة من المدن الحضرية ، هيدكر شيئاً من تاريخ فلسطين بعد الاحتلال ونصف موقعها وجسورها وشوارعها وما قرب من بنايات وقصور ونحوه بحبوقة تجارتها وصانعها ، ثم ينحصر لتاريخها في العصر الروماني والعصور التي تلتها بصورة مختصرة . ويذكر مثل هذا أو قريباً منه عن مدينة وهران ، وعانة وحماة ، ومسكر ، وشرشال ، ومستغانم ، وأنقل ، وصبة ، وبسرومة ، وهي ذلك بالحدث عن آثار نقذات ومعامل الأسلحة التي نقلها الأمير عبد القادر إليها .

وصاحب الكتاب يقدم آراءه حول الحرائر بصورة عامة ، إلا أنه لا يلمح

أن يهمهم من هذا أن تلك الآراء صائبة دائماً ، وإنما هو يخصه حياناً كما أخصاً غيره فله أو بعده . ويرجع خطأه بما أن التأثير بالأفكار لملاحظة التي كانت تشيخها الهندية الاستعمارية في ذلك الحين أو أن سطحية بعض ملاحظاته عن الجزائر ومقابلة مكابها . وهذا النوع من الآراء خاصص على أنه مجال لمناقشة والرخص .

حسن واسماعيل

كانت هناك عدة حيام قد صرت تحت أشجار لعلع ، التي تنور أعصابها من حين لآخر قطرات نضج ، فتلتصع كاللرجم في ألح الشمس العارية ، وقد جلس أمام تلك الحيام حمدة أشخاص ، هم . الشيخ اسماعيل ، وهو عربي لا يزال ، رغم تقدم السن ، يحتفظ بقوته ونشاطه ، وزوجته ، وبه حسن ، وفتاة شابة ، وعريب يرتدي الزي التركي .

كان الشيخ قد حدث العريب عن كيفية التحاق الفتاة ، وهي بتيمة فقيرة ، بأسره . وبعد أن قبلت عاتمة يد مرتبها ، وأصل الشيخ حديثه قائلاً ، وقد أدار وجهه نحو العريب :

— لقد أتيت بك أكثر من مرة أن تلاحظ ، خلال المدة التي أقمتها عندما ، مدى حيي لعائدة ، ليس كذلك ؟ أي اعتبرها أنني وأرجو أن —

طن حسن أن كلمات أبيه تعيه هو لا غيره ، ولذلك انقضى على عائدة نظرة منشبهة ، فاهترت ابتاعة وارتعدت مرأيتها كما لو أن هبة ريح السموم المحرقة قد الهبتا أما العريب فاطرق معكراً . فقد أثارت كلمات الشيخ الواضحة وبطرات حسن في بصره مشاعر لا توصف . وعندما انتهت الجلسة اقترب من الفتاة وهمس في أذنها كلمة لم يسمعها غيرها ،

ثم اشتهد وعلامات الخمر بادية عليه ، دون ان يهتم بما ارثم على جبين حسن من محامل العصب والصف .

لم يحضر بهاء ، صد أن سكن صرل هذا العربي ، ان عائدة بمكر أن تكون عروس حسن ، ولهذا اطلق العنان لحبه . وكان هو الوحيد الذي نجا من السموم لني عصت على العاقبة ، فوجد عند هؤلاء الناس الغيبين كرم حقيقيا وصيافة اصية ، وتعود على الحياة اسيطرة هيبة الى درجة أنه لم يدكر حلال ذلك في الاتصال بهم . وكانت عائلة نجبه ، الا أنه عرف ، في الوقت الذي أراد فيه أن يفتح فيه الشيخ اسماعيل ويطلب منه يد ربيته أن عائدة محطوبة لشخص آخر .

وهكذا قرر ، وذلك لكيلا يحزن بين الشيخ وبين نعيم ما عزم عليه ، أن يصحبني بحبه لعائلة من أحد المحفوظة على واحيت الكرم والصفية ، وأن يهجر سرة مصده ان لابد ، ولكنه أحمى دست عن الشيخ اسماعيل حتى لا يسيء الى كرمه وحسن صفاته ، ثم يدكر له خيفة كامنه ، وانما حمله على الاعتقاد بأنه يعود اليه بمجرد أن تسمح به اعدائه بدست

وعندما عاد جميع أفراد الأسرة الى حياهم ، ترك العرب حيمه ونجه ان العين لقرية . كان تليل هادن ، وكنت خشرت سمع بين الاعشاب كحرم لسماء . وفي دست المحفة نهدي صوف المروح قد رائع — وهاهي العروس تقف أمام أحمد فيقول لها :

— في أحلك ، وبسعدني أن تباديني هذا الحب ، ولكن بما أن الشيخ اجتماعي قد احتارك لتكوني زوجة لاه ، فيجب ان تكوني زوجته ، ولا يبق بها عن الانثى أن تقضي على آماله ، فهو وفي بعفت

فأجابته الصفة ، وهي تحاول ان تعد في بطرات احمد ما يثبت دعوها

— ولكن حسنا لا تخشي .

— نقول إنه لا يثبت ؟ لم تلاحظي بطرانه المنشبهة عندما اعرض اسماعيل

انث خطبة انه ؟

قالت :

— انصت ! هناك حركة بين الأعصاب .

فاجاب الشاب :

— لعله حيوان يصغي الى حديث من مريضه

ثم أضاف :

— هذا آخر لقاء لنا .

صاغت عائدة :

— ماذا تريد أن تفعل ؟

— انها مشقة الله — سأسأل

— يا هذا الكلام ، يا أحمد ؟ أتراك سميت ؟

— لم أكن أنت جديره برحلي ، هو من ولي بعضا لدي اتسم معا

حبته وحبره — لم أكن أن أذكر الخميل أسوأ من ذلك الذي لا يقرى صهوة ،

ومع ذلك فان هذا الأخير يعرض الله ، هذا يأتى بأكبر الخميل ' — عائدة ،

اعتبرني منذ الآن أختالك !

احت العتاة المسكبة رأسها ، واعرفت أمام نفسها ، والدموع تنهمر من

عيونها ، أن أحمد على صواب وعراها انزعج فحاة وفاد ، وهي تشير و

الادعالي القريبة منها :

— نظر ، يا أحمد ! البست هذه نظرت العهد مارية ؟

فمست أحمد مضمخ حجرة ، واتجه نحو المكان الذي اشترت اليه

عائدة وحين اقترب من الادعالي سمع غصوات هارب يتعد . ولما رجع الى عائدة

قال لها :

— انها غزلة .

وأضاف بعد لحظة :

— سأترككم بعد يومين . وإذا كنت تذك ، يا عائشة ، إلي سأعود بعد فترة قصيرة فلا تصدقيني سأتركك لي الأبد !
فاعترضت الفتاة قائلة :

— ولكن كيف يمكن أن أكون روضة لحسن ، وأنا أحب غيره ؟ — وأنت
تسكت —

أنا ، يا عائشة ؟ إلي أبحث حبا صادقا ، أنا لا أحب حبيبة حسن —
فمنقطع هذا الحديث عودي إلى خيمتك ! بعد استعرت ابنه ، وهذه
رأفته . — ألا تهتدين طاعته ؟
أجابت عائشة :

— نعم . لقد قال كلمته على لسانك .

وتمتدب عائشة بعد هذه الكلمات . فما أحمد فقد بقي واقفا في مكانه
وكأنه معروس في الأرحس ، وعياه نشعب عائشة أنداه . وعندما أحتفت تحت
حبتها حين أياه أنه رأى شبح يقترب منها . وبعد يومين ودع العرب الأسرة
وكانت عائشة عاسرة تفريها عن إخفاء أنها عندما حدث أحمد عن رجوعه
القريب ، لأنها كانت تعرف معنى ذلك . وفي اللحظة التي كان فيها أحمد يهيء
نفسه لاسر ، ظهر حسن ممطيا مشهورة جواده ، واقترب منه وقاد
— أسمع لي ، أياها الأخ ، عرافقت حتى سنك انعين المعروفة .

فقال الشيخ العربي :

— احسنت ، يا بني ! رافق صبيما .. حفظه الله وأعاده اليها قريبا !
كانت عائشة لا يزال منصبة كالتمثال في المكان نفسه بعد أن أحصى
الراكبين عن نظرتها المنطلعة بمدة طويلة .
قال اسماعيل لروحه وهو ينظر إلى انشاة منسما في اعجاب

— سيحدث حسن فيها راحة رفيعة طيبة .

ولكن العجوز انطرفت معكزة ولم تحب . وفي المساء عاد حسن الى البيت .
مرت الأيام اتية ثقيلة بطيئة . فقد ترك سمر أحمد فحوة محسوسة بين أفراد الأسرة
التي أحسنه ، باستثناء حسن الذي أبدى ملاحظة دسنة ، وهي أنه لا يستطيع أن
يفهم كيف أصبحت البهجة من وسط الأسرة باحتفاء العرب . غير أن الشيخ
قال :

— إن هذا له ، التي فادت العرب أن حيث ، قد أصبحت البهجة لي
وسمنا . حدث أن وصوى المبادر إلى هو هة من أنه . وإلى لأرجو أن يعود أحمد
قريبا ، فقد أعترف لي ككثير من مرة بأنه يأمل في الحصول على راحة من بين بيت
فيلتا .

أحباب حسن ، وهو يلقي طرد باهدة على غائبة مريحة .

— إن العرب الشريرة نمتا وضع العشيرة هو أنصارا وشك حركت كاهوة
تحت قدام . إن الكرم أعنى ، وأنه لم يصح على حسن أي أسان علامة بدن
على أنه خير أو شرير . ألا سبه لحية يودعه لأفنى السامة ؟

قال اسماعيل بحدة :

— أرجو ، ياسي ، ألا تنصص كسانك أيهما للعرب الذي لا يستطيع
أن يسمع ولا أن يدافع عن نفسه !

— هل يقتضي الكرم أن يصبح العرب أن لمصحه ويعود الأس عرب ؟

— هناك ، ياسي ، أفكار شريرة تطوف برأسك أنت عيران . هل
يبلغني العرب ، عند عودته ، هناك عندي ؟

— وكيف يكون الأمر إذا كان العرب يحب حظية ابنت ؟

— لي هذه الحادة سأترك مصفاة حرية الاختيار بين الاثنين .

— إذن ... لا أعاد الله العرب أبدا !

قال الشيخ العربي ، وهو يترك مكانه :

— طهر الله قلبك من الحسد لجاثم فيه !

ثم سار اسماعيل وقد قطب ما بين عيبيه ، واثقل صدره الطس والغم وفي
صبيحة اليوم التالي ترك مصر حيامه وم يعد كلاً بعد يومين . كان وجهه
شاحباً ، وحاجباه يتقاربان في أغلب الأحيان وبصورة متشججة . وعندما احتضت
الأميرة لتناول الطعام ، قال اسماعيل لابه الشاب هذوء

— لماذا لا تحمل حجرك في حرامك ، يا حسن ؟

فاجاب حسن في ازتيك :

— لا أدري ، يا أبي ! يبدو أبي مسيت أن أعمره في حرمي !

— امص بلبحث عنه ، يا بني ! فأن أهد أن أقدره بحجر آخر عثرت عليه
يوم أمس .

قال حسن وهو يحاول أن يهالك نفسه :

— أبي ، يا أبي ، أتفقد الحجر مد بصعة أيام وأذكر أبي نحيب مرة
لأطيل الركاب ، فاصمت حجري ولم أعثر عليه .

فأرى الشيخ اسماعيل انه حجراً ، أحصى شعرته عنه :

— أهو هذا ؟

أجاب حسن في خزم :

— نعم . انه هو .

فقال اسماعيل وهو يلمص بظفره المائدة بحس :

— أنظر آل هذه الشجرة !

فراجع حسن عندما رأى الشجرة الملتحة باندم والصدأ ، وبهت الشيخ

وهو يقول :

— والآن اتبعني !

وصار الرجال صامتين جنباً الى جنب ، وعندما اجتازوا أشجار الصلح
والحمير ، توقف اسماعيل فجأة وقال بصوت جيل رنين :

— اين تركت العرب ، يا حسن ؟

— قرب عين المنع .

— هل تعرف ما اذا كان قد حل به مكروه ؟

— ومن أين لي أن أعرف ما اذا كانت تمر الصحراء فتك به ؟

فصاح الشيخ بصوت عاصب وقد اتفحت عيانه كالبرق :

— حسن ! وهل للسر خاخر ؟ وهل يفتال الشجاع من خلف ؟

— عندما يتسلل لشباب الى الخيمة ، فإن الأسان يسحقه بسور رحة

— حسن ! لقد قلت ضيف إليك .

فصاح حسن وقد فقد السيطرة على نفسه

أجل ! لقد قتلته ! لقد قلت لنقي الذي حذع مصيحه وكافأ محبه

بالخيانة .

ثم حدثه عن انقضاء الأخير الذي تم بين أحمد وعائدة مستنحاً كل شيء
من حركاتهما وإشارتهما ، لأنه لم يسمع حديثهما كان اسماعيل يصفي اليه
بانتياء ، وبعد ذلك أخذ يندقيه تحت درعه وبحث الصويرة باهامه ، ثم عرر طرف
السدقة في الأرض وانكأ عليه وقال .

— حسن ! ان الصياغة واجب مقدس ، ومن اعتدى صيغه ، وبز كان

محرم ، حل به عقاب الله لقد جلست على العار ! — قلت لرجل الذي كنت
تسميه «أحاً» بطريقة عادية دينة جبان واد كنت متيقناً من ديه وعدة عقده
فلماذا لم تنهجه أمام وجهه عما ؟ لكن دعني أجبتك على ذلك ! انت لم تقنه
بعيدا عن حياتنا لأنك تخاف ان يدس دم رجل شرير أرضنا الصفاء ، وبما
قتله لأنك كنت تعرف الي صهي الى صوت العدالة لا الى ما تحلبه بروة عمياه

لقد تركت يدرة لأفكار الشريرة تنمو في وحدائك وانثرت انصحت العادر هبها
كنت تقدم يراك بصيغ الواثق بك ، الذي كنت تسميه «أحبا» كانت يمالك
تدعى مقبض الخنجر . لقد تسميت كالكلب الخنجر لتقبل يدك لدي كنت
تريد أن تقتله ، هزفت العريب بدعوى أنك تريد أن تدفع عنه ونجمه ، ثم عززت
الخنجر بين كتفيه ، ولعله كان في تلك اللحظة يدعو لحبسا انصيافة باليمن
والبركة ! فذهب ديت ادد اذا خردني قبيني وأرغمني عن السجود الى القبائل
اضاورة التي ستحتقرني بحق ونشير الي بالسان . واني لاسمع الآن الاطعيل بسحرون
من «اسماعيل انصياف» بينا الشيوخ يوجهون الى السؤال الذي وجه الى اول من
اجرم فوق الارض «ماذا فعلت باحيث و» لا يعني ان يحدث هذا ! — أريد
أن أسير مرفوع الرأس وأن يكون في وسعي أن أعرض على بن اسميل قبيني .
فاحتكم لأن ال لله وعد منحكم يسا نقيئة في اجتماع افرادها جميعا .
اتبعني !

وعندما رجع اسماعيل الى حيثه ، اعرضت طريقته روحته باكية موهجة
يديها ، وصاحت بصوت راعش .

— ماذا فعلت ، يا اسماعيل ؟

فأجاب ارحل وهو يصع بدفته في حدى روايا الخيمة ، ويحفي رأسه في
ثأبا ثأبه :

لقد سلمت المسب الى قاصيه وأنقذت شرف قبيني .

ومد دلت اليوم لم يظهر أثر الخس قص ، ولعل أباها قد أبعد عنه في سورة
عضبه الى الأبد ،

المجلد الثالث عشر

كليمانس لامينغ

كان لامينغ صانعاً في حقل إمامة أولدنبورج ، ثم سافر إلى أسبانيا سنة 1839 . وبعد سنة أسهر برط صديقه إلى جزائر حيث التحق بالفرقة الأجنبية ، وعاد بعد سبعين وعاش في وطنه الثاني فوضع كتاب بعنوان «ذكريات من جزائر» . سنة عام 1844 عاد إلى أولدنبورج وهو يصف في هذا الكتاب الحميات البحرية التي شاعرت فيها وبعض المواطنين الذين كاد على اتصال بهم . وقد كتب في مذكراته تاريخ مستعمر 1841 أن رجلاً جرح ويدمر ، فقد خرجت جيوشه إلى سهل الشف واستوت على قطعان وأصرت النار في القمح ، فتجوز السهل كله إلى حر من نار (ص 2)

وال مؤلف يولي علاقته بالمواطنين اهتماماً كبيراً ، فقد كان ينتصر على الخيوس في المقاهي العربية بالقبيلة ، ويعود عن سكانها أنهم عرب أصلاء ، لم يجد أظف ولا أكثر أسبانية منه حتى في جزائر وهران ، حيث بدأ احتلال سكانها بالفرنسيين يعني على بعض طائعتهم وحضاهم الحميدة . ويذكر أن اللغة الأسبانية قد احتضنت بقوتها وانتشارها إلى حد ما وكان كاتب الحكيم صديقه ، ويدعي ابن يوسف ، وهو رجل مثقف ، فيما يقول المؤلف ، يروي كثير من الأشعار الفارسية . وينسب سلوكه بتوضيح الإنسان المفكر لا يني

يتأسف لكونه لا يعرف إلا القليل 1 والقليلة مدية مقدمة عند العرب لأن بها صريح عائلة عبد القادر ، والعربيون يحترمون هذا الصريح ، وهناك أن الأمير عبد القادر نفسه تعهد بعدم الهجوم على هذه المدينة وبواجبها . (ص 7 - 10)

ويذكر لا مبع أن حاكم المدينة من أسرة الأمير ، وهو عيسى جندا وبعد المثل الأعلى لمرجل العربي ، لأنه يحب لأعدائه ، كريم جواد مع أصدقائه وقد رآه شخصيا في رمضان يقوم مع جنائه الثلاثة الكبار بأضام حواي عشرين سائلا . وصيغة المرل ، في نظر المؤلف ، تجمع بين صفات متناقضة ، فهي الشدة والحلم ، والقسوة والشفقة ، والخنوع والكرم ، فعل الإنسان أن لا يخضع هذه الطبيعة لفديس أروية خاصة ويؤكد بعد هذا أنه لم ير عربيا واحدا يحاول اثبات ماخياة أو يكفي خوفا من الموت ! (ص 20 - 35)

ويصف الحنة في معرفة الأحبية فقوى « لا ما يعيش في مجتمع الخيرات ، والحدي والشجاعة سيوعيد بالضرورة ، لا أن يسو أن العرب لم تفهم هذه شيوعه ، فقد حتمى عدد كبير من حدود ، ثم عز عيبه فيما بعد دساتين ولكن بدون رؤوس » ثم يعود في الحديث عن العربي من سكان القبيعة وعن حبه للشعر والموسيقى ، من ثم لا يجدو عفهى واحد من معن وقصاص ، وعدها يوجد أكثر معن وقصاص في شمال إفريقيا ، اشتهر بصوته الجميل العذب ، بحيث أنه أصلى عليه سم حافظ ، الذي يذكر إحدى الأساطير عنه أنه تبارى مع عدليب في الغناء ، فلما انتصر حافظ مات العديب لما وحسره / وكان هذا الممي الحارثي ، وأسمه اصولي ، قد فقد رجلا وهو في الثالثة عشرة من عمره في معركة مع قبيلة حجوط ، وبعد ذلك التحى انصرف إلى الشعر والغناء وهو يتحدث في شعره عن حب الأبدلس واسرار عد برحم وعظمة قرصة وكانت عيون سامية نسمع حين يرفع صوته بالغناء وتصعب أنعام لمدينة وتختف شيئا شيئا إلى أن يشد قصة هروب عبد الله آخر ملوك قرطبة — عمدت تسكن أندلوية وتسقط رؤوس المستمعين فوق صدورهم !

وشارك المؤلف عرب القبيعة احساسهم بالألم ، عالمت أن أس يوسف الذي كان جالب أن جانبه ، وأخبره بأنه شاهد مواطني المحادهم ورأى قصور

الملوك والحمراء وفرطية . وما أن سمعوا ذلك حتى طهبوا به أن يحدتهم من
 لأندلس ، ولما اتعوا عليه وصف لهم جمال فرطية وأعمدته الكثيرة ، وحدتهم بأنه
 رأى دماء أجدادهم هناك . فلم يستطع ارمس نحو آثاره ، وبعد هذا أخذ احمرا
 رؤوسهم تحت برايسهم . فقد عادت سم أفكارهم إلى ذلك الحد الذي سوه
 هناك . ثم قدروه وأصبحوا لا يرون آثاره إلا من خلال ما يشعرون به من حر
 وأنسى .. من خلال ذكريات تنقل من حبل إلى آخر . (ص 40 - 39)

ويتحدث المؤلف عن المعارك التي دارت في نواحي مدينة جبيل ، ويقول
 ان القبائل كانت تهاجم معسكرات الجيش لمرسي باستمرار ويتحسون معه في
 معارك طاحنة في ربيعة النهار ، ثم يعودون إلى مآكلهم ولا شعر الجيش لمرسي
 بعمره عن التعصب على رجال القبائل ، والحيلولة دون تكرار تلك الهجمات ،
 أصدر القائد أوامره بفرقة لأحبية يهاجمون دبلا على القرى الأمنة التي تسكنها
 تلك القبائل ، فخرجت للبحث عنها في الجبال ، وبمربع الصخر فتح الحدود موقع
 العرة واقتربوا منها ، فمروا رجلا محمور في طريقه إلى الحقل وأمامه ثوران . وعندما
 بصرهم ولّى هاربا ، ولكن السائق مسددت نوره وأطاحت أرضا . وكانت الأوامر
 قد صدرت إلى المحمور بقتل جميع الرجال فصددهم أمام مساكنهم وأطعمهم عن
 آخرهم وسهروا القرية كلها ، وأخذوا الأطنان والساء معهم ، ومروا حين ظهرت
 قبائل أخرى ، واضطروا إلى التحلي عن ماشية التي اصطحبوها معهم وبعد أيام
 جاء الرجال وأخذوا النساء والأطفال (ص 60 - 62)

ويقول بعد ذلك «لقد تعلمنا القسوة من رجال القبائل الذين يهاجمون
 عن وطنهم أكثر مما تعذبوا هم من لاسديية والمديية ومن المؤلف أن الحرمة ،
 وأهم شيء فيها هي السرعة . كما قال صديقي الخرائري ، تحمل الإنسان أعباء
 على أن يعتقد احساسه بالآخرين .. وبسبب أنهم بشر مثله يأمون ويخربون لا نحل
 بهم من مصائب . (ص 63) ويروي أنه دخل مع آخرين على شيخ مرتبط بشعره ،
 فالتفت إليهم وقال . لاسو بوسو روميس - المسحجسون ليسوا طبيين ؟
 (ص 65) .

يستغروا كمنعصرين في مكان به أهاليه . ان العربي أقل حشعا من الانجليزي ،
ومع ذلك فقد كان مكروها في كل بلد حط رحاله به وساد فيه نفوذه ، فقد
حالت شعوب المانيا واهناليا وسابيا ومصر بينهم وبين أن يكون هم حق المواطنة
وطنا فقد استولى العربيون على الجزائر ، ولكن سوات كثيرة بقدر الأهم التي تم
لهم فيها الاستيلاء عليها لن نكفي للاحتفاء بهذا البلد بطريقة اخرى عبر قوة
السلاح والسار !»

وقد اعتمد ديكر في وضع كتابه هذا ، وعمومه «الجزائر» والحرب الجزائرية
هناك» على سلسلي وبوكلر - موسكتو ورويه وفاعر ورسائل بعض اصحاب
الكتب الذين تصموا ان جيش امراءه وعن هذا فهو لم يكذب في شيء
جديد ن يذكره هؤلاء العرب ، وبذلك لم حسم ايضا بكلمة خاصة

الفصل الرابع عشر

لودفيغ بوفري

لا يعرف عن بوفري سوى أنه كان عصوا في نادي لهجرة وشؤون المستعمرات بـ مايا ، ولعل هذا يتحداه بكفي لثروة العرض الذي وضع من أجله كتابها بعنوان «مستقبل الجزائر في ظل السيادة الفرنسية» ونشره سنة 1855 بمدة برلين وقد رجعته إلى ماويون ثالث أعجبا بالحصارة الجديدة التي دخلت أفريقيا بفصل الفكر الحذر الذي بهت من فرنسا وحلت عن الحصارة القديمة . في رعمه¹ ولا بهما حديثه عن وسائل الهجرة ولا عن عني من الأوروبيين بعد وصوله إلى الجزائر ، وإنما بهما حديثه عن الأمير عبد القادر وعن الظروف الاحتاجية وانعية . فهذا الرجل الذي يتحدث فرنسا في أهدافه ، يقول هو نفسه عن الأمير «إن أوصاف بوغرطة كما ذكرها لنا سالوست قد نُجِلت مرة أخرى في شخصية الأمير عبد القادر عندما قصت الظروف ظهوره على مسرح الأحداث ، فقد جعلت من الحوادث التي جرت في بلاده بطلا ، ولولاها لظل مجرد رجل بسيط أو مرابط ذي نمود كبير ، وهي أقصى مكانة كان يمكن أن يصل إليها تحت الحكم التركي . إن الأحداث قد جعلت من رجل التاريخ ، «وإذا أحدا الامدادات التي كانت تتوارد على الجيش الفرنسي ، وشجاعة جنود فرنسا وتموق جراتها في التنظيم الحربي ، بعين الاعتبار ، فلا يسعنا إلا أن نقول إن

الأمير عبد القادر قد اهرم في هذه المعركة غير المتكافئة ، ولكن هزيمته كانت مشرفة ، ولدست كان جديرا بأن يعترف به ببطولته لي أبعد حد ، وذلك ما فعله أخيرا نابوليون الثالث ! (ص 115 - 122)

ويصف المؤلف ان ذكرى الأمير عبد القادر ، الذي تنفى وحده انما نحن بصدره ، بينما كان غيره ينظر الى المستقبل في يأس ، منحله ما بقيت اللمعة العربية حية خالدة وما بقي العرب يحتلون مكاسبهم بين أمم الكرة الأرضية فاحتل الشرق ، الذي يمتار بخياله وشاعريته ، يحمل لشرقين ، وبخصوصا العرب ، على تحديد أعمال ابدلهم وتراعها من الماضي . فم يكن من المتوقع الا يجد رجل كعبد القادر ، نصدي بمفرده للدواع عن دمه وحرية أمته ورأى كل عربي تصحبه في سبيل قضية مقدسة ، شاعر ، من بين أفراد شعب شاعر بالمفطرة — يحلده مآثره . وقد وجد هذا الشاعر بالفعل ، ونظم فيه شعر دافع بين لباس ، وإذا كان هذا اشعر لا يبلغ طول الانلاحم المعروفة فإنه يكفي لتحديد ذكره بين العرب الى الابد . (ص 122 - 124)

يقول هذا الشاعر :

هنا .. يا علي يا وحيد ،
ما أعطحك ، يا غامر الذنوب لمن تاب
ورجع ! ما أسعد من تحفته وترعاه !
مهل لي أن أكون جداره في يوم الدين ؟
حين يراه العدو يتسحق كاتقصص المعص ،
ومن لم يره هابه .
جواده . بهمة الموشى يبعث الرعدة في السموس .
ودرع المذهب يخلص الذنوب خصا .. فتطوي
رعاه . وحيد فرسانه تشبه العرالة في سرعتها ،
وقواته النظامية مدسة نلال مصفوة ..
حين تطلق بسبقها البرق المربع ،

ندفع كموج البحار في المدى البعيد
 وتكسح العدو كالسيل الخاروف . ترى
 من يتلقى سيل الخيل بصدرة ؟
 الدنيا كلها تود أن تخدم سيدنا ناصر الدين ،
 لقد تسمى باسم أبيه .
 أقرت له بالصاعدة القبائل والأحواذ ،
 وعصمت العرب لأرادته .
 إنه نور الله الذي يشع بين عباد ،
 منرفوه وامدحوه وأكرموه !
 بسرعة البرق استولى على البلاد ،
 وأصبحت له طابيره وأعلامه ومدامه —
 وكان حبيباً ووجه رسائله إلى جميع القبائل ،
 فسارع الشرق كله إلى طاعته والتحق به
 سكان انقري والمدد والأنهاب . جموعاً عميرة ،
 هتركوا ظهور حبيدهم والنصرا حوله . كانت لهم
 حياذ جميلة وأسلحة موشاة . فدعوا له هدياتهم
 فائليل . لك ، ياركن الأركان ، أرضاً وسلاحاً
 لا شيء يمكن أن يفارق محمد ذلك
 الذي رفع السلاح لصرة دين رسولنا .
 سيدنا الأمير أبوخر الناس مجداً ،
 ألم يملأ نفوس الظالمين وعيا ؟
 انه سلطانا .. الشريف الذي أحضر
 أبوه من صلب أحمد هاشم . سوف
 ستجدونه في يوم المعركة يمتثل
 كل من يتحداه ويقاومه علانية .
 لقد قطع دابر الأشرار ، لذلك فهو .

بمديحها جدير .. وعهدنا أثر .
 كان يزررنا بقواته المنتظمة ..
 وكانت القبائل فاصبة تسير في أثره ،
 فدخل مدبا القديمة الشهيرة . فسعدت
 برأيته تلمسان ومعسكر ..
 اسألوا عنه جبال الوشريس المشطورة ،
 حيث ارتفعت أعلامه فوق القسم المائنة ،
 واسألوا بعد جبال الغرب !
 فرسا نفسها .. بلد المدوك عثرت به .
 فحصب له سكان التل والصحراء ، وانصوت
 تحت لوائه الجموع العميرة من عرب وقبائل .
 سلطانا يتقدمه المجد والحلم ، قاجه
 كل الذين رأوه .
 رجل عديم .. جميل الوجه فارس معولر ،
 بنت في سرجه أمام عدوه . لثت كل ماملكك ،
 لك كل حراتنا . سر مما تشاء ، ياسيدنا ،
 ملك ما الطاعة . كل الطاعة ا عاجاب :
 اسمعوا أيها الأحماد .. وأنتم أيها العرب
 وما جموع القبائل ! أما الخناح عبد القادر
 بن يحيى الدين . قمس انهم أن يعرفوا اسمي !
 ليست السيادة . ولا المرتز مطمحني ،
 وليس اليهق الخادع صيوتي ، وذلك ما
 تصبون اليه أمم ،
 كل رعتني أن تصبوا احده تحت أمري ،
 وتتخفوا عن العلوة والموضي .
 فاصبروا إلى بلادنا ! هاهي قد وقعت تحت

بهر الكافر ، فأصبح يعيش في أرض الجهاد
 والبطولة ! أليس هذا عمر عليها ؟
 الشعوب والملوك تشهد بذلك ، هذا تعاصدا
 فانه ناصرتنا لا محالة .
 بالجهاد سنأثر لأنفسنا ولبلائنا ، وسوف
 مدخل أرض الجزائر . لنخرج الكافر منها ،
 مطرده وبعيد لئلا يتناقمه ونقيم
 أسسه من جديد . فقد وعدنا الله بالنصر ،
 نحن العرب . أبناء الرمس ، وسيكتب لأسمائنا
 المجد والخلود ! فلا بد من الإيمان أولا وقيل
 أي شيء آخر . ومن عصي أمرى وسوف يكون
 الفخر ماره ! فذلكمأمر بين طهرانيا ، ومن داك
 الذي يحتفل بعيش بحسب انعمو ١٩
 قال الرحان : لسا ، ياسيد لأسيد ، مفكر في غير
 ما تفكر فيه ، سنعيدك بالمقل ،
 فافص عن جدور الشر . ونحن معك ا
 سوف نجاهد في سبيل الله ونكون
 بصرة الدين الحبيب لنا اذن
 نحن ، كما ترى ، ومن أقل إشارة ملك .
 ليس لنا سواك .. وأمت سيد . قول
 قبادنا وسرنا الى المعركة . تحت امرتك
 سوف نقضي على الكافر ونعقد مملكته
 لنا لن رضى ان يظل صليبه مذبوحا
 فوق أرضنا
 أنت سلطنا .. هب بها الى الجهاد ..
 وسعيد لكمنة الله عزها وقد استها .

فقرأ معهم لفاتحة وأمرهم بالمعروف
ثم .. ساروا ..

(ص 124 — 127)

ويؤكد المؤلف بعد هذا ان الشعر في الواقع ليس عربيا عن المواطنين ولعله
يعني الشعر الشعبي ا، ويدعي أن كل انسان منهم شاعر بالمطرفة ، وأشعارهم
عن الأعلى مرتبة ، لا أن هم أعالي أيضا يحفظها لابس عن الأب دون أن يلحق
كلماتها أي تعبير . وكثيرا ما يسمع لمسافر غناء النساء وهن يقفن بطحن
الكمية اللازمة من لقمع قبل كل وجبة ، ويعتقد أن مقاطع هذا النوع من الغناء
الذي لا نهاية له ، تنفي بعض الصوء على خلق المرأة العربية ، ويرى أن القطعة
التالية أكثر دلالة على ذلك . وهي :

اراني طاحن .. اطحن والرحى تنمدد ،
أغني وأحاطب أختي ..
انفي في الخرج ، هني «الكربي» العدر ،
سأخرج إليك بعد قليل لأحدثك !
بابا عبد الله ، أراك داهيا إلى السوق ،
فحد روجي ممث ، فهو لم يذهب اليه مد
مدة . ليست به حاجة إلى أن يرى
ويسمع كل شيء !

ونستمر في طعننا ونمسي عن هذا النمط ، فيأتي دور الأم ثم الحارة ، ولكنها
في انقطع ثالث لا ترسل روحها بل الحبل ، وإنما ترسه إلى العاية ليحطب
ها ، فهي تعرف ابن تجده ا (ص 154 — 155) ويقول ان بعض أغانيهم ذات
نصبة هجائية ، تكشف عن عيوب أروع الناس قدرا لديهم ودلت بطريقة هزلة
والأعجب التالية تشدد في المؤثر الخاصة :

السيد القائد رجل مهيب ،

يرتدي قفطانا موشى بالنذهب .
عرقه بربوسان من الحرير الخالص .
له شاشية من تروس وعمامة من ستامبول !
وشاوشه يحمل عصا كبيرة ،
واسيد القائد يأخذ دوير والسابلت ،
يأخذ ثوبانا .. ويأكل قمحنا
ويقصي ليل عد حرمنا ..
ليتي كنت قائدا !
مبدي المنيع رجل كبير ، كان نوره
في وقت ما حجاب فقير ، وكان هو نصه
يرعى الماشية مقابل أربعة دوير
في العدم كنه . لم يكن له سوى قميص
قصير وزوج من الأحذية وربوس مهين ،
كبه الآن يروح عشرين حبة من الأرض
شيرانا وعمحراثنا وبزرعنا .. بعد أن
سرق ذلك من الحكر !
ليتي كنت شيئا !
المراويش والماريطون أناس أنقياء جدا ،
حول رقابهم سبحات كبيرة ،
ولفوق ظهورهم أكياس ضخمة ،
يصلون كثيرا وبأكثون أكثر ممصلين
الفتح على الشعير .
جمادا العلة قليلة في بصرى ؟
ولم الزبدة قليلة في القرية ؟
الولي لا يرفض أي شيء !
ليتي كنت درويشا !

ويذكر بوقري أن العربي ، في رأيه ، يزيد في عدد نساته بقدر ما يزيد في قطيعه ، وهو بفضل عادة هذه أو تلك ، وغاليا الولود التي تثر عجرة الأشجار ، فتختفي الواحدة منهن بمشاعرها في أناشيد مرتجلة ، تتسم بالرتابة والحزن وتنطلق في إيقاع خاص ويعتقد أن هذه الأناشيد تلقى بدورها بعض الضوء على حياة العرب العائلية ، ومن ثم يرى أنه من الصائب أن يورد إحداها في كتابه ، ويقول هذه الأغنية :

إني امرأة هدفا الحجز والشقاء ،
لا أب لي ولا أم حنوناً !
زوجي ينفّر مني ، لأنّي هافر ،
يلف ظفيري حول قبضة يده ،
ويوقمني أرضاً .. يدوسني بقدميه ،
خزّنوي الأرض من دعائي .
يخص بالحب نواره ، ويهدي لها
المحارم المحرّبة ، بينما يتركني أنا ..
أنا المسكينة عارية .
هل الذئب ذئبي
إن جعل رجلي علقراً ؟
ويل . يا ويل يا ويل !
كم مرة .. يا بابا عبد الله ،
كان يحياي أبيض محمرا
كشمس الصباح فوق جبل أبلوغ .
وكانت يداي ناعمتين
لم تعمدا على العمل الشاق ،
فقد كانت أُمّي تقول لي ،
استريحِي ، يا طفلاتي الحبيبة !
فلن تبقى معي أبدا .

ويلي .. يا ويلي يا ويلي !
 لقد ذهب اللذان أحبابي ،
 وأحبيتهما أنا من كل قلبي ،
 ليناما فوق قل الزيتون ،
 لو أني نمت بحبيهما .. تغطيني ،
 تستر جسدي أغصان النعنع الأخضر ،
 ومن فوقها الأرض الباردة ..
 لكنت سعيدة .. سعيدة إلى الأبد ..
 ويلي .. يا ويلي .. يا ويلي !

وهذه المختارات التي قدمها المؤلف تُعبر عن نفسها بنفسها ، ويعلق على
 هذه الأمثلة القليلة بقوله : إن الإنسان حين ينظر إلى الأوضاع ، التي تعيش فيها
 الجزائر والظروف التي تمر بها ، يظن أن سكانها أبعد الناس عن الشعر ، ولكن
 الواقع خلاف ذلك ، ويشير في نهاية كتابه إلى أن جمع هذا التاج الشعري ونشره
 بين الناس سيكون عملاً له أهمية وخطورة ! وهذه الأمية التي عبر عنها الرحالة
 الألماني لا تزال في محلها إلى يومنا هذا . وقراءة ما نظمه الشاعر الشعبي عن
 الأمير ، والتفكير في الأحداث التاريخية التي أشار إليها ، يبين مدى ما يمكن
 استخراجه من مثل هذه الأشعار على الصعيدين التاريخي والاجتماعي . وإلى أمل
 بدوري أن جناح لي في المستقبل تقديم نصوص أخرى تزد هذه الفترة وضوحاً
 وجلالاً .

محتويات الكتاب

الصفحة	
5	مقدمة :
7	الفصل الأول : الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان
11	الفصل الثاني : قبلهم شيمر
23	الفصل الثالث : فريدريك فكلمان
25	الفصل الرابع : حرمان هلوب
29	الفصل الخامس : شوبيرغ والجزائر
39	الفصل السادس : غايات الجزائر
77	الفصل السابع : موريس فاغر
91	الفصل الثامن : الوجه الآخر لقابلية الثقافة
103	الفصل التاسع : الأمير عبد القادر
107	الفصل العاشر : الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر إبان الاحتلال
125	الفصل الحادي عشر : انطباعات رحلة أمالي في مقاطعة وهران
177	الفصل الثاني عشر : صور شمسية جزائرية
193	الفصل الثالث عشر : كليمانس لامينغ
199	الفصل الرابع عشر : لودفيغ بومري

فقدنا الذكر العزيز ونفد لنا الشجرت
منها المناسبة ما تنبؤوا في الفعلة الأولى
كذلك مختلف كذا تنبؤوا أن تكون شجرة
هي التي القوة والشمس الجوهرة
والشمس الشجر والأشجار العزلة
الشمس والشمس الشجر والأشجار
ولا الشمس تدور على هذه الأشجار
على شجرة الشجر أن يمشي الأجر
شجرة شجرة شجرة شجرة شجرة
والشمس الشجر والشجر الشجر
الشمس الشجر الشجر الشجر
في الشجر الشجر الشجر

